الإنسان والطائر



تأليف

عايدة الشريف

الإنسان والطائر

قراءة فى العلاقة بين العقل والفطرة

عايدة الشريف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

الاخراج الفنى

راجية حسين

كلمة عامة .. وصفحة خاصة

الوجود حوار .. أخذ وعطاء بين الكائنات . فهل حاور الانسان يوما بلبلا على شجرة أو زهرة على غصن أو نجما فى السماء .

قليلا ما يفعل الانسان ذلك ، فهو مشغول دائما بنفسه عما حوله أو مشغول بما حوله لخدمة ذاته .

ولو أدرك الانسان ، سيد المخلوقات جميعا ، أن الله ما منحه العقل واللسان الا ليتدبر الوجود من حوله ويعبر عنه . لو أدرك هذا لقطع ما بينه وبين الكائنات من مسافات وعانقها بأخوة ، وغدت حياته أكثر غنى وخصوبة .

ذلك أن هذه الكائنات ــ صغر حجمها أو كبر ــ تملك القدرة على التعبير وان اختلفت أساليبها . ربما كانت لها نصيحة تريد أن تهمس بها الينا ، وربما كان لها حق تود أن تطالبنا به ، وعلينا أن نسمع لها وتتدبر ما تقول .

يقول الله فى كتابه الكريم : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » . (البقرة ١٦٤) .

ويقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقد وقف يوما فى قلب الصحراء يحنو على نبتة خضراء : ليتنى شجرة تعضد يورف ظلها ليفىء الناس تحتها من هجير الصحراء .

وكان القديس (فرنسيس الأسيزى*) يناجى الطير قائلا « أخى الطير » ويتحدث اليه ويسمع له ، وقبله كان سليمان عليه السلام يستخدم الطير رسلا بينه وبين قومه .

** ويقول الزعيم الهندق نهرو : منذ أن قرأت عن النملة البيضاء وصويحباتها أخليت لها مكانا رحبا فى قلبى .

ولمن لا يؤمنون بغير العلم والتجربة ، تقول ان العلم يؤكد صلات القربى بين الحيوان والانسان ، فعالم الطبيعة « كونراد لورنس* » يقول : أستطيع الآن أن أصدق قدرة النبى سليمان على مخاطبة الطيور لأنتى أصبحت هكذا مع حيواناتى المخبرية . تفهم عنى وأفهم عنها كل ما تود أن تفعله وتطلبه .

وعندما أخذ الرسل ورجال الدين والفكر والعلم بأيدينا لمصافحة الكائنات جميعا كأخوة لنا ــ فانما فعلوا ذلك لأن هذا هو المسلك والطريق الى تفهم وادراك أسرار الكون والايمان بوحدانية الخالق وقدرته .

(*) فرنسيس الأسيزى : مؤسس رهبنة الفرنسيسكان ، من أكبر قديسى المسيحية ايطالى الجنسية ، قضى فترة من حياته فى الجيش . ثم اتجه فى الثانية والعشرين الى حياة التقوى والاعراض عن غرور الدنيا .

بدأ الوعظ سنة ١٢٠٩ ، اجتذب نحوه بسرعة عددا من مواطنيه الذين أخذوا بتواضعه البالغ وشدة تقواه . ذهبوا جميعا الى روما حيث سمح لهم البابا أن يكونوا جماعة من الرهبان . وضع لها لائحة خاصة . وسرعان ما انتشرت رهبنته فى ايطاليا وخارجها . سافر القديس فرنسيس الى الخارج . وصل بيت المقدس ١٢١٩ . ومر بمصر وتوقف فى دمياط ، ووعظ فى حضرة السلطان الكامل .. مر به ١٢٢٤ أهم حادث فى حياته .. فبينما كان يصلى على الجبل ،رأى حلما قيل أنه ترك آثارا ظاهرة على يديه تشبه آثار الصليب فى يدى المسيح . لما توفى بكته ايطاليا قاطبة .. تبلورت روحه الوثابة التواقة الى الطبيعة والجمال ومحبته الشديدة للانسان بل للحيوان ، فى عدة روايات جمعت بعد موته تحت عنوان (زهيرات القديس فرنسيس) من أشهرها وعظه للطيور . سيأتى الحديث عنه عند الكلام عن السينما الايطالية .

(**) مقدمة رسائل نهرو الى ابنته انديرا .

(*) كونراد لورنس عالم نمساوى له دراسات وأبحاث عن الحيوان .. وقد اعتمد عليه الدكتور صبرى القبانى فى كتابة غرائب فى مملكة الحيوان .

ان هذه الكائنات ، شجرة كانت أو طيرا أو حيوانا ، هى آيات فى ذاتها لها وظائف وأدوار وعلينا بل واجبنا أن نقف على هذا المعنى ونعيه ان أردنا أن نكون كما أراد الله سبحانه وتعالى ـ خلفاء له فى الأرض .

ومنذ القدم .. وضع المفكرون والفلاسفة الكتب عن الحيوان والطير وتعتبر كتب « ديمقريطس** » و « أرسطو » عن الطيور والحيوان التى نقلها يحيا ابن بطريق* الى العربية أقدم المؤلفات فى وصف طبائع الطيور والحيوان وعلاقتها بالانسان كما ظهر كتاب كليلة ودمنة الذى وردت فيه الحكم على لسان الطير والحيوان ، وقد نقل هذا الكتاب الى العربية عن الترجمة الفارسية ابن المقفع** .

(**) ديمقريطس : « ح ٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق.م » فيلسوف يونانى يرى العالم مؤلفا من ذرات متجانسة فى طبيعتها . لكنها مختلفة حجما وشكلا وثقلا . ولا تدرك بالحواس ، ولا تنقسم ولا تفنى ، وتتحرك دائما فيلتسق بعضها ببعض وتتكون الأجسام . وقد تدرك الحواس اختلافات فى الكيف بين الأشياء . لكن الكيف . كيف الأشياء كلها متجانس ، واختلافها راجع الى فروق ناشئة عن توزيع الذرات التى تتألف منها . ولهذا فلا يركن الى الحواس فى ادراك حقائق الأشياء بل يركن الى العقل . وغاية الحياة عنده هى السعادة متحققة بالسكينة النفسية .

(*) ابن بطريق .. مترجم ذكرت آثاره عند الكلام فى الترجمة عند العرب حيث مرت فى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى من خلافة المنصور (٧٥٣) الى نهاية خلافة الرشيد (٨٠٨ ـ ٨٠٩) . المرحلة الثانية ٨١٣ ـ ٩١٣ وتتميز بترجمة كتب الرياضيات والفلسفة والمنطق وأشهرها مترجميها يحيى ابن بطريق والحجاج بن يوسف فى مصر وقسطا بن لوقه . والمرحلة الثالثة (٩٣٠) وتتميز بترجمة الكتب فى مختلف العلوم والآداب .

(**) ابن المقفع ، عبد الله (روزبه) بن دازويه ٧٢٤ ـ ٧٥٩ أديب ولد بجوار فارس وقتل بالبصرة ، وبها نشأ وتعلم ، وكتب لولاة العراق الأموية فأعمام المنصور . وأدب أبناءهم وأسلم على أيديهم . كرهه الخليفة المنصور فأشار على واليه بالعراق فقتله ، لأسباب سياسية ودينية وشخصية .. وكان معجبا بحضارة قومه الفرس . فنقل كتبا فارسية كثيرة الى العربية (قد اينامه) فى التاريخ ، (رسالة الصحابة) ، فى النظم الاجتماعية والأديان ، (كليلة ودمنة) فى الأخلاق . كشف فى كتبه عن عيوب الطبقات فى المجتمع الاسلامى ، ووضع أسسا ونظما ، ومثلا علنيا لاقامة طبقات جديدة وابان صراحة ورمزا عن الأخلاق التي يجب توافرها من كل فئة ، حتى الخلفاء . ولعل ذلك كان أهم سبب لقتله .

وقد بدأ التأليف باللغة العربية فى هذا الميدان فى صدر الاسلام . ويعد كتاب « الحيوان* » للجاحظ أقدم كتاب مدون بالعربية يشتمل على وصف طبائع الحيوان من حيث علاقته بالمجتمع الانسانى .

وعلى مر العصور الاسلامية وتداولها توالى ظهور الكتب التى تتناول الطيور أو كان للطيور فيها حظ وافر فى المكتبة العربية .. فظهرت كتب مثل « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » للقزوينى* ، « حياة الحيوان للدميرى »* . وغيرها واستمر هذا النوع من التأليف حتى عصرنا الحديث فقرأنا ونحن صغار كتيبا أعدته وزارة المعارف المصرية بعنوان « من شعر شوقى فى الحيوان » بل ووضعت الكتب والرسائل الجامعية فى موضوع واحد عن الحمام والخيول والظباء والجمال فى التراث الشعرى .

وقد لاحظت منذ الطفولة ومن خلال دراساتى وقراءاتى فى دروب المعرفة أن للطيور ــ كعنصر من عناصر الطبيعة ــ مغزى فى حياتنا ، فى جميع الحضارات الانسانية القديمة والحديثة .. ورأيت أن بذل جهد فى محاولة لرصد هذا المغزى . فى شتى فروع المعرفة قد

(*) حياة الحيوان .. كتاب للجاحظ فى سبعة أجزاء جمع فيها ما جاء فى كتب العلم والأدب . وما تناقلته الألسن عن الحيوان أجمع وطبائعه وعلاقته بالانسان ذاكرا فى كل ذلك حسن تقويم الله وأحكامه وتدبيره وقيمته فى انه كثيرا ما اعتمد التجربة فى التاريخ الطبيعى .

(*) القزوينى ، زكريا : ١٢٠٣ ــ ١٨٣٠ رحالة من أصل عربى ولد بأقليم قزوينا شمال فارس . طاف بفارس والشام . ترك كتابين : أحدهما فى الفلك والجغرافية الطبيعية وعنوانه « عجائب البلدان » وآثار واخبار العباد . وفى الكتابين استطرادات جعلت بعض المؤرخين يلقبه : هيردوت العصور الوسطى وبلينى العرب . توفى ببغداد .

(*) الدميرى : محمد بن موسى : ١٣٤١ : ١٤٠٥ أديب ولد ومات بالقاهرة . اشتغل بالعلم وشهر بالتفسير والحديث والفقه والأدب . له مؤلفات كثيرة معظمها شروح وتلخيصات ومنظومات ، تقوم شهرته على مؤلف « حياة الحيوان الكبرى » وهو أول معجم من نوعه فى الأدب العربى ... رتب فيه الحيوان على الألقاب وتحدث عنه حديثا لغويا ووصفيا واخباريا ، وفقهيا ، وطبيا ، وأدبيا فيه معلومات عن الطب النفسى وعلم النفس .

يسهم فى لفت نظر انسان العصر الحديث الى قدرة هذا الكائن على الايحاء بكثير من المفاهيم والمعانى والرموز وكيف اختلف مغزى ذلك حسب كل موضوع تعرض له • فهو فى حياة الانسان أنس وبهجة وفى طفولة الشعوب حلم وأمل وفى الحضارات آلهة حياة وموت •

فى التوراة قادت ابن آدم الى المعرفة وفى الانجيل حملت له صوت السماء وفى القرآن كانت مثلا للانسان فى الخلق واعادته •• مع دورها فى حياته وحظه وتفاؤله وليس تشاؤمه •

وعندما صنفت الفنون فى العالم الحديث الى سبعة أفرع وجدنا للطيور لغة خاصـــة فى كل منها •• فهى فى الفنون التشكيلية رفيقة أمانيه المجنحة وفى الشعر مثله الذى يحتذى للوصـــول الى الكمال وفى المسرح معادله الموضوعى الذى يتم التعبير من خلاله عما يحس انسان العصر الحديث • وفى الموسيقى واحته التى عندها يفىء وفى الرقص قدوته التى أن يحلق ليلحق بها •

واذا كانت الروايـــة قد أسمعتنا أمانى الانســـان على لسانهـــا ــ الطيور ــ فانهـــا فى السينما تكلمت عن السياســـة معبرة عن كل اتجاهاتها فى الشرق والغرب •

وقد تبلورت فيها من قبل حكمة الشعوب كما تظهر من خـــلال الأمثال الشعبية وكذلك فى أحلام الانســـان التى تعبر عن رغبـــاته اللاشعورية تعبيرا رمزيا •

ان محاولة كهذه ربما تكون ذات فائدة فى جذب الانسان الى رحاب الطبيعة بعد طول غياب ــ وقد تكون طريقا للخلاص من شعوره بالضياع والغربة والتيه الروحى وغيرها من أمراض العصر •

ان دراسة عن الطائر من وجهة النظر هذه ، تختلف ولاشـــك عن دراسات أخرى فى عالم الطير والحيوان فى حدود ضيقة تناولت

هذه الكائنات من زوايا متفرقة وجزئية أو على نحو عابر يفتقر الى المغزى والدلالة .. كدراسة غرائب مملكة الحيوان ـ أو أنواعها وطباعها . أو فوائدها للبشر .

ان فيلسوف الجمال « بوفون* » عندما تحدث مثلا عن الجواد قائلا : ان الجواد أبدع اكتشافات الانسان « فانما قصد بذلك الى أن الجواد كان طعام الانسان ووسيلته لكسب الرزق والمطية التى تشاطره متاعب الحياة ومباهجها وحروبه وأمجاده وتعينه فى كره وفره وطراده كما قال « بلوتارك** » قبله بقرون .. بينما نجد أن الطيور كموضوع لكتاب تمثل عالما أشمل وأرحب مما ذكر بوفون .

لقد انحدرت الطيور منذ مائتى مليون عام عن الزواحف ويقدر العلماء أن هناك ما يقرب من ٨٦٠٠ نوع منها سادت العالم بقوة الجناح ، ولم يخل منها مكان ماء كان أو يابسة .

وكان الطائر منذ بداية الوجود رفيق الانسان الأول ، كان طعامه ودليله الى الماء والنار وكان حارسه الذى ينذره كلما غضبت

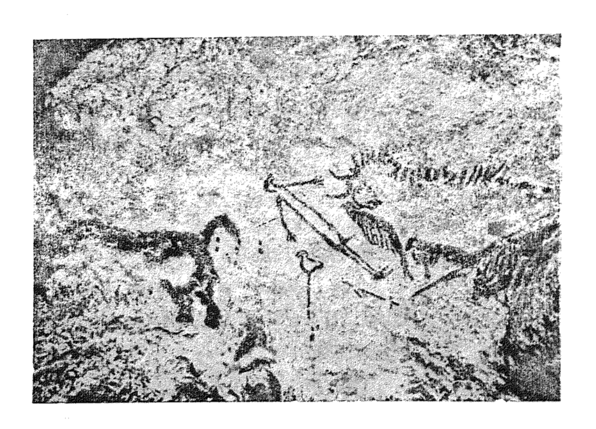
(*) بوفون ، جورج لوى لكلرك . الكونت دى : (١٧٠٧ ـ ١٧٨٨) عالم طبيعى ومؤلف فرنسى . كان أمينا لحديقة الملك وحديقة النباتات الآن بباريس ، من ١٧٣٩ الى آخر أيامه . كرس حياته لكتابة موسوعته الفخمة (التاريخ الطبيعى) ٤٣ جزءا كتبها فى الفترة ما بين : (١٧٤٩ : ١٧٠٤) وهى كتاب ممتاز الأسلوب ، يحوى معلومات جامعة عن التاريخ الطبيعى تتخلله تأملات بوفون ونظرياته الشخصية ، يشير بعضها الى الدرونية قبل وجودها ومنه جزءان عن « نظرية الأرض » ١٧٤٩ ، و « حقب الطبيعة » ١٧٧٩ جديران بالذكر بنوع خاص .

(**) بلوتارك : (٤٦ : ١٢٠) مؤرخ وناقد يونانى . زار مصر وايطاليا واثينا . وحاضر فيها ثم عاد الى وطنه بيوتيا . أصبح كاهنا فى معبد ولفى . وكتب مؤلفا عنوانه (حيوانات متوازية) فكان يتعرض فى كل فصل للكلام عن شخصيتين ، احداهما يونانية والثانية رومانية . ويعقد بينهما موازنة مفصلة . ومع انه كان يعتز بيونانيته ويفخر بثقافته . الا أنه كان نزيها . وتكلم بأمانة عن الشخصيات الرومانية ونجح فى تحليل شخصياته وكتابه ترجم لحياتهم . حتى اعتبر أعظم كاتب للسير وكتب ايضا طائفة من المحاورات والمقالات عن الاسلاف .

(جيانفرانكوا بولونيا) دنيا الطيور .. (رابطة نادى الكتاب ، لندن ١٩٧٨) .

الطبيعة وهددت بكارثة • وظلت الطيور أمام البشر شاهدا على الرحمة والمودة والمحبة • وهى أيضا الشاهد والمثال على الصراع من أجل البقاء • بل ان متابعة الطيور ودراستها عن قرب أتاحت للانسان معرفة نفسه وفتحت له أبواب الحكمة •

والطائر هو المخلوق الوحيد الذى انتصر على الجاذبية الأرضية، وصار فارسها الشجاع فحبته الطبيعة ـ وهو يشق أجواء فضائها ـ مفاتيح كنوزها • وكشفت له عن أسرارها • وهل اتفق لكائن غيره أن يرتفع الى السماء متى شاء ثم يعود الى الأرض مختارا دون قيد أو دون أن يمسه ضر ؟



اللوحة ٢٥ كهف لاسكو

الثور الجريح فى ناحية والطائر فى الناحية الاخرى . ووسطهما الرجل الميت براس طائر .. ثم ينفذا بنفس الاسلوب .

لقد امتلكت الطيور الفضاء بأجنحتها .. فهى تذهب بها أين شاءت متى شاءت ، وتملك كل أجواء الفضاء الرحبة ولا تهتم بملكية كنز على الأرض .

انها تتخذ العالم كله وطنا لها دون قيد أو حاجز .. وهذا ما جعلها أسطورة الحياة المتجددة ، تلتقى عندها وتتشابك أشواق الانسان الى الحرية والانطلاق والتفرد وامتلاك السعادة على الأرض .

ومنذ أن سكن الانسان الكهف وهو يحمل شوقا يتجدد الى الحرية ، ينتفض ويهتز فؤاده ويضرب بقدميه فى الأرض عله يغوص فيها ، ويلوح بذراعيه الى السماء عله يصعد اليها ، لكنه محاصر دائما بالميلاد والموت كطرفى أسر لا فكاك له منه .

وهكذا .. على مر حقب التاريخ ، كان تراث البشرية حافلا دوما بالنضال الفكرى السلمى أو الدموى فى شتى الصور . سعيا الى الحرية والخلاص . وكان المثل المتكرر فى أحلام الانسان دوما وأشواقه وأدبه وأساطيره وأمثاله يتجسد فى جناحين تنبتان له . يطير بهما الى الأفق الأعلى . سابحا فى أجوائه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

تصف عالمة الآثار « آنيت لامنج » [1] اللوحة (٣٥) فى كهف « لاسكو » بأسبانيا وهو أقدم كهف فى التاريخ عثر عليه حتى الآن فتقول : « عمود الصورة لرجل ميت له رأس طائر حددت خطوط جسده باللون الأسود . وقد حفر هذا الهيكل فى خطوط مستقيمة اذا ما قورنت بشكل الحيوان القائم الى جواره والذى رسم بخطوط انسيابية . فجسد الانسان ليس سوى مستطيل فى حدود سوداء

---

(١) « كهف لاسكو » تأليف عالمة الآثار « آنيت لمنج »

Lercoux Cave
Annette leming

عميقة وكل طرف من أطرافه يمثلها خط واحد ينتهى بأربعة خطوط لا تماثل خطوط رسم الحيوان .

ومن المقارنة بين طريقتى رسم الانسان برأس طائر ورسم الحيوان بشكل انسيابى نخرج بملاحظات ثلاث : أولها أن الانسان البدائى كان قادرا على نقل الواقع فى رسمه للحيوان بخطوط انسيابية محاكيا الواقع بذلك . وثانيها : أنه قبل أن يشرع فى رسم كائن مركب من جسد انسان ورأس طائر اقتحم فى نفس اللحظة منطقة جديدة من العقل وهى « الخيال » فاستطاع بذلك أن يجرد جسد الانسان ولا يحاكيه فرسمه فى خطوط تجريدية مستقيمة . أما الملاحظة الثالثة فهى : ان الانسان البدائى حينما جعل من جسده جزءا من كائن مركب اختار رأس الطائر (٢) كجزء متمم له .

ولاشك أن هذا الاختيار لم يأت صدفة ولكنه وليد احساس بعلاقة ما مركبة بين الانسان والطائر ، تدرك من خلالها أن الانسان يرى فى الطائر كائنا أقدر منه خاصة عندما يحتدم شعوره بقيوده النظرية المصنوعة .

واذا كان الفن . وهو أسمى مجالات الانسان تعبيرا عن وجوده . قد هيأ لنا هنا الوقوف على المسار النفسى الذى يربط بين الطائر وطفولة الأمم .

واذا كان عالم الأنثروبولوجى (٢) « روبرت هارى » فى كتابه

---

(٢) وربما أثبتت الدراسة بعد ذلك أن تحول الروح الى طائر « البا » فى الأساطير المصرية ، و (الهامه) عند عرب الجاهلية ، والطيور المختلفة وفقا لنفسية صاحبها وعمله عند فلاسفة اليونان ما هى الا امتدادا لما تخيله هنا انسان الكهف من تحول رأس الميت الى رأس طائر .

(١) كولى روبرت هارى ، « أنثروبولوجى أمريكى . ولد بفينا ، وكان حجة فى دراسة هنود أمريكا الشمالية . أضاف الكثير الى النظرية الأنثروبولوجية ، واسهم فى تحرير مجلة (الانثروبولوجى الأمريكى) ، ثم تولى رياسة تحريرها . أهم كتبه « المجتمع البدائى ، ١٩٢٠ » ، وتاريخ النظرية الاثنواجيه ١٩٣٧ .

عن « الفن البدائى » يقول : ان التحليل السليم لأى رسم من حفريات الكهوف البدائية لا يمكن أن يتحقق الا من خـلال دراسة الخرافة أو الاسطورة التى تسيطر على عقول سكان منطقة قبيلة هـذا الكهف من وجهة النظر الميثولوجيـة . أى علم الأساطير والمعتقدات الغيبية القديمة فيما قبل الحضـارات وخلال الحضارات الأولى للانسان .. حيث (٢) تحمل فى طياتها تعبير الانسان فى علاقته بالحيـاة وتفسيره للوجود وتمثله للعلاقات بينه وبين الكون ومكوناته . كنتاج للفكر الانسانى وطفولته الحضارية . التى لابد أن نعرفها قبل البدء فى كتابة التاريخ الطبيعى لأى كائن لأنهـا تشبه فى صـدقها صـدق ذكرى حـوادث الطفولة ومن غير الانصـاف التقليل من قيمـة ذكريات الطفولة ـ أو الأسطورية ـ ودلالاتها عند الانسان والأمم .. فان من الأوفق أن نرى دور الطيور فى ذكريات طفل معـاصر . فلعل ذكريات الطفولة البشرية المعيشـة تكون معينا لنا فى طريق العودة الى فجـر الضمير . أو طفولة الأمم .

***

وكثيرا ما كنت أتأمل تلك العلاقة فى حياتى الخاصة . وربما كان لنشأتى دخل أكيد فى الاهتمام بتلك العلاقة . وأكاد أقول انه ما من

---

(٢) هذا الكلام لفرويد .. ومجمع عليه أغلب فلاسفة الشرق والغرب . حيث يرون الأسطورة مقصـوصة رمزية عن المستقبل الذى نبدعه . وانهـا لغة التسامى بشكل متواضـع . فقد كان التكتيك الاول طقسا وكان العلم اسطورة وعند التحـاور الأول بدأت مغـامرة التجديد . والاسـطورة بالنسـبة للمسيحى تشـير الى كائـن مكتمل ، بينما يراها ماركس اشارة الى نقص يجب سده بأساطير الاغريق من انتجونا الى بيجماليون يرفضـون الامر الموجه .. ويشتهون الى تغيير العالم . وبينما يعتبرها هيجل مهمة يجب انجازها يراها ريكورفيرى نداء من الطائر .. ويراها نجارودى نداء الى العمل .. ويرى لوكاش ان مغزى الاسـطورة يجعلنـا نتخطى مرحـلة التمنى .. أمل سـارتر فعندما سئل عن مسرح بريخت الذى يجعل المتفرج يشارك فى احـدث كشاهد عيان وليس متفرجا على اسـطورة .. قا ل: لا ينبغى ان نبالغ فى أمر هـذا التباعد المشهود .. ثم انى ارى ان الاسطورة يجب ان تكون أكثر اثارة على نحو يجعلنا لا ندرك حتى انها فلسفية .

موقف أو حادث مر بى فى حياتى الا ويثير فى نفسى ذكرى مشابهة كانت لى مع الطير بل ويكاد عالم الطير يصبح فى مخيلتى ومشاعرى مقابلا لعالم البشر بكل ما يموج به من أحداث ومواقف وعلاقات .

ذلك أن أسرتى كبيرة العدد كانت شأن كل الأسر المصرية ابان خصوبة الأيام وعطائها ، تهتم بتربية الطيور والحيوانات المنزلية ، وتخصص لها أماكن متعددة فى جنبات الدار . فالكتاكيت بعد أن تصبح دجاجا على الأسطح العالية والبط والأوز والرومى على الأسطح المنخفضة والحمام فى المناور .

بيت يموج بالحركة فى حى شعبى لايزال يمارس حياة متداخلة . ولما كنت صغيرة بحاجة الى من يرعانى ويبقينى الى جواره كى أنجو مما يمكن أن يتعرض له طفل غض . فقد عهدوا بى الى عجوز . كانت ترعانى طوال النهار وترعى كتاكيت الأسرة معى .

ومن هنا نما وعيى من خلال الطيور . فقد بدأ احساسى بالحياة وادراكى للأشياء من حولى — على ما تسعفنى به أقدم الذكريات — بتتبع حفنة الكتاكيت الشهباء اذا ما سطعت عليها أشعة الشمس ، ناعمة الملمس : اذا ما حاولت أن أقبض عليها بكفى الصغيرة وبادرت الى الهرب من قبضتى ، وديعة الحركة اذا قبعت أراقبها فى شغف وانبهار . تغمرنى حيرة كبيرة ازاء محاولاتها ممارسة الحياة بلا أب أو أم أو مرشد تتخاطف غذاءها وشرابها بلا عنف . وشجارها من أجل ذلك طريف لا ينتهى .. أتعجب من حركاتها .. تطرف بعيونها ، تصفق بأجنحتها وتتثاءب كما لو كانت دواجن مكتملة النمو . وكم مرة حاولت تقليدها حين تجفل .. ويومها فزعت العجوز فقد ظنت أن عينى أصابها مكروه . وأتذكر الآن أننى كنت أتابع هذه المخلوقات بدهشة ربما تفوق كل ما يمكن أن يدهش انسانا فى حياته .

كانت الطيور هى الاطار الساحر لأيام طفولتى اليومية منذ شروق

الشمس حتى غروبها •• فقبل بزوغ الشمس كان آذان الديكة متداخلا مع أذان الفجر يشيع جوا روحانيا مبهما أثيرا الى نفسى حتى يومى هـذا ••

وبينما يهب أفراد الأسرة كل الى صلاته أو عمله يستغرقنى التأمل فى أحوال ذلك الديك الذى نربيه وكنت أخاله مؤمنا ولكن ما يبديه من شراسة أثناء النهار يخالف ذلك سواء مع الدجاجات أو مع الديك الذى طار يوما من المنزل المجاور وحط على سطح منزلنا ، فيومها رفع ديكنا عرفه الشامخ وأخذ ينقر غريمه حتى أسال دمه •• وساءلت نفسى العفوية •• أيكون لشروق الشمس كل هذا التأثير على الطيور وطبائع البشر •

عندما ترتفع الشمس كانوا يعهدون الى بمراقبة الحمـام البلدى كى تلهينى مراقبته عن مشاركتهم ما هم مشغولون به من أعمـال • وعند العصر كنت أفيق على شقشقة العصافير العائدة الى أوكارها •• فى الأشجار الباسقة وأعلم أننى فى بيت جدتى لأمى •

وعندما تمكنت من الصعود الى السطح العالى بمنزلنا عن طريق سلم خشبى رأيت لأول مرة على قمة نخلة مجاورة طـائر الحدأة • لا تبرح عشها وكنت أرثى لوحدتها •• وأتساءل أليس لها أقـارب تزورهم ويزورونها ؟ الى أن جاء يوم ولم أرها • وقالت ابنة عمى الكبرى انها طارت لتقتات فى المذبح حيث هنـاك بعض أقرانها من الحدأة والصقور • ولكن شعورى نحو هـذه الحدأة تغير فجـأة من الرثاء الى الكراهيـة •• حين رأيتهـا يوما تنقض على الأفراخ الصغيرة فوق أسطح الجيران • وزادت كراهيتى لها حين انقضت على دجاجتى الأثيرة • واختطفتها الى عشها وأنشبت أظافرها فى ريشـها أمام عينى وأنا أصرخ • وكم دعوت آنذاك أن يخلصنا الله منها ••

وكأنما استجاب الله لدعـائى فقد تمـكن أحد صبية الحى من

اصطيادها ، وأمسك بها صبيان ، كل بجناح وأخذا يجوبان الحى وهما يهللان ومعهما الصبية « من ده بكره بقرشين عند المعلم بقرشين » •

لقد شاهدت فى موت هذه الحدأة وفى عنقها المائل على صدرها كيف تنتهى الشراسة الى انكسار مهين •• وتبدل شعورى أيضا بالنسبة للصبيين ، فلم يعودا فى نظرى طفلين مشاكسين ، ولكن بطلين من أبطال التاريخ الذين كنت أسمع عنهم فى الحكايات • أو أشاهدهم فى السينما •

وقد عاد الى هذا المشهد وأنا أقرأ أسطورة أوديب وكيف سرت الطمأنينة فى نفوس أهل طيبه عندما خلصهم أوديب من الوحش الذى كان يتهددهم •

وكان شعورى بالطيور النهارية موزعا بين الحب والشفقة والحذر والكره ، أما طيور الليل فلا أنسى يوم توجهت مع أهلى الى بيت جدى لأبى •• وهو بيت مهجور لا يفتح الا فى مواسم تقطير الزهور •• كان الليل قد هجم وأنا مستغرقة فى تتبع قطرات الزهر المتساقط من صنبور جهاز التقطير الى قاع الزجاجة حيث تستقر بعد هدوء الفوران الذى يحدثه السقوط •

وبينما أنا غارقة فى تأمل ما أمامى اذ دخل خفاش فى فضاء الغرفة طائرا فى جنباتها فى قوة واقتحام •• وارتعبت •• وصرخت بلا ارادة ، وسمعتهم يطلبون من العجوز أن تعيدنى الى البيت لأنام فى أمان بحجة أن هذا الطائر الشرير • اذا التصق بوجهى فلن يتركه الا بالطبل البلدى (١) • ورضخت لأمرهم خائفة من العودة الى البيت

---

(١) فكرة شائعة عند العامة فى مصر ويبدو أن أصوات الطبل البلدى المرتفعة فى ذبذباتها تمثل منبها قويا يصل الى سمع الخفاش الذى يستجيب للأصوات المرتفعة فيترك ضحيته ويهرب •

وترك السهرة العائلية الموسمية حول جهاز التقطير وان كنت قد لمت مربيتى كيف حببت لى يوما أن أتناول حبة من ثمار الجوافة كان الخفاش قد أكل منها بحجة أنها لابد وأن تكون حسنة المذاق لأن الخفاش لا يأكل الا أفضل الثمار .

نعم لازمتنى الطيور فى كل لحظات حياتى .. وان كان موقفى منها قد تأرجح بين الثبات والتغير . لذلك تعجبت عندما القت الصدفة بين يدى بمقال لكاتب عربى يعترض فيه على استخدام الطائر والحيوان رمزا مباشرا للانسان والقيم فى تعليم الأطفال . بحجة أن المذهب الرمزى لم يتبلور الا مرورا عبر الطبيعية والتعبيرية والواقعية وغيرها من مذاهب الفن .

كيف يطلق الكاتب مثل هذا الحكم .. ؟ ان الطيور من واقع تجربتى وربما تجارب أغلب الناس هى أقرب مخلوقات الأرض الى الطفل ..

لقد استوعب ادراكى الصغير فى طفولتى كثير من العلاقات والأفكار وكانت هى دنيلى الى العالم .

فعندما أعود الى مراقبتى للكتاكيت .. أتذكر أننى بمرور الأيام وبعد أن زاد قاموسى اللغوى بدأت أخلع على هذه الكتاكيت أسماء من عندى بعضها يتفق وألوان ريشها التى غالبا ما كنت أخطئها فعلمتها لى العجوز من خلال الكتاكيت .. أو نسبتها لأحد أشقائى وأبناء عمومتى أو بعض الأسماء الأخرى المستوحاة .. فهذا كتكوت سودانى لأنه أسود الزغب وهذا شركسى لأن عنقه خال من الزغب .

ثم تطور وعيى فى مراقبة الطيور فأصبحت أسماء الطيور تستمد من الصفات .. ذلك انى فى هذا الطور كنت أخلع من عندى على كل طائر ما شئت من أوصاف . فأتخيلها تارة أشخاصا أعرفهم ، وتارة أخرى تجسيدا لمجردات لا أرى لها ترجمة الا فى هذه الكائنات.

كنت أتمثل فيهــا أولئك الذين أود لو أعرفهم •• كان الكتــكوت الشركسى مثــلا • يجعلنى أتمثل انسانا أجرد الشــعر عصبى المزاج استلهاما من تشبيه عائلتى للشخص العصبى بالشركسى ، كما كان ذكر الحمام البلدى باعتداده بنفسه يشبه أبى ، ربما لأن ألوانه اللطيفــة المهتزة المتماوجة تشبه جبة أبى فوق « كاكولته » فى تداخل خطوطها اللامعة المشعة ثم ان فيه من الاستعلاء والزهو ما يذكرنى به خاصــة حين يقف شامخا وسط الحمائم الممتثلة بأمره وهو يردد كما قيل لى : « وحدوا ربكم وحدوا ربكم » • كنت أتخيله أبى عالم الدين المعمم وهو يعتلى المنبر فى جلال وتؤدة ، بينما المصــلون خشع وكأن على رؤوسهم الطير ، أو عندما يأتمون به طائعين ممتثلين لكل ما يؤدى أو يقول صمتا وخشوعا •

والعجيب أننى صرت أجمع شتات فكرى ازاء الطيور • وكيف كنت أتسمع لها فى السماء أصوات طيور الكروان العذبة وهى تتصادح متواترة عند لحظات دخول الرجــال الى المسجد لأداء صــلاة المغرب مرددة آية الخلود •• « الملك لك لك يا صاحب الملك لك لك » ••

انعكست نظرتى فى تجسيد أشكال الطيور وطبائعها على الناس حتى شملت بعض أفراد أسرتى فكان البط السمين الذى يفح بصوت مرهق يذكرنى بعمتى البدينة التى كانت تلهث عندما تصــل الى الطابق الثالث لتطعم الطيور • تستريح حينــا لتناول البــط والرومى بعض الطعام ، ثم تواصــل صعودها الى أعلى السطح لمنزلنا عن طريق سلم خشبى رأسى لتطعم كتاكيتى التى صارت دجاجات •

كلما حاولت أن أضع حدودا لارتباط طفولتى بالطيور أجدنى ملتصقة التصاقا نفسيا لا ينفصم فما أن تحــل بى الآن مشــكلات الحياة وتخنقنى كأخطبوط مخيف • حتى يطفو على سطح مخيلتى ذلك الكتكوت الذى رأيته وأنا صغيرة وهو يعانى ويكاد يلفظ أنفاسه

بينما بقية الكتاكيت تدهسه على الرغم منها •• وتقلب عليه انـاء المـاء • عندئذ أدركته وانتشلته ووضعته فى الشمس ليجف زغبه لكنه لم يقو على الوقوف •• وفحصته فاذا بشعرة سـوداء طويلة تكبل أصابعه الدقيقة وتمسك بها وبعد جهد جهيد تمكنت من تخليصه من هذه الشعرة اللعينة •• فعاد سريعا لمرحه وهو ينضم من جديد الى زملائه •• شعرت معه بالبهجة والراحـة يوم ذاك •• لكم أتمنى الآن أن أتخلص من هذه الشعرة التى تغلنى كثيرا لكى آنعم بالناس وانغمر فيهم وأنسى التفكير فى مشـكلات الحياة التى لا أستطيع حلها منفردة •

كنت قد أصبت فى طفولتى المبكرة ــ كمـا قيل لى ــ بمرض اشتد على حتى أشرفت منه على الموت • ولكنهم لاحظوا حركة نابضة فى جسدى ، وألحوا على فى تناول آلوان من الطعام ذات فائدة به قالوا اننى سوف أعود بعدها صحيحة معافة البدن ولكن نفسى عافت الطعام بكل ألوانه •• وقالوا لى أننى أمام الحاح الأهل • وافقت أخيرا على تناول الطعام اذا جلبوا لى بعض الكتاكيت ــ صغار الدجاج ــ أضعها بجانبى أتلهى بها وأرعاها • وكأن الحيـاة بالنسبة لى آن آعيش من جديد أولى تجاربى مع الطيور •

وقد جعلتنى الطيور أمر بمشاعر لم آكن آحس بها لولا ارتباطى بتتبعها وساعدتنى على اجتيـاز سـنوات كثيرة قفزا الى تجـارب لم يتهيأ لهاسنى (فرغم عدم مغادرتى لحينا طوال حياتى • كنت أشعر بما يشعر به المهاجرون من حيرة وضياع فى لحظتين •• لحظـة سماعى صفير القطار البعيد الذاهب الى الصعيد ولحظـة ذهابى بناء على طلب والدتى الى الشغالة التى كانت تسكن « حوش العبيد » الذى يبعد عن منزلنا •• لأن هـذا الحوش رغم أنه يغص بالسكان ، الا أن صوت الغربان التى تسكن شجرة مرتفعـة جدا وخالية من الخضرة تتوسط ذلك الحوش يتردد فيشيع فيه الغربة ويشعرنى بالضياع •

معنى آخر وجدت الطيور تقفز به الى هو أننى عندما سمعت أغنيات عن الطيور . وعن ذلك البلبل الحزين الذى تركته وليفتـه وهجرته .. شعرت أنا فى هذا السن بحزن البلبل ولوعته مع أن هذه خبرة تفوق سنى الفتى فى ذلك الوقت . ورغم أن الطيور لفتت نظرى الى كثير من موضـوعات الحياة .. الا أننى حسدتها مرات كثيرة .. فعندما كان يتحتم على أن أقبع سجينة حجرة المكتب استعدادا للامتحان ويضيق صـدرى ، أطل من نافذتى فلا يلفت نظرى الا هذه الطيور المحلقة غير الآبهة بأى قيد .. أو عندما أسرع الخطو للحاق بموعد هام وأجد طائرا مر بى خطفا وتخطـانى بأميال .. أركب مواصلة مزدحمة فأجد طائرا يطوف خلاء السماء ولا من مضايق .. وتشتد غبطتى أحيانا فتنقلب الى التمنى بأن أكون مثل هذا الساحر المتأبى .

ربما كنت وأنا طفلة لا أدرك الأغراض البعيدة من الكلام عن الطيور ولكنه الايحاء المستمر يواتينى من كل جانب من أسرتى ، ومجتمعى .. ويلقى بالشرارة فى نفسى فلا تزال تتوهج كلمـا مر الزمن .. وازددت دخولا الى العالم الرحب .. فقد غمرنى الفرح عندما سمعت فى المدرسة سورا من القرآن تذكر آياتها الطير ، وقـد شغفت فيما بعد بمعرفة أسباب نزول هـذه الآيات والوقوف على حيـاة الطير واستمراره . ولازمنى هـذا الشعور طوال مراحـل دراستى الجامعية .. وربما تأصل هذا الاهتمام مع ممارستى لحياتى العملية حيث راودتنى فكرة وضع هـذا الكتاب .

ولكن ظل الأمر على أى حال مجرد فكرة .. الحت على واشتد الالحاح بعد أن طالعت صحف يوم ٢٠ سبتمبر عام ١٩٧٣ عندما نشرت الصحف المصرية « أن أسراب الطيور المهاجرة من صقيع أوربا لم تصل كعادتها فى كل مواسم الشتاء السابقة » .

ومرت أيام واذا بالصحف المصرية تعاود نشر أخبار تلك الظاهرة،

وكيف أنها وجدت صدى واسعا من اهتمام العلماء ومراكز دراسات طبائع الطيور فى العالم • وكيف آن العلماء المتخصصين فى (أمريكا) الولايات المتحدة الأمريكية كان اهتمامهم بالظاهرة مكثفا • حيث أبرقوا عدة مرات فى الحاح الى مدير مركز أبحاث هجرة الطيور فى القاهرة يستفسرون حول ما لديه من معلومات عن هذه الظاهرة •• وكيف ان ذلك المدير استجاب فى النهاية لهذا الالحاح ورد ببرقيه يقول فيها : « وهل تنتظرون منى السفر الى آوربا لأهش الطيور ؟ » •

ها هو مدير مركز الأبحاث يسخر من قلق العلماء ولهفتهم لمعرفة أبعاد الظاهرة ولو أنه عاد الى تراثنا القديم لقدر هلع هؤلاء العلماء ، ولحزن مثلما حزنوا لاختفاء الطيور وتأخر هجرتها الى مصر ذلك العـام •

لقد وجد على أحد الآثار المصرية ما يفيد أن « الكراكى » وصلت الى أرض مصر فى موعدها المحدد هـذا العام ••• وهو ما يوضح ويؤكد كيف كان اهتمام أهل مصر واحتفاؤهم بقدوم الطيور المهاجرة اليها كل عام • وكيف كان انزعاجهم شديدا اذا حل موسم الهجرة ولم تظهر فى الأفق اذ كانت لهذه الظاهرة دلالاتها التى تتصـل بالحياة الاقتصادية والفلكية والصحية فى مصر القديمة •

كانت لهذه الظاهرة دلالاتها التى تتصل بالحياة الاقتصـادية والفلكية والصحية فى مصر القديمة •

ولو تنبه مدير مركز أبحاث هجرة الطيور لأهمية هـذه الحقائق لمـا سخر ولتساءل مثلى : ما الذى حدث فى ذلك العام ؟ ولحاول ، وتلك مهمة المؤسسة التى يتولى مسئوليتها الاجابة عن هذا السؤال •

على أى حال •• فقد وقعت أحداث حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فى أعقاب تلك الظـاهرة •• وكان الفاصـل الزمنى بينهمـا لا يتعدى أسبوعين •

هل كانت الظاهرة ذات علاقة وثيقة بمقدمات حرب أكتوبر ..
هل استشفت الطيور بحواسـها « الرادارية » نذر الحرب الوشيكة الاندلاع ربما ... ربما ...

ومن هنا كانت الدوافع والأسباب ... وبدأت فى وضـع هذا الكتـاب ..

غير أنى تكشفت بعد أن بسطتـه على الورق أنـه جـاء وكأنه ترجمه لقصتى مع الطيور ، حيث وجدته تطبيقا لمـا انطبع فى ذهنى عنهـا .. أى أننى التزمت كمـا يقولون جانب التذوق دون النقد ، والتعريف دون التقييم ، الا فيما ندر ذلك أنى لا أملك من أدوات العلم ما يؤهلنى لأن أقدم كتابا ذا طابع علمى وقد أحببت أن يستبين القارىء ذلك من خلال المقدمة الذاتية .

وحين أخذت فى تصنيف الكتـاب الى أبواب ــ أى بشـكل موضوعى ــ وجدت الحاجه ماسه لاجمال هنا واطناب هناك ، أو ادماج بين هذا وذاك ، وقد استبنت خلال هـذه المحاولة أيضا أننى فقدت القدرة على ارجاع بعض المعلومات الى أصحابها مما قد يوحى بأننى سطوت على أفكار غيرى . فكان على أن أشير صراحة الى أن هـذا الكتاب نتاج غيرى ممن شدهم الطير قبلى .

شىء آخر جعلنى أعيد النظر فيما كتبت هو أننى وجدتنى وكأننى امتطيت أجنحة الطير أقفز خاطفة بين مجالات الفكر من أدب وسياسة الى تصوف ونقد دون رابط واضح .. ربما لأوحى للقارىء أن هذا التنوع لاراحته واشعاره أنه فقط فى نزهة خلال المجالات التى ارتادها وحلق فيها الطير . ولعلى أطلت فى التمهيد عند الكلام عن الأحـلام والأساطير الى حد كاد يخرج بى عن الموضوع . على عكس ما أوجزت

فى الحـديث حين دلفت الىدوح الشـعر المتشابك الغصـون ..
كما ولعلى تعجلت وأنا وسط عالم المسرح والرواية والسينما والباليه
بما أخشى معه أن أتهم بتحيز هنا أو تعنت هناك .

بل وأعلم أننى لم احط بالموضـوع من كل أطرافـه ذلك أن
الموضوع أكبر من أن يتسع له كتاب واحد .

وهأنذا أضع بين يدى القارىء ثمار رحلتى مع الطير الذى شغفت
به وتتبعته فى كل ما قرأت وما سمعت وشاهدت ، وارجو أن يكون فى
هذا الجهد على قلتة وتوزعه ما يمثل انصافا للطير صـديق الانسان
وانصافا لهذه الكوكبة من العلماء والأدباء والفنانين الذين شغفوا بالطير
ورصـدوا حركاته ، وقدموا للبشر معارف ثمينة عن هـذا الكائن
الرقيق الذى قد يستهين به الكثيرون مع أنه عاش ملهما للانسانية على
مدى العصور .

عايدة الشريف

الفصل الأول

من الكهف الى ما قبل الرسالة

الالـه .. وصـورته

« وكان مسـاء وكان صـباح يومـا رابعا . وقال الله لتغض المياه زحافات ذات أنفس حية ، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء ، فخلق الله التنانين العظـام وكـل ذوات الأنفس الحيـة الدبابة » ..

العهد القديم ــ سفر التكوين

ما بعد الكهف

خلق الله الطير والانسان معا ، وربما كانت الطيور أسبق فى الوجود من البشر ، فقد تعلم قابيل ، ابن آدم عليه السلام ، كيف يوارى سوءة أخيه من الغراب ، ويقرر علماء الحياة أن الطيور هى الحلقة الوسطى بين « الثدييات والفقريات » التى ينتمى اليها نوع الانسان .

ومنذ النشأة الأولى جمعت بين الانسان والطائر علاقة نفسية تختلف فى مكوناتها وفى أشكال التعبير عنها عن تلك التى نشأت بينه وبين صور الوجود المتعددة من حوله . عبد الانسان الطائر وطارده ورأى فيه مثلا أعلى وهو يبدأ محاولته الأولى للسيطرة على قوى الطبيعة . وعندما أراد الانسان الأول أن يصور نفسه ـ أول مرة ـ على جدران الكهف رسم جسده كما يراه ، أما الرأس فقد جعله رأس الطائر (١) .

كانت هذه هى البداية فى رحلة التعبير عن تلك العلاقة الخاصة بين الانسان والطائر ، والتى امتدت من الأسطورة حتى غزو الفضاء ، ولم يخل الدين والفن والحضارات الانسانية من آثارها الواضحة .

ولسنا هنا بصدد البحث فى المفهوم الطوطمى ، وهو أول أشكال الدين ، أو فى الحكاية الخرافية والأسطورة الرمزية ، وما اذا كانت تفسر جانبا فى العلاقة بين البشر والآلهة ، بقدر ما نسعى الى النظر

(١) كهف لاسكو بأسبانيا ، اقدم كهف اكتشفه الحفريون .

فى كل ذلك كبداية للتفكير الانسانى فى عهد ما قبل الديانات السماوية ونشأة التاريخ وعلاقة كل ذلك بموضوع هذا الكتاب .

ان الخيال الذى صور به الانسان لوحته الأولى يشمل ثلاثة عناصر أساسية ، ميزت وظيفة الخيال البدائى هى : تصور المستقبل ، والوصول الى المجهول من المعلوم ، ثم الخروج من نطاق الحقيقة المألوفة وابتداع ما هو أشبه بالحق وأقرب الى الباطل . وهذه العناصر الثلاثة هى التى كونت الأطوار الخمسة لفكرة الانسان عن الاله ، كما يقول علماء الميثولوجيا ، وهى أطوار : ما قبل الحيوى ، والحيوى والطوطمى ، وتعدد الالهة ثم وحدة الاله . ولنبدأ بأقرب الأطوار الخمسة صلة بموضوعنا ، وهو المذهب الطوطمى . كان الطوطم طائرا أو حيوانا ، هو معبود العشيرة ، وراعيها الذى يحميها من غضب الطبيعة وعدوان الانسان والحيوان . وكان نظام العشائر الطوطمية، يقوم على الاعتقاد بأن العشيرة وطوطمها من طبيعة واحدة ، أى أن أسلاف العشيرة تنحدر من فصيلة الطوطم الحيوانية ، ويكونون — أفراد العشيرة وأفراد الفصيلة معا — أسرة واحدة أو ما يشبه الأسرة الواحدة . فاذا اتخذت عشيرة الغراب طوطما لها ، فذلك لأن غرابا التقط قوقعة وأن القوقعة تحولت الى امرأة واقعها الغراب ، ومن هذا القران انحدرت العشيرة .

وكان كل فرد فى العشيرة يلقب بالاسم الذى يدل فى لغتها على طوطمها كما يحمل كل منا اسم أسرته . ولم يكن الاعتقاد بالانتساب الى الطوطم ، الطائر أو الحيوان ينفى الطبيعة الانسانية للفرد ، فكل من أفراد العشيرة غراب وانسان فى آن واحد . وقد كان حراما على أفراد العشيرة ايذاء طوطمها أو أكله الا عند الجوع الشديد . بل حراما عليهم أن يمسوه أو ينظروا اليه أو حتى ينطقوا باسمه ، واذا مات أو قتل احتفلت العشيرة بدفنه فى مراسم خاصة .

كان الطوطم يدافع عن العشـيرة أو القبيلة ضد كل الأعداء وينذرها بالخطر قبل وقوعه بعلامات يعرفونها فى حركته أو طيرانه ولذلك عبدت العشيرة طوطمها .

يورد « فريزر » (١) فى كتابه « الغصن الذهبى » أمثلة عديدة لذلك ، فيقول : « فى استراليا كانوا يعتبرون أن الخفاش والبومة يمثلان الجنسين ، الذكر والأنثى . وكان فى اعتقادهم أن كل رجـل ترتبط حياته وحياة أسرته وسلالته بحياة الخفاش ، ولهذا كانت المحافظة على الخفاش عندهم تعنى الحفاظ على حياة الرجل ، وعلى هذا النحو كان اعتقادهم أيضا فى البومة والمرأة » .

ويذكر « فريزر » أنهم فى الملايو كانوا يقتنصون الطائر اذا دخل منزلا ويدهنونه بالزيت ، ثم يطلقون سراحه ، فقد كانوا يعتقدون أنه بذلك قد أخذ معـه كل سوء الحظ المكتوب على سـكان البيت ، وكانت هذه هى أيضا عادة نساء الاغريق .

وتروى أسطورة هندية أن الساحر « فانكش » هدد المملكة بأن ألوانا من الجن سوف تحيط بالنخيل ، وتقتل كل من يقترب من مكان الببغاء الذى تتعلق حياة الساحر به . ولما عم الهرج بين الناس وتعذر على الملكة أن تسيطر على مملكتها ، جاء أبن الملكة الغيور على وطنه ، وقهر الحواجز المضروبة حول الببغاء ، حتى وصل الى مكانه ، وحمله وأخـذ يلاعبه ويلعب به الى أن سـقط الببغاء ميتا . فلما فتح الناس على الساحر باب منزله وجدوه ميتا .

ويروى أن « فالميكى » أشهر شعراء الهند القديمة ومؤلف

---

(١) فرنود ، سير جيمس جورج ١٨٥٤ – ١٩٤١ أنثروبولوجى اسكتلندى معروف بكتابه الهام (الغصن الذهبى) ١٢ مجلدا ، وهو دراسة فى السحر والدين تقوم على معرفة وثيقة والمـام واسع .. وفيه يرجع كثيرا من الأساطير والشعائر الى بدايـة ظهور الزراعة فى عصر ما قبل التاريخ .. ومن كتبه الأخرى (الطوطمية والزواج بغير ذو القربى) سـنة ١٩١٠ .

« الرامايانا » • كان فى شبابه يرأس جماعة من قطاع الطرق يعبدون « كالى » ربة الحرب المتعطشة دائما للدماء وذات يوم قبض اتباعه فى الغابة على فتاة شابة وأتوا بها ليقدموها قربانا للربة الدموية • ولكن شعورا بالرحمة يستولى على « فالميكى » فيخلى سبيل الفتاة ويخرج حزينا هائما على وجهه فى الغابة وقد اجتاحه قلق طاغ لا يدرك كنهه • ومر « فالميكى » باثنين من أتباعه قتلا عصفورا ، فاذا شعور الاشفاق والرحمة يعتريه مرة أخرى ، وفجأة انطلق لسانه ببيتين من الشعر ، ولم يكن قد قال شعرا من قبل • وبينما هو مستلق يردد مانطق به معجبا تجلت له ربة الشعر والمعرفة « سرسفاتى » وأبلغته أنهـا هى نفسها تلك الفتاة الشابة التى أخلى سبيلها ، وأنها هى التى أيقظت فيه الشعور بالاشفاق والرحمة ، ثم منحته أسفار المعروفة وباركت شـعره •

ويقول علماء « الانثروبولوجى » ان أطوار عهد ما قبل الأديان السماوية وما اشتملته من المعتقدات كانت سائدة فى المنطقة السامية منذ الفراعنة والبابليين بشكل من الأشكال • ويروى مؤرخ الحضارة الفرعونية الشهيرة « برستد » ان الطيور رافقت المصرى القـديم فى حياته وفى مماته وأنها ساعدته بعد الموت فى رحلته الى العـالم الآخر • يقول « برستد » : من الواضح أن ظاهرتين طبيعتين قد أثرتا أعظم تأثير فى حياة سكان الوادى هما الشمس والنيل • وقد كان للظاهرتين الهان كانت لهما السيطرة على التطور الدينى والعقلى فى مصر القديمة ، وهما « رع » اله الشمس ، و « أوزير » اله النيل ، وكلاهما يظهر فى الآثار بشكل طائر •

كان « رع » يعين بضوئه المصرى القديم على الصيد والقنص الذى تقوم عليه حياته • وقد تمثل هذا الاله فى آثار الوجه القبلى على هيئة « صقر » لأن تحليق هذا الطائر يدنيه من الشمس والاله ويجعله رفيقا لها ، ومن أجل هذا أصبح قرص الشمس ذو الجناحين المنشورين أعم رمز فى الديانة المصرية القديمة • وقد تأثر بهذه الفكرة الأدب العبرانى فى تشابيهه جنـاح الصباح ، وشمس العدالة التى تحمل فى جناحيها الشفاء • وكان اله الشمس بصفته صقرا ، يسمى « حور » و « حوريس » و « حورس » و « حواختى » أى حور الأفـق •

وعندما استنبت المصرى القديم القمح والشـعير وتحول الى الزراعة تحول أيضـا الى تقديس قوة استنبات الأرض ، وأصبحت

هذه القوة هى العنصر البارز فى تعبيره الدينى عما يخالجه بشأن التغير البين الذى حدث ، وتأمل دورة الحياة التى يراها فى الأرض المثمرة والتى تبدأ وتنتهى لتعود من جديد • وقد تمثل هذه الحياة فى شكل اله يموت ثم يحيا وهكذا أبدا ، هو الاله « أوزير » زوج « ايزيس » التى تمثل دائما على هيئة أنثى النسر •

وتروى عن أوزير وايزيس أسطورة معقدة بشأن ما يمثلانه ، اختلف فى تاريخها أكثر علماء ما قبل التاريخ والاركيولوجيون والانثروبولوجيون الذين اعتمد عليهم الاثريون والمؤرخون لهذه الحضارة من « رالف لنتون » الى « هواريللو » و « بلوتارك » ومن كل هؤلاء نعرف أن « أوزير » الذى يعد الها للخير والخصب ، فى عقيدة المصريين القدماء قد ورث ملك « رع » الصقر وأصبح اله كل شىء فىالعالم وأنه تزوجأخته « ايزيس » بينما تزوجت أختها «تفتيس» « ست » اله الشر الذى يمثل الأرض الجدباء • وقد كان « ست » يبغض أخاه أوزير لجمال وجهه ورجاحة عقله فحسده على ذلك وأراد أن يمكن به فدبر له مكيدة لاغتياله ، واتفق مع بعض الآلهة على أن يقيموا حفلا وأعد تابوتا جميلا كسوته من الذهب الخالص بحجم (أوزير) وحده وزعم ست أن هذا التابوت هدية منه لأى اله من الحاضرين يصلح أن يكون مرقدا له •

وهكذا استلقى كل اله فى التابوت ليجرب حظه دون جدوى الى أن جاء دور أوزير وما أن رقد فيه حتى أغلق عليه الغطاء ثم ألقى التابوت فى نهر النيل ، وطفا حتى بلغ البحر الأبيض المتوسط • وهناك حملته الأمواج الى الشاطىء الفينيقى (لبنان) عند مدينة بيلوس ، ونمت على الشاطىء شجرة ضخمة وارفة الظلال احتوت التابوت وحمته من عين الرقيب •

وكان فى بيلوس ملكة جميلة هى الآلهة « عشتروت » وكانت

قد خرجت الى الشاطىء تتريض فرأت الشجرة وأمرت بقطعها واقامة عمود ضخم من جذعها فى وسط قصرها • ولما علمت ايزيس بمصير زوجها وهى فى مصر ، أخذت تبحث عنه فى كل مكان واستبدت بها الأحزان فبكته بالدمع المدرار • وكلما هطلت الدموع من عينيها غزيرة تساقطت فى النيل وامتزجت بمائه وفاض (كان المصرى القديم يعتقد أن دموع ايزيس هى سبب فيضان النيل) واهتدت « ايزيس » الى مكان زوجها ومضت الى بيلوس وهناك دخلت القصر ، فلما رأت الملكة بهاءها جعلتها وصيفة لها • وكانت ايزيس تتخذ فى الليل صورة النسر — رمز الحياة — وتحوم حول العمود العظيم القائم وسط القصر وتطوف بجثة زوجها وتناجى روحه ، فتحولت الى روح ترى ولا يراها أحد ، ثم حدثت المعجزة • فقد حملت ايزيس بالروح دون أن يمسسها زوجها • حملت بالطفل الصقر « حوريس » وهربت به الى أحراش الدلتا حتى كبر وحارب الشر ممثلا فى « ست » وانتقم لابيه ، وخلص الانسانية من شرور عمه ، فسماه المصريون « الاله المخلص » •

يذكر برستد أيضا أن ايزيس ونفتيس كانت كل منهما ممثلة فى شكل طائر ولكنه لم يهتم بتحديد نوع هذا الطائر ، وهو كما ذكر غيره « أنثى النسر » •

ويصور المصريون فى معابدهم الالهة الأم « ايزيس » فى تمثال برأس نسر أو عدة رؤوس بينها رأس نسر •

***

أولت الديانة المصرية القديمة اهتماما خاصا لحقيقة الموت • وكان اللاهوت الشمسى قد امتزج باللاهوت الأوزيرى فى تصور المصرى القديم للحياة بعد الموت • كان المصرى القديم يتصور أن شخصية الانسان الحقيقية فى الحياة هى الجسم المادى الظاهر والنفس الباطنة التى تستقر — فى اعتقاده — بالقلب أو بالجوف • وتحتوى هذه

الشخصية أيضا على الجوهر الحيوى المحرك للجسم غير أن هـذا الجوهر الحيوى لم يكن مميزا بشكل ظاهر عن العقل • وكان الجسم والقلب يمثلان معا فى رمز واحد هو طائر له رأس انسان وذراعاه ، نراه على القبور وعلى توابيت الموتى يرفرف على المومياء ، ويمد لانفها يده فى صورة شراع منشور (رمز الهواء) ويحمل فى اليد الأخرى علامة هيروغليفية ترمز للحياة ، ويسمى « با » •

ومن أجل ألا يحرم من مات من الحيـاة الأبدية كان المصريون يرسمون « با » على قبره وعلى تابوته • كانوا يريدون للمتوفى أن يظل حيا مثل « با » وكانوا يلجأون فى ذلك الى أنواع خاصة من الطقوس الدينية • وكان على الفرعونى الراحل الذى صار « با » حتى ينتقل الى مملكة السماء ـ العالم الآخر ـ أن يعبر بحيرة فى الشرق توجد خلفها أرض العجائب حيث تسكن القوى الشريرة • وكان كل شىء فى هذه البحيرة حيا • المركب الذى ينزل فيه والمقعد الذى يجلس عليه الأبواب التى يمر بها • وكان فى مقدور الفرعون أن يتحـدث الى الأرواح الشريرة وأن تتحدث اليه هـذه الأرواح حتى يعبر البحيرة الشرقيـة •

ولمـا كان من الجائز أن تخفق الشفاعات فى تصعيد طائر « البا » أو الروح الى العالم الآخر ، كان حتما على الملك أن يسلم روحه الى الهواء ليصعد بها الى السماء •

يقول برستد « هناك يسمع من يقول له من مكان خفى : جناحاك منشوران مثل الصقر ذى الريش الكثيف ، ومثل الباشق الذى يعبر فى السماء قبة السماء الزرقاء • ان الطـائر يطير وهذا الملك « يبى » يطير بعيدا عنكم أيها الأنام ، انه ليس من أهل الأرض ، بل هو من أهل السماء مثل اله الأفق « حوراختى »

هذا عن لاهوت اله الشمس « رع » الذى عثر عليه بالجانب

الشرقى لقمة هرم الملك « امنحات الثالث » بدهشور ، حيث رسم على هيئة شمس مجنحة فوق عين ، ونقشت تحتهما عبارة تقول « لقد فتح وجه الملك امنحات الثالث حتى يتمكن من رؤية رب الأفق عندما يقلع فى عرض السماء » .

أما الاله أوزير فانه لم يظهر فى أى مكان من متون الأهرام بصورة تلفت النظر ، أكثر من ظهوره فى الصيغ الخاصة بالخدمات التى تقدمها للمتوفى الآلهة الأربعة المعروفة بصقور الشرق الأربعة التى توضح للمتوفى أحب طرق الصعود الى السماء وكيف تفتح أبوابها ويتم الصعود من شاطىء الى شاطىء ، وقد كانت الصقور الأربعة تتقدم موكب الملك وتسبقه فى رحلته . وعندما ورث « أوزير » « رع » بعد ذلك العهد بجيلين نجد أن تطورا طرأ على مجموعة الصقور الأربعة بظهور صقر جديد حل محل حور الأفق وهو حور أوزير .

***

من ذلك كله نرى أنه اذا كانت أعلى مراتب شوق الانسان وعشقه هى الذوبان فى الاله . فان انسان الحضارة المصرية قد حققه عن طريق الطيور كنفس ، وكروح وخلود ثم اعلانه الطيور بعد ذلك آلهة .. الصقر (رع) فى عصر الصيد ونسر لازيس وأوزريس وابنهما الصقر حورس رب البر والاخلاص ، فى عصر الخصب واستنبات الأرض . وما زال الفلاح المصرى حتى الآن يعمل بالتقويم القبطى ، حيث تبدأ السنة بشهر « توت » المعبود الفرعونى الذى يرمز له بالطائر المقدس « أبو منجل » أو « أبو قرن » وكان المصريون يرون فى هذا الطائر رسول السماء الى أهل الأرض، يحمل اليهم العلم والمعرفة ، ويعلمهم عدد السنين والحساب ، وكيف يكتبون ويقرأون واليه كان يفد طلاب المعرفة من كل مكان .

وقد شارك أقليم الطائر « تحوتى » (١) فى أحداث مصر السياسية عندما اشتد النزاع بين أهالى « طيبه » و « اهناسيا » وساواه الاغريق بعد ذلك بمعبودهم « هرمس » وسمى مركز عبادته من أجل ذلك (هرموبوليس) وكانت مدينة عثر فى مدافنها على كثير من مومياوات الطائر المقدس .

***

وقد كان الاغريق يعتقدون أن من يأكل لحم العندليب لا ينام ، واذا اكتحل الاعشى ببيض النسر ارتد بشـيرا . وقال الاغريق ان بيض الغرب يعيد للشعر الأبيض سواده وقد تجسدت بعض آلهتهم فى صور الطيور . كانت قدرة « دينوزيوس » اله الطرب ، تتجسد فى ثلاثة طيور صداحة . وكان على البطل الذى يسعى الى أن يتربع على عرش « دينوزيوس » أن يقتل اثنين من هذه الطيور وأن يحمل الطائر الثالث الى الاله ، وهنـاك يرى البطل دينوزيوس منبطحا على الأرض وهو يتلوى من الألم العظيم . وعندما يتوسل « دينوزيوس » سائلا البطل أن يطلق سراح الطائر أو يعطيه اياه ليأكله يرفض ذلك بل انه يلوى عنق الطائر فيموت اله الطرب فى الحال .

وقد احتلت الطيور أيضا موضعا ملحوظا فى محاورات الفلاسفة وما قدموه من معالجات لعقائد الاغريق .

فى محاورات فيدون يقف « سقراط » منتشيا بعد الحكم عليه بالموت ــ سما ــ يشرح لتلاميذه المتحلقين حوله أسـباب بهجتـه ، ويحدثهم عن سر التناسخ فيقول ان الذين تطهروا بفضـل الفلسفة

---

(١) أحد أقاليم مصر القديمة ، ويعتقد انه مدينة اشمون بدلتا مصر .

(٢) سقراط : (٤٦٩ ــ ٣٩٩ ق.م) فيلسوف يونانى من اثينا .. لم يترك اثرا مكتوبا . ولكن سجل حياته وتعاليمه تلميذه أفلاطون فى (محاوراته) ، و (اكسانوفون) فى (مذكراته) انهم بافساد عقائد الشبان . فحوكم وحكم عليه بالموت. وفى محاورات فيدون وصف لسجنه وموته بالسم الذى اختاره .

عنده . أما الذين ادعوا انهم من نسله او اتبعوا تعاليمه فيسمونه الاسكليبين .

يحيون بعد الموت دون جسد فى مساكن أكثر جمالا وبهاء من مساكنهم فى الأرض . وبعد ذلك ينهض سقراط ويؤدى كل الطقوس المتبعة مع المتوفى بنفسه ، ثم يحضرون له السم ممزوجا فى كأس فيتجرعه حتى الثمالة دون توقف أو اشمئزاز . وحينما كشفوا عن وجهه الذى كان قد غطاه ، كانت البرودة قد وصلت الى نصف بطنه ، وقال سقراط لتلميذه كرايتون : يا كرايتون اننى مدين لأسكلييوس بديك فادفع هذا الدين ولا تنس ذلك فقال له كرايتون : حسنا ، سأفعل ذلك ، ولكن فكر اذا كان لديك شىء آخر تقوله . ولم يجب سقراط .

واختيار سقراط الديك كدين لأسكلييوس . راجع الى أن أسكلييوس(*) كان اله الطب عند اليونانيين وكان شعاره المقدس الديك والثعبان .

وبتوصية سقراط لتلميذه بدفع الدين .. أصبح ديك سقراط وليس ديك أسكلييوس موضوعا لكثير من الأعمال الفنية القديمة والحديثة ، أشهرها (ديك سقراط*) للكاتب الأسبانى « ليبولد آلا » .

وخرافات اليونان عن الديك كثيرة ومعقدة .. فهناك خرافة يونانية قديمة تقول أنهم كانوا يقتنون الديكة المقاتلة ويعتنون بها عناية فائقة فيضعون على قنزعة الديك الظافر اكليلا من سعف النخيل ،

---

(1) أسكليبوس ، ابن أبولون وكورونيس كان القنطور (خيرون) الحكيم أول معلمية .. فلما مهر حتى استطاع احياء الموتى ، قتله زيوس ، على أن يجعل اسكليبوس اله الطب والمعتقد ان عبادة أسكليبوس نشأ فى تساليا . وقد أقيمت له معابد فى أماكن كثيرة حيث كان المرضى يعالجون بالتدليك والحمامات . وكان الثعبان والديك مقدسين عنده . اما الذين ادعو انهم من نسله او أتبعوا تعاليمه فيسمونه الأسكليبين .

(*) مجلة المجلة (المصرية) العدد الخامس سنة ١٦٦٠ .

فاذا مات احتفلوا بتشجيع جنازته ، وأقاموا له نصبا يتفق مع مكانته .

وقد كانوا يعتقدون أن الديك اذا بلغ السابعة من عمره أحس كأن بيضة تتخلق وتعتلج فيه . فيأخذه الوجوم ويشرع فى البحث عن مكان يضعها فيه ، وهو لا يعلم أن حية تراقبه وتنتظر هذه البيضة بفارغ الصبر ، فاذا وضعها احتضنتها الحية وخرج منها بعد أيام حيوان غريب الهيئة أقرب الى الزواحف يعرف بالأفعوان .

فى جزيرة العرب

لم تعرف شبه الجزيرة العربية الاطوار الخمسة لعهد ما قبل الأديان السماوية حيث يحدد المؤرخون مرحلة الجاهلية الأولى بالفترة ما بين عهد نوح وعهد ادريس ويتعذر النظر الى تلك الفترة كعصر معين من عصور التاريخ ، فالآثار الباقية من أساطير العرب وأساطير الساميين حولها قليلة بل هى نادرة . وقد اندثر كثير من الأدب العربى القديم ، لعدم اهتمامهم بصناعة الكتابة والتدوين ، ولم يبق الا الأدب الالحادى للجاهلية الثانية أو عهد ما قبل الاسلام الذى أشار اليه القرآن الكريم ، وورد ذكره فى قصائد الشعراء (١) « وسيرة ابن هشام » و « أخبار » عبيد بن شريه و « الاكليل » و « حياة الحيوان » للميرى وفى كل ذلك نرى العربى القديم عاجزا عن آن يتصور الأفكار غير المادية الا فى صور مادية . وبينما كان اليونان وأهل الهند وشعب فارس يتخيلون الجن فى صور مركبة تجمع بين الانسان والطائر أو الحيوان كان العرب يتخيلون الجن فى صورة حية أو نعامة .

كانت الروح فى الأسطورة العربية طائرا تدركه الأبصار وتلمسه الأيدى وليس شيئا فوق الطبيعة . وقد تصور بعض العرب . النفس طائرا يسكن الجسد ، وزعموا ان روح القتيل الذى لم يتم الثأر له ،

---

(١) ابن هشام : جمال الدين عبد الله بن يوسف (١٣٠٩ ـ ١٣٦٠) : ولد بالقاهرة وتوفى فيها .. نحوى لغوى شهير دوس على ابن المرجل وبن السراج والتا التبريزى وسمع على أبى حيان الأندلس : نحا فى طريقته منحاه اهل الموصل .

يتحول الى طائر يطوف مستوحشا يصدح على قبره قائلا : اسقونى ـ فاذا ثاروا له ـ طارت الروح (١) •

وكانوا يزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يصبح كنوع من البوم ، وهو أبدا مستوحش يسكن الديار المهجورة ومصارع القتلى والقبور ، وأنها ـ أى النفس ـ ترافق ابن الميت أو من يخلفه لتعلم ماذا يكون بعده فتخبر الراحل به •

وللأرواح عند عرب الجاهلية قدرة على الظهور للانسان بأشكال مختلفة وقد تحل فى اعتقادهم بأجساد بعض الحيوانات والطيور ، ومن هنا ظهرت عقيدة التشاؤم عندهم من الغراب والديك والبومة •

جاء فى « لسان العرب » لابن منظور ان الجاهليين كانوا يعتقدون أن الانسان اذا مات أو قتل اجتمع دم الرأس أو أجزاء منه وانتصب طيرا • يقول أبو داود الأيادى :

سلط الموت والمنون عليهم   فلهم فى صدى المقابر هام

وكان العرب يسمون ذلك الطائر الذى يخرج من هامة الميت أى رأسه « صدى » وقد نفى الاسلام ذلك ونهاهم عنه • جاء فى الحديث الشريف : « لا طير ولا هامة ولا صدى » •

وقد اتخذت بعض آلهة العرب أسماء الطيور وصورها • وجاء فى « التلمود » ان العرب كانوا يعبدون صنما اسمه « نسرا » ، أى نسر وقد دون اللفظ بهذه الصورة بتأثير لهجة بنى آرام وقد ورد اسم الصنم نسر عند السبئيين كذلك ويظهر انه كان من الالهة المعبودة عند كثير من الساميين خاصة فى شبه جزيرة العرب •

---

(١) الدكتور عبد المعين خان ـ الأساطير العربية ـ رسالة دكتوراه •

ونسر هو أيضا « نشر » Nesher فى العبرانية ، وهو اسم صنم من أصنام اللحيانيين كذلك ، ولابد أن يكون هذا الصنم من أصنام العرب الشماليين لورود اسمه فى الموارد العبرانية والربانية على أنه اسم اله عربى • وقد ذكر « يعقوب السروجى » انه صنم من أصنام الفرس • ولم يشر « ابن الكلبى » فى كتابه عن الأصنام الى صوره الصنم نسر ، ولكننا نستطيع أن نقول استنادا الى هذه التسمية انه على هيئة الطائر المسمى باسمه • وقد وجدت أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة فى أعالى الحجاز ، ويؤيد هذا الرأى رواية ذكرها « الطبرى » فى أشكال الأصنام أسندها الى « الواقدى » قال فيها : وكان (ود) ــ صنم ــ على صورة رجل ، و « سواع » على صورة امرأة ، و (يغوث) على صورة أسد ، و (نسر) على صورة نسر من الطين •

ويرى الدكتور (جواد على) فى كتابه «تاريخ العرب قبل الاسلام» أن عبادة الأصنام عند العرب بدأت فى نسل اسماعيل بن ابراهيم : « لما تكاثر حتى ضاقت بهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات فأخرج بعضهم بعضا ، فتفسحوا فى البلاد التماسا للمعاش • وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجرا من أحجار الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة • فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها وجبالها • ثم سلخ بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الأوثان التى تشكلت على أيديهم فى شكل نسر وغيره » •

ويرى « وتلف ويلسن » أن « نسر » اسم من جملة أسماء كان يقصد بها العرب الجنوبيون القمر ، ولهذا رمزوا اليه بصورة نسر • ولو صح هذا الرأى لكانت صورة النسر وكلمة النسر تدلان على الاله القمر • وقد أطلق على عبدة هذا الاله فى أحد النصوص

السبئية أهل نسور وكلمة « أهل » تعنى فى لغتهم ما تعنيه كلمة « ملة » فى الاسلام • وعرف أحد شهور السنة فى النصوص السبئية المتأخرة « نسورية » ولعل الاسم أطلق على الشهر نسبة الى هذا الاله •

وجاء فى « أخبار فتح مكة » أن الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الانبياء فأمر بها فمحيت ، ورأى فيها ستين وثلاثمائة صنم فأمر بها فكسرت ومن الأصنام المذكورة فى القرآن « سواع ، ويغوث ، ونسر » •

***

هذا كله عن طيور مختلفة فى أساطير متنوعة • أما الطائر الذى وجد متكررا فى أساطير وخرافات العالم أجمع فهو طائر العنقاء فقد لقيت العنقاء من اليونان والرومان ومن العرب والهنود والفرس وغيرهم عناية كبيرة ووقفوا طويلا عند وصف أطوار حياتها ومماتها •• فنسجوا حولها خيالات رائعة •

فيقول « أوفيد » الشاعر الرومانى « أن العنقاء لا تعيش كما يعيش غيرها من جوارح الطير كالعقاب ، أو من أوالف الليل كالبوم ، أو من الجوائم كالعصافير ونحوها فتأكل اللحوم والحشرات أو الحبوب والثمار ، وانما تعيش على الكندر واللبان والأصماغ الزكية الرائحة • فما إن يبلغ الذكر سنته الخمسمائة حتى يبنى له وكر فوق أغصان شجر السنديان أو النخيل ثم يشرع يكدس فيه أعواد الند والناردين والمر على هيئة ركام يجثم فوقه ، ليلفظ أنفاسه الأخيرة وسط عبير الطيب المتصاعد مع الدخان ، وبعد ذلك يخرج فرخ من بين حطام الطير الكبير ليخلفه ويحيا حياته •• فاذا كبر واشتد عوده احتمل الوكر الذى يضم رفاة أبيه فطار به الى هليوبولس فى مصر فأودعه معبد الشمس »•

هذا ما قاله الشاعر • أما الرواة فيزعمون أن العنقاء بعد أن

اختفت من الوجود أجيالا متعاقبة ، عادت فظهرت فى سماء مصر ، وقد أحاطت بها ثلة من أنواع الطير التى أخذت بجلال منظرها ورائع حسنها وبديع ريشها ، ثم يستطردون فى وصفها وصفا لا يختلف عن الوصف السابق .

وللعرب نظرة مختلفة الى العنقاء .. فيروى ابن الكلبى فى كتابه « الأصنام » أنه كان لأهل الرس نبى يقال له حنظلة بن صفوان . وكان بأرضهم جبل يقال له دمخ مصعده فى السماء .. فكان ينتابه طائر كأعظم ما يمكن لها عنق طويل من أحسن الطير ، فيها من كل لون .

وكانت تقع منقضة على الطير فتأكلها فجاعت ذات يوم وأعوزها الطير ، فانقضت على صبى فذهبت به ، فسميت عنقاء مغرب . لأنها تغرب بكل ما أخذته .. ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتها الى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرتين .. ثم طارت .. فشكوا ذلك الى نبيهم فدعى عليها فسلط الله عليها آفة فهلكت فضربتها العرب مثلا لما يذهب ولا يعود .. فيقال « ذهبت به عنقاء مغرب » .

وقال فيها أبو نواس :

وما خبر الا كعنقاء مغرب
تصور فى بسط الملوك وفى المثل

يحدث عنها الناس من غير رؤية
سوى صورة ما أن تمر ولا تحل

وروى القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » أن العنقاء أكبر الطيور جثة وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر .. وأن عمرها ألف وسبعمائة سنة وأنها تتزاوج اذا أتى عليها خمسمائة

عام ، فاذا حان وقت بيضها يظهر بها ألم شديد .. فيأتى الذكر بماء البحر فى منقاره .. ويحقنها به فتخرج البيضة عنها فيحتضنها الذكر ، أما الأنثى فتمشى وتصيد .

وقال الخليل أنها سميت عنقاء . لأن بياضا كان يطوق عنقها .

والعنقاء لفظ كثيرا ما يطلقه العرب على العقاب فضلا عن دلالته على ذلك الطير الأسطورى الذى كان موضع أوهامهم وخرافاتهم ، وان كانوا يعرفون أن العنقاء طائر خيالى لا وجود له ، قال أبو العلاء المعرى فى مطلع قصيدة له :

أرى العنقاء تكبر ان تصادا فعاند من تطيق له عنادا

وهى اشارة الى المستحيل الذى لا يدرك وكان الفينق « العنقاء » فى العصر المسيحى الأول .. رمز القيامة والبعث وجعله الصينيون رمزا للسعادة والفضيلة والذكاء وقالوا ان الألوان الخمسة الأصلية مأخوذة عن ألوان ريشه .

الفصل الثانى

من الفلك الى الغار

رســول الرســل

« وتفقد الطـير فقــال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شـديدا أو لأذبحنــه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » ..

القرآن الكريم

(سورة النمل : آية ٢٢)

فى التوراة

يروى « سفر التكوين » فى « العهد القديم » قصة خلق السموات والأرض وخلق الطير ثم خلق الانسان . « وكان مساء وكان صباح يوما رابعا وعـال الله لتفض المياه زحافات ذات آنفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء ، فخلق الله التنانين العظـام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسـها . وكل طائر ذى جناح كجنسه . ورأى الله ذلك آنه حسن فباركها قائـلا : « أثمرى واكثرى واملئى المياه فى البحار وليكثر الطير على الأرض » فأكملت السموات والأرض وكل جندها وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ، ووضعه فى جنة عدن ليعملها » . « وجلب كل حيوانات البرية وكل طيور السماء ليرى ماذا يدعوها .. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها » .

وقد تمايزت أسماء الطيور على لسان آدم وفقا لأحجامهـا من العصفور الى النعامة والغراب والطاووس والقطاة والكركى والنسر والديك والحمامة واليمامة والغرنبق والبدرج (١) كثيرة هى الطيور التى حملها نوح حيث كشف الفلك عن خصائصها الدفينة .

ويقول العالم « هـ.ب. تراستران » فى كتابه التاريخ الطبيعى للتوراة : ان المهمة التى اضطلع بها كل طائر فى الفلك هى التى حددت المسار النفسى له فى الحياة بعد ذلك . كان الغراب قبل الفلك يتولى مهمة القيادة ، فتحول بعده رمزا الى عدم الوفاء بالوعد .

---

(١) البدرج : طائر يشبه الديك ، لكنه اكبر حجما منه .

ذلك لأن نوحا قد أرسل الغراب ليرى هل غاضت المياه عن وجه الأرض ، فخرج الغراب مترددا ولم يعد لأنه وجد جيفة طافية فضل بها عن مهمته . وسأل البدرج نوحا أن يأذن له فى الخروج ليأتيه بخبر المـاء ، ولكن نوحا خاف أن يسلك البدرج سلوك الغراب ولا يعود ، فطلب رهينة ، وقيل ان الديك ضمنه ، فخرج ولم يعد هو الآخر فصار الديك مملوكا ورهينة ، ومن هنا أصبح الديك طائرا داجنا ، وكان قبل ذلك طليقا بلا سيد أو صاحب وكان البدرج ألوفا فصار بريا . وأرسل نوح الحمامة فلم تكد تغادر الفلك حتى عادت لأنها لم تجد مكانا لقدمها ، فمد يده وأخذها ، ولبث سـبعة أيام آخر ، وعـاد وأرسلها فأتت اليه عند المساء وفى منقارها ورقـة زيتون خضراء ، فعلم نوح أن المياه قد غاضت وظهرت اليابسة . ولأن الحمامة قامت بدورها خير قيام ولم تيأس رغم تكرار ارسالها فى ذات المهمة فقد دعا لها نوح فى الدنيا والآخرة وأصبحت الحمامة رسول السـلام ورمز المحبة عند البشر .

هكذا تبدلت الوظائف الطبيعية لبعض الطيور بعد الفلك ــ كما يقول تراستران ــ نقلا عن التوراة ، وظــل بعضهمــا الآخر محتفظا بما كان عليه قبل الفلك ، مثل النسر الذى يحمى الطيور ويحرسها .

وقد ذكرت الطيور فى الأناجيل الأربعة متى ومرقص ولوقا ويوحنا فى مواضع أربعة ، واتفقت الروايات فى ثلاثة واختلفت فى موضع واحد أما المواضع الثلاثة فهى مراسم التعميد وتشبيه النفس الصالحة للايمان ، وعندما عاد يســوع الى أورشليم . وأما ما اختلفت حوله الأناجيل الأربعة فهو ما حدث بعد القبض على المسيح .

ذكرت الطيور فى مراسم التعميد حيث يروى العهــد الجديد « فلما اعتمد يســوع صعد للوقت من المــاء ، واذا الســماوات قد انفتحت له ، فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصــوت من السماء قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت به » .

وذكرت فى تشبيه النفس الصالحة للايمان حيث جاء فى الاصحاح الثالث عشر من انجيل « متى » « وفى ذلك اليوم خرج يســوع من البيت وجلس عند البحر فاجتمع اليه جموع كثيرة حتى أنه دخــل السفينة وجلس والجمع كله وقف على الشاطىء فكلمهم كثيرا بأمثال قائلا : هوذا الزارع قد خرج ليزرع ، وفيما هو يزرع سقط بعض الحب على الطريق فجــاءت الطيور وأكلته » ولكن متى زرع تطلع وتصير أكبر جميع البقول وتصنع أغصانا كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتآوى تحت ظلها .

وجاء ذكر الطيور عند عـودة عيسى الى أورشـليم اذ تروى الأناجيل الأربعة : ووجد تجار اليهود يحيطون به وكأنه سوق فسخط وماج وقلب أموالهم على الحمام المتاجر فيه وهو يقول : هل تريدون أن تحولوا بيت أبى سوق تجارة •

أما موضـوع الخـلاف فقد كان ما حدث بعد القبض على المسيح • ومشاهدة تلميذه بطرس لهذا الحدث وانكاره له قبل صياح الديك •

ولم يختلف الحواريون الأربعة حـول واقعة الصـياح بقدر ما اختلفوا حول تكرار هذا الصياح ووقته • فقد ارتبط صياح الديك باعادة تذكر بطرس لكلمة المسـيح التى لم يدركها عندما قيلت أول مـرة •

يذكر متى « : وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقا أنت أيضا منهم ، فان لغتك تظهرك • فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف أنى لا أعرف الرجل ، وللوقت صاح الديك •• فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له أنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات •• فخرج الى الخارج وبكى بكاء مرا » ويورد مرقص نفس التفاصيل ولكنه يختلف فى اللحظة التى صاح فيها الديك • يقول بطرس أنه انتبه عقب المرة الأولى لا بعد المرات الثلاث • ويقول لوقا : بذلك أيضا لكنه لا يذكر الوقت « فالتفت الرب ونظر الى بطرس فتذكر الكلام وبكى » • أما يوحنا فيقول ان المصلين قالوا له « ألست أنت من تلاميذه ؟ فأنكر وقال له واحد من عبيد رئيس الكهنة : أما رأيتك أنا معه فى البستان ؟ فأنكر أيضا وللوقت صاح الديك » •

فى القرآن الكريم

تبدأ صفحة الطيور فى تاريخ الاسلام بقصة يمامة تعشش على غار احتمى به محمد صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه أبو بكر من مطاردة الكفار . فى طريق هجرتهما من مكة الى المدينة ، وقد نهى الكتاب الكريم والحديث الشريف عن التطير (أى التشاؤم والتفاؤل بالطير) وكل ما يؤخذ عن الطير بطريقة تدنى من شأنه ، وذلك لأن الطير قد ادخر لادوار أمجد وأسمى من التشاؤم أو التفاؤل به . وفى القرآن الكريم نطالع هذه المهام الرائعة التى سما الله فيها بهذا الكائن الاثير الملهم . وقد ورد ذكره فى ثلاثين آية : (فى سورة البقرة) (وآل عمران) و (سبأ) و (النحل) و (النمل) و (الاسراء) و (الملك) و (الواقعة) ....

فى سورة (البقرة) جاء ذكر الطيور دليلا على قدرة الله فى أحياء الموتى ـ وهى ثانى سور القرآن بعد الفاتحة ـ قال تعالى : « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم أجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » (آية ٢٦٠) .

أراد الله أن تدخل الطمأنينة قلب ابراهيم الذى سأله أن يرى ميتا يعود الى الحياة ، فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحها ويوزع أجزاءها على الجبال ثم يدعوها ، فيجدها آتية اليه صحيحة

كأنها لم تمت من قبل [1] .

ووردت الطيور فى سورة آل عمران : ثالث سور القرآن ، كدليل على قدرته تعالى فى الخلق أيضا : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله » (آية ٤٩) .

يقول القرطبى ان سؤال بنى اسرائيل لعيسى عليه السلام كان على وجه التعنت ، فقالوا : « اخلق لنا « هاشا » [2] واجعله يطير بين السماء والأرض » وكان النفخ من جبريل والخلق من الله . وقيل : « لم يخلق غير الخفاش ، لانه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدر : لان لها ثديا وأسنانا وأذنا وهى تحيض وتطهر وتلد » . وقال : « انما طلبوا خلق الخفاش لأنه أعجب من سائر الخلق ومن عجائبه انه لحم ودم ، يطير بغير ريش ، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما تبيض سائر الطيور ، فيكون له الضرع يخرج منه اللبن ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل ، وانما يرى فى ساعتين بعد غروب الشمس ساعة ، وبعد طلوع الفجر ساعة [3] .

ان اختياره سبحانه للطائر ، دون سائر المخلوقات ، ليكشف به عن قدرته فى خلق الانسان واعادة خلقه يؤكد العلاقة الخاصة التى

---

(١) يذكر المؤرخون ان ابراهيم عليه السلام قدم مصر فى الأسرة الخامسة التى بدأ « خوفو » فى عهدها بناء الهرم الاكبر ويقال ان الساحر « ديدى » عرض امام « خوفو » تجربة ذبح الطير وتوزيع اجزائه على جبال اربعة .

(٢) هاشا : هو اسم الخفاش فى اللغة العبرية .

(٣) لم يصل العلم بعد الى تفسير ذلك وان كان المعروف ان فكرة الرادار مستوحاه من قرنى الاستشعار عند الخفاش .

قامت منذ البدء بين الانسان والطائر ، وقد يفسر ذلك أيضا طموح الانسان الدائم الى امتلاك الشعور الكامل بالحرية وهو ما لم يتحقق لكائن الا للطائر .

ومن الأدوار المجيدة للطيور فى القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان يمر بالجبال مسبحا وتجاوبه الجبال بالتسبيح وكذلك الطير ، وكان داود يعرف منطق الطير ، وقد كان للطيور أيضا دور أكثر خصوصية مع ابنه سليمان ، الذى ورث عنه العلم والحكمة . قال تعالى : « يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء » وقال جل شأنه : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » (النمل ١٧) .

وما ألهم سليمان منطق الطير الا ليضرب به مثلا فى الحكم ووجوب أن يتفقد الراعى رعيته .. « وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد » (النمل ٢٠) .

يقول القرطبى : الطير ــ اسم جامع والواحد طائر ، والمراد هنا جنس الطير وجماعتها ، وكانت تصحب سليمان فى سفره وتظله بأجنحتها .

وقال ابن عباس (١) لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك ثلاث مسائل ، قال : اتسألنى وأنت تقرأ القرآن ؟ قال نعم ، ثلاث . قال :

---

(١) ابن عم النبى (٦٨٧ م) ، ولد قبل الهجرة بقليل .. لم يشترك فى نشاط دينى او سياسى الا ابتداء من خلافة عثمان الذى أنابه عنه فى رياسة بعثة الحج (٣٥) هـ ، اتخذه على مستشارا وولاه على البصرة زمنا .. وبقى علويا الى أن نزل الحسن عن الخلافة فاعترف ببيعة الأمويين .. يفوق نشاطه العلمى والدينى نشاطه السياسى فكان محدثا وفقيها ومفسرا للقرآن ولكنه لم يسلم من الوضاعين الذين اختلفوا كثيرا مما يروى عنه توفى فى الطائف عن نحو ٧٠ سنة .

لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير ؟ قال : احتاج الى الماء ولم يعرف عمقه وكان الهدهد مهندسا .

وقد توعد سليمان الهدهد :« لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » .

يقول الشيخ عبد الرحمن النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » : أراد سليمان أن يختبر صدق الهدهد فأعطاه كتابا الى الملكة . وذهب الهدهد بكتاب سليمان الى بلقيس فأخذته ولم ترد أن تنفرد باجابة . جمعت رجال دولتها وأطلعتهم على الكتاب وأخبرتهم أنه من سليمان « وانه بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذتهم العزة وثارت فيهم الحماسة ، وقالوا لها : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد . والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين » .

ولكن بلقيس نظرت فى الأمر بعين الفطنة ولم تغتر بما أبداه رجالها من الحماسة وقالت لهم ان دخول الملوك الى المدن ليس من الهنات الهينات وأثره ليس بالسهل على أهلها فانهم : « اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . وعرضت بلقيس على رجال الدولة رأيا آخر وجدته أقرب الى حل الأزمة التى أتتها من حيث لا تحتسب وذلك بأن ترسل الى سليمان هدية تصانعه بها ، وتستنزل مودته بسببها ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها الى سليمان .

وظاهر أن بلقيس كانت تبغى من ارسال الهدية أن يقف رسلها على أحوال الملك ، فجاء الخبر وعلمت عظمة سليمان وقوة ملكه وأشفقت على قومها فأزمعت الذهاب اليه فى رجال ملكها ودولتها

وجاءت الى أورشليم بهدية ولمـا قربت من ديار سليمان أراد أن يظهر لها من دلائل عظمته ونعم الله تعالى عليه ما يبهرها ، وهو أن يأتيهـا بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليـه فى ذلك الصرح • فانتدب له عفريتا من الجن « وقـال أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامـك » اما الذى جاء بالعرش فهو الذى عنده علم الكتـاب وقد وضعه فى الصرح الذى هيىء لاستقبالها •

وهكذا تأكد لسليمان صدق الهدهد ••

وجاء فى سورة (النحل) : « ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسـكهن الا الله •• ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » وفى سـورة الملك « أو لم يروا الى الطـير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شىء بصير » •

يقول القرطبى : ان اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران ولو كان غير معتدل لكان يميل فاعلمنا أن الطيران بالجناحين ، وما يمسكهن الا الله • ومسخرات : أى مذللات لمنافعكم وهى دليل على مسخر سخرها ومدبر مكنها من التصرف • وما يمسكهن الا الله ؛ فى حال القبض والبسط والاصطفاف ليبين لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته وأن فى ذلك لآيات أى علامات وعبر ودلالات لقوم يؤمنون بالله وبما جاء به الرسل •

والطير كالبشر أمم وشعوب ، تمضى حياتها وفق نظام دقيق • يقول الله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طـائر يطير بجناحيـه الا أمم أمثالكم » أى أمم أمثالكم فى الخلق والرزق والموت والتعب والقصاص • ويورد القرطبى عن سفيان بن عيينة : أى ما من صنف من الطير والدواب الا فى الناس شبه منه • فمنهم من يزهو كالطاووس

ومنهم من يعوى كالكلب أو يسره كالخنزير • ويستحسن القرطبى شرح سـفيان بالمماثلة والتشبيه لأن هـذا واقع فى الوجود ويورد القرطبى أيضا رأى مجاهد الذى فسر : « أمم أمثالكم » بأنها تعنى أصنافا لها أسماء تعرف بها كما تعرفون • قال : قيل ذلك وقيل أنها مثلنا فى المعرفة وأنها تحشر وتنعم فى الجنة تعوض عن الآلام التى حلت بها فى الدنيا وأن أهل الجنة يستأنسون بصـورها وقيل غير هذا مما لا يصـح • وكأن القرطبى يشـير بما « لا يصـح » الى « أحمد بن خابط » وهو أحد الفلاسفة الاسلاميين وقد قدم تفسيرا خاصا لاحتمال تكاليف الطيور بالتكاليف الاسلامية وأن الأمر والنهى موجه اليهم على اختلاف صـورهم ولغاتهم وذلك اعتمادا على الآية : « ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » •• موصولة بآية أخرى « وان ما من أمة الا خلا فيها نذير » •

ولاشك فى غرابة التفسير ولكن احتمال صحته وارد أيضـا لا سيما وأن الله تعالى يذكر للطير مواقف صالحة ويجعله نعمة وفضلا وعلما لداود وابنه سليمان عليهما السلام •

وقد روى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان فى الجنة طيرا ، فى الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صفحة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فتخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج ، وأبرد ، وألين من الزبد ، وأعذب من الشـهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير » •

الفصل الثالث

فى الأدب العربى

المعلم

كان الشاعر المنازى يجتاز سوق الطاق بالقرب من بغداد حيث تباع الطير فسمع حمامة تلحن فى قفص فاشتراها وأرسلها ثم قال :

ناحت مطوقة بباب الطاق ... فجرى سوابق مدمعى المهراق
حنت الى ارض الحجاز بحرقة ... تسجى فؤاد الهائم المشتاق
ان الحمائم لم تزل بحنينها ... قدما تبكى اعين العشاق
كانت تفرخ فى الأراك وربما ... كانت تفرخ فى فروع الساق
تعس الفراق وجد حبل وتينه ... وسقاه من سم الاساود ساقى
يا ويحة ما باله قمرية ... لم تدر ما بغداد فى الافاق
فاتى الفراق بها العراق فاصبحت ... بعد الاراك تفوح فى الأسواق
فشريتها لما سمعت حنينها ... وعلى الحمامة عدت بالاطلاق
بى مثل ما بك يا حمامة فاسالى ... من فك اسرك ان يحل وثاقى

من كتاب « الأزهار » لابن منظور .

يدلنا حــديث ابن خابط[1] الأخير عن تكليف للطيور .. على تأثر بعض المفكرين الاسلاميين بالفكر باليونانى .. فمزجوا فى أقوالهم بين ما يقول التناسخيون وفلاسفة المعتزلة ، فقالوا ان الروح ما تفتأ تتخذ من الطيور والبهائم والسباع والحشرات أجسادا .

ولقد مر الفكر الاسلامى بأطوار متعددة منذ دولة الراشدين حتى عصر الانحلال والانقسام ، ثم قيام دول الفاطميين والأيوبيين والعثمانيين وظهور الدولة الصفوية الشيعية ولم يخل طور من هــذه الأطوار من الحديث عن الطيور وما يتصل بها من أفكار ودلالات ، وتبدى ذلك بشكل ملحوظ فى الشعر خاصة وفى الأدب العربى بوجه عــام .

وكمثال على مكانة الطير عند عصر الخلفاء الراشدين الذين كانت

---

(١) هكذا يقول الشــهر ســتانى فى كتابه « الملل والنحل » .. ويردده مؤلفو « محاورات فيدون فى العالم العربى » وان كنا قد لمحنا أن هــذا القول هو صــورة اخرى « للهامة » أو « الصدا » التى تخرج من رأس القتيل .. فى المعتقدات العربيــة القديمة .. و (ألبا) أو الروح عند المصريين القدماء .. ثم الا يذكرنا كل ذلك بالذبابة الزرقاء والخضراء التى كنانتحاشاها ونحن صغار لانها آتية من المقابر .. والتى أكدها الروائى هنرى باربروس فى روايته الجحيم . التى اعتمد فى مقاطع كثيرة منها على كتب علمية دقيقة تقول : ان ثمــة ذبابا صغيرا يقيم فى الجسم قبل لحظات قليلة من الموت وان بعض الافرازات تدله على احتمال حدوث يؤمن له وفرة هائلة من الغذاء ليرقاته .. ولا تكاد الحياة تنطفىء وتصبح رائحة الفساد محسوسة حتى تتدفق الذبابة الزرقاء والخضراء المعروفة علميا باسـم لوسيليا سيزار .. ثم الذبــابة الكبيرة ذات القفص المخطط بالابيض والأسود التى يطلق عليها اسم أكالة اللحم الكبيرة .

الرحمة والتراحم سمة مميزة لعصرهم . نذكر قصة ابن الخطاب ثانى الخلفاء ــ عندما أمر الشاعر العربى الحطيئة أن يقول ما شاء من الشعر وأن ينشره بين الناس شريطة آلا يهجو مسلما .

ولكن الحطيئة لتطرف فى طبيعته وميل الى الفساد ، خرج عن نصيحة أمير المؤمنين وهجا الزبرقان بن بدر فشكاه الى عمر . فأمر بحبسه فلما زاره ابنه فى محبسه قال لابنه أنشد أمير المؤمنين هذه الأبيات .

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ   زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

شبه الحطيئة أبناءه الصغار بصغار الطير التى تحتاج الى راع يحميها خاصة وأن ريشها لم تنبت بعد ، وقد حركت هذه الصورة الذكية للفراخ الضعيفة الرقيقة قلب عمر فأمر باطلاق سراح الحطيئة وعفا عنه .

وقد طمع بنو أمية فى الملك وزرعوا الفرقة بين قريش وسائر العرب وأشعلوا نار العصبية القبلية ، وكثر التمرد واحتاج ساستهم الى الولاة الأشداء حتى يحكموا قبضتهم على الشعوب .

ولما أعجز العراق بتمرده عبد الملك بن مروان ولى عليه الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان قائدا شجاعا وخطيبا بليغا ، فلما دخل الكوفة وصعد المنبر ملثما مسكا قوسه واضعا ابهامه على فمه ، احتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون فى الولاة قبله .

لكنه وقف وأزاح اللثام عن وجهه وخطب فيهم متوعدا :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

وما أن فرغ الحجاج من خطبته حتى أذعنوا له .

ولاشك أن صورة هــذا العصر ، تعطينا فــكرة أن لغة الكلام والشــعر قد تعطلت ، واستبدلت بها أســنة الرماح والســيوف •• ولأن الطيور لا تشدو الا فى جو يسوده السلام والمحبة •

فقد فرت بنفسها ، ولكن الى مكان آخر تتنسم فى رحابه عبير السلام •• وتشى بما اعتمل فى نفوس الناس تجاه الأمويين •• ولم نسمع عنها من أدب ذلك العصر •• الا فيما روى من الأحلام التى كان يفسرها ابن سيرين •• وكأن الطيور قد فرت بنفسها من مجتمع القوة والحرب الى أحلام الناس وتخيلاتهم •• وهــذا ما سنراه فى باب الأحلام من هذا الكتاب •

***

وقد نشط الأدب العربى فى العصر العباسى الأول • كان الأدباء بعد أن فرغوا من جمع أقوال العرب وأشعارهم وأخبارهم للاستعانة بها فى تفسير القرآن وضبط ألفاظه وشرح أساليبه ، بدأوا يتحسسون طريقهم الى الترجمة والتأليف وظهر أسلوب الانشاء المرســل ، وكتب به « ابن المقفع » « كليلة ودمنة » الذى يقوم على أمثال فرضــية وحكم أجراها صاحب الكتاب على لسان الطير والحيوان •

ورغم أن « المقفع » قد قدم للكتاب بمقدمة توضح الغرض من تأليفه وترجمته ، الا أن الخــلاف ثار حول أسباب وضع الكتاب • قال البعض انه للتسلية ورأى فيه البعض شكلا من أشكال الأدب

---

(١) الترجمة عند العرب : مرت فى ثلاث مراحل : المرحلة الاولى من خلافة المنصور (٧٥٣) الى نهاية خلافة الرشيد (٨٠٦/٨٠٨) وتتميز بترجمة الطب والفلك ومن اشهر النقلة فيها جورجيس بن جبرائيل ديو حنا بن ماسوية • المرحلة الثانية (١٩١٣/٨١٣) وتتميز بترحمة كتب الرياضيات والفلسفة والمنطق ، واشــهر مترجمها يحيى ابن بطريق ، والحجاج بن يوسف بن مصر ، وقسطا بن لوقا •• والمرحلة الثالثة بعد ٩٣٠ وتتميز بترجمة الكتب فى مختلف العلوم والآداب •

يراد به القاء دروس أخلاقية فى أسلوب يختلف عن الموعظة المباشرة الصريحة ، وقال آخرون أنه وصية للحاكم حتى تسلس له قيادة رعيته ، وتنوير للرعية حتى تعرف متى يظلم الحاكم ومتى يعدل .

وأيا ما كان الخلاف ، فما يهمنا هنا هو اختيار الطير فيه شخوصا تخطىء وتصيب ، تفكر وتجرى ألسنتها بالخير والشر كالبشر .

ان الفكر ، وهو طبيعة الانسان الأولى تشف من خلف هذه الجسوم المختلفة من طير كان أو حيوانا .

واذا كان لنا أن نختار نموذجا من هذه القصص نوضح به ما ذهبنا اليه فاننا نختار (قصة الحمامة المطوقة) ، أولا لوضوح مغزاها وثانيا لأن مؤرخى الأدب نسبوا اليها الهامات بعينها وأنكروا عليها أخرى .

وتبدأ قصة « الحمامة المطوقة » هكذا :

قال بيدبا : زعموا أن غرابا شاهد شباك صيد ، فعرف أنه منصوب له ولغيره ، فلم يلبث الا قليلا حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة ، وكانت سيدة الحمام ومعها حمام كثير ، فعمت هى وصاحباتها عن الشرك ، فوقعن على الحب يلتقطنه ، فعلقن فى الشبكة كلهن ، وأقبل الصياد فرحا مسرورا ، فجعلت كل حمامة تتلجلج فى حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها .

قالت المطوقة : لا تتخاذلن فى المعالجة ، ولا تكن نفس احداكن أهم اليها من نفس صاحبتها ، ولكن تتعاون جميعا ونطير كطائر واحد فينجو بعضنا ببعض . فجمعن أنفسهن ووثبن وثبة واحدة فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن وعلون بها فى الجو .

وكان للمطوقة صديق كالأخ ، هو الجرذ ، ذهبن اليه فسألها : ما أوقعك فى هــذه الورطة ؟ قالت له : ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء الا وهو مقــدور على من تصيبه المقــادير ، وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة ، فقد لا يمنع من القدر من هو أقوى منى وأعظم • وقد تنكسف الشمس والقمر اذا قضى ذلك عليهما • ثم أخذ الجرذ فى قرض العقد الذى فيه المطوقة • فقالت له المطوقــة : ابدأ بقطع عقد الحمام ، وبعد ذلك أقبل على عقدى وأعادت عليه ذلك مرارا وهو لا يلتفت الى قولها • فلما أكثرت عليه القول وكررت قــال لها : لقد كررت القول على كأنك ليس لك فى نفسك حاجة ولا لك عليها شفقة ولا ترغبين لها حقا ، قالت : انى أخاف ان أنت بدأت بقطع عقدى ان تمل وتكسل على قطع ما بقى ، وعرفت أنك ان بدأت بهن قبلى وكنت أنا الأخيرة لم ترض ، وان أدركك الفتور ، أن أبقى فى الشرك • قــال الجرذ : هــذا مما يزيد الرغبــة فيك والمودة لك • ثم ان الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتى فرغ منها ، فانطلقت المطوقة وحمائمها معها •

وكتاب « الحيوان » للجاحظ هو أقدم ما كتب فى موضــوعه بالعربية وهو يختلف عن غيره من كتب الحيوان المعروفة مثل كتب ديمقراطيس ، وأرســطاليس وأرســطو التى نقلهــا ابن بطريق الى العربية ، بأنه يشتمل على وصف طبائع الحيوانات من حيث علاقتها بالناس •

يقول الجاحظ فى تعريف الطائر : « وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطــير ، فقد يطير الجعــلان والحجل واليعاسيب والذباب والزنانير والفراش والبعوض والنحل وغير ذلك ولا يسمى بالطير • وقد يقال ذلك لها عند بعض أهل الذكر • وقد يسمون الدجــاج طيرا

ولا يسمون بذلك الجراد وهو أطير . والملائكة تطير ولها أجنحة وليست من الطير » .

ويورد الجاحظ طرائف عن مملكة الطيور ويربطها بالأحداث التاريخية فى الاسلام . يقول : فاذا ذكرتم جنايات الديك فواحدة منها أعظم من جنايات الكلاب ، لأن عبد عبد الله بن عثمان بن عفان بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم انما مات من نقر ديك فى دار عثمان ، فقتل الديك لحفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من كثير مما تستعظمونه من جنايات الكلب » . ثم يعدد الجاحظ أجناس الطير التى تألف دور الناس ، « لما بينها من مناسبة ومشاكلة وصحبة ، وهى العصافير ، والخطاطيف ، والزرازير ، والخفافيش . فالخفافيش تقطع اليهم وتغرب عنهم ، والعصافير لا تفارقهم وان وجدت دارا خاليا لا تسكنها حتى يسكنها انسان ومتى سكنتها تسكن ، وهذه فضيلة لها على الخطاطيف . والحمام لا يقيم معهم فى دورهم الا بعد أن يثبتوه ويعلموه ويرقوا لحاله ويدجنوه ، ومنها ما هو وحش طورانى وما توحش بعد الأنس . والعصافير على خلاف ذلك فلها فضيلة على الحمام وعلى الخطاف . وقد يدرب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويثبت ويدجن . فهو مما يثبت ويعايش الناس من تلقاء نفسه مرة وبالتثبيت مرة . وليس كذلك كل مما يأوى الى الناس من الطير » .

ثم يورد الجاحظ بعض خصال العصفور فيقول : « والعصفور لا يستقر اذا كان خارجا عن وكره ، حتى كأنه فى دوام الحركة صبى وله صوت حديدى مؤذ » .

وعن البلبل يفند الجاحظ الزعم بأنه لا يستقر أبدا .. « لأن البلبل انما يقلق لأنه محصور فى قفص والذين عاينوا البلابل

والعصافير فى أوكارها وغير محصورة فى الأقفاص يعلمون فضل العصفور على البلبل فى الحركة . فان صدق الحس ، وشدة الحذر الذى ليس عند خبيث الطير ، ولا عند الغراب ، عند العصفور منه ما ليس عند جميع ما ذكرنا ، ولو اجتمعت قواهم وركبوا فى نصاب واحد » .

ويعرف الجاحظ أنواع الطير فيقول : انها على ثلاثة أضرب . فضرب من بهائم الطير ، وضرب كسباع الطير ، وضرب كالمشترك المركب » . ويقصد ببهائم الطير ، الطيور التى تتغذى بالحبوب والبذور والنبات كالحمام ، ويقصد بسباع الطير تلك التى تتغذى باللحم كالنسر ، أما المشترك فيقصد به الخفاش .

ويستشهد « الجاحظ » فى كثير من مواضع كتابه بما ذكره القرآن الكريم والحديث الشريف على الطير والحيوان ، ومن ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من انسان يقتل عصفورا أو ما فوقها بغير حقها الا سأله الله عنها ، قيل يا رسول الله وما حقها ؟ قال : أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمى بها » .

***

بلغ الأدب مرحلة النضوج والاستقلال عن سائر العلوم فى العصر العباسى الثانى ، وظهرت روح النقد والنظر الفلسفى ، وبدأت المحاولات الأولى لكتابة الملاحم وقصص البطولة التى تمجد معانى العفة والتفانى والوفاء فى الحب ، ومهد لذلك ما ورد من أخبار العشاق فى صدر الاسلام ، مثل « كثير عزة » و « جميل بثينة » اللذين شاع فى أشعارهما التمثل بأوصاف الطير وما يدور بينه . يقول جميل بثينة :

أبنات الهديل أسعدن أوعد ن قليل العزاء بالأسعاد
آية الله دركن فأنتن اللواتى تحسن حفظ الوداد

وفى العصر العباسى الثانى ، تم نقل « ألف ليلة وليلة » الى اللغة العربية ، ويشيع فيها أيضا ذكر الطيور والنظر اليها ككائنات تشعر وتفكر •

تحكى « شهرزاد » فى احدى القصص عن جنية انسية طائرة ، تبدو فى صورة امرأة ، رداؤها من الريش ، وتطير من مكان الى مكان ،وتتزوج من رجل أحبته ، وقد أنجبت له الأبناء •

ويبدو « الرخ » بطلا فى رحلات السندباد البحرى فى « ألف ليلة وليلة » و « الرخ » طائر بائد ، للعرب فيه أقوال كثيرة • وصفه داود الأنطاكى بقوله : ان منه من يقارب حجم الجمل وأرفع منه ، وعنقه طويل شديد البياض مطوق ، وفى بطنه ورجليه خطوط غبر ، وليس فى الطيور أعظم منه جثة • ويقال أنه يقصد المراكب فيغرق أهلها ، ويبيض فى البر ، وتوجد بيضته كالقبة وأنه أعظم الخلق كبير الجثة عريض الأجنحة ، متى طار غطى عين الشمس وحجبها عن الجزيرة •

والمجمع عليه ، أن الرخ طائر كبير فى جزائر الهند ، وانقرض فى القرن السابع عشر ، وقد عثر على بيضة له فى مدغشقر وقيل ان طولها نحو ثلاثين سنتيمترا •

أما الفلسفة ، فقد كان الانتساب اليها مذموما ، وشاعت النقمة على « الخليفة المأمون » لأنه عنى بنقلها الى العربية ، حتى أن « ابن تيمية » يقول بعد ذلك : ما أظن الله يغفل عن المأمون ، ولابد أن يعاقبه بما أدخل على هذه الأمة » !

وقد اضطر المشتغلون بالفلسفة الى التستر ، وظهرت الجمعيات السرية ، وأشهرها جمعية « اخوان الصفا » التى أخذت اسمها من حكاية « الحمامة المطوقة » ، كما يذكر « بوير » فى « دائرة المعـارف الاسلامية » نقلا عن المستشرق « جولد زيهر » فالحكاية قد استخدمت تعبير « اخوان الصفا » فى وصف الجماعة المتآلفة من أجل هـدف واحد ويقوم نظامها الداخلى على اعلاء قيمة الغيرية .

وقد دون اخوان الصفا فلسفتهم فى خمسين رسالة نشروهـا بين الناس دون أن يفصحوا عن أسمائهم ، وقد ناقشوا فيها مبادىء الوجود وأصول الكائنات وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، والعقل والمعقول .... الخ .

ويذهب الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر فى حديث له معى الى غير ما ذهب اليه المستشرقون من أن تسمية الجماعة مستلهم من الحمامة المطوقة ، ذلك أن تعبير « اخوان الصفا » ورد كثيرا فى الشعر العربى قبل ترجمة هذه الحكاية ، بل ان التعبير قد ورد فى الشـعر الجاهلى فأوس بن حجر ينشد قائلا :

لعمرك ما أنسى طفيل بن مالك بنى عامر اذ ثابت الخيل تدعى
وودع اخـوان الصفا بقرزل يمر كمريخ الوليـد المفـزع

ويقول عمر بن شأس الأسدى وهو جاهلى أيضا :

تذكرت اخوان الصفاء تيمموا فرادس سعد واستبد بهم جهلا

أما دعوة الحمامة لصويحباتها .. فيقول الشـعر الجاهلى على لسان جردان[1] العود :

---

(1) جران العود : شاعر نميرى من بنى نمير . اختلفوا فى نسبه واسمه عقيل وقيل عامر بن الحارث بن كلفة .

وذكرنى الصبا بعد التناهى حمامة أيكة تدعو الحماما
أسيلا خده والجيد منه تقلد زينه (٢) خلقت لزاما
كساه الله يوم دعاه نوح نظاما ما يريد به نظاما
كأن الايك حين صدحن(٣)، فيه نوائح يلتذمن به التذما
فهيج ذاك منى الشوق حتى بكيت وما فهمت لها كلاما

وبذلك يكون ابن المقفع هو الذى استلهم الاسم من الشعر الجاهلى ولا يرجع ما عرف عن الجماعة من تحريم ذبح وأكل الحمام الى اعزازهم للحمامة المطوقة ، كما يقول بعض المستشرقين ، وانما الى تيمنهم بحمام الكعبة الشريفة .

***

وقد عاصر «ابن سينا» اخوان الصفا ، وظهرت فى أشعاره الملامح الأولى للتصوف ، خاصة فى قصيدته العينية عن النفس ، حيث اتخذ الحمامة رمزا لذاته فيقول :

هبطت عليك من(١) المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع
ان كان أهبطها الاله لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لاشك ضربة لا ذب لتكون سامعة لما لم تسمع

---

(٢) تقلد زينة : أراد الطوق . لزاما لا يفارقه . وأراد القمرية .

(٣) الصدح : رفع الصوت ، يقال صدح . يصدح صدحا وهو مشترك .

(١) ابن سيناء (أبو على) ٩٨٠ ــ ١٠٣٧ : عرف بالشيخ الرئيس ابن سيناء ولد فى أخشنه قرب بخارى وتوفى فى همدان . فيلسوف من كبار فلاسفة العرب وأطبائهم . تعمق فى درس فلسفة أرسطو وتأثر أيضا بالافلاطونية فقد قال بفيض العالم عن الله . كما فعل أفلوطين . له ميول صوفية عميقة برزت فى (الحكم الشرقية) وهى عبارة عن فلسفته الشخصية . ومن مؤلفاته المطبوعة (القانون فى الطب) و (الشفاء) فى الفلسفة ، (والاشارات والتنبيهات) فى المنطق ، (والنجاه) ولايزال قسم من تأليفه مخطوطا فى خزائن الكتب . له فى النفس القصيدة المشهورة ومطلعها .

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وتقود عالمه بكل خفيه | فى العالمين فخرقها لم يرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها | ثم انطوى فكأنه لم يلمع

يرمز « ابن سينا » بالحمامة ــ الورقاء ــ الى النفس ، لأنها اذا ذكر الهبوط لا يحسن أن يذكر الا لهذا الطائر •

ولما كانت الجواهر الروحية بالقياس الى الموجودات المادية موصوفة باللطف ، كان بينها وبين الطير (٢) خاصة الحمام ــ علاقة شبه ــ فى هذا الوجه •

***

وقد زهد « أبو العلاء » ، آخر شعراء ذلك العصر وأعظمهم ، فى الحياة بعد تأمل ونظر طويل فى الوجود ، واعتزل الناس وغادر بغداد ولزم منزله فى المعرة • وخالف « أبو العلاء » أهل عصره ، وعارضهم بجرأة فكرية نادرة فى كثير من أفكارهم ومعتقداتهم الدينية والاجتماعية ، وجمع شعره فى « اللزوميات » التى يقال ان الشعر العربى قد دخل بها فى طور جديد من حيث النظر الى الطبيعة والمخلوقات •

يقول أبو العلاء :

غير مجد فى ملتى واعتقادى | نوح باك ولا ترنم شاد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت | على فرع غصنها المياد

ويمعن أبو العلاء فى « رسالة الغفران » ، أشهر أعماله ، فى لوم أهل عصره على التأثر لبكاء الحمامة وغناء البلبل • يقول « أبو العلاء » « لابن القارح » :

---

(٢) لعب الطير دورا محوريا فى كتب التصوف حتى لتحتاج الى فصول مطولة سواء عند (فريد العطار) فى كتابه (منطق الطير) أو عند (محى الدين بن عربى) فى كتابه (عنقاء مغرب) وغيرهم كثير •

« وهل يصور لعاقل لبيب أن الغراب الناعب صدح بتشبيب ، وأن العصافير انطائرة بأجنحه ، كعصافير المنذر الكائنه للتجنحة ، وكيف يظن الظان أن للطائر أساجيج حمامة وأنه الأخرس من الدمامة ، فبعد أن زعم ان الحجر متكلم ، وانه عند الغراب متألم ومن التمس من اللغام كسوة ، فانه لا يجد أسوة » .

***

وان كان هناك من لا يأبه بالطير ويخالف سنة الشعراء فيه ، فقد توفر للطير في ذلك العصر من يترجم لها وعنها ويستوحيها ويتمثلها ، حتى أن « أبو القاسم عباس بن فرناس » الأندلسى من موالى بنى آمية ، وكان فيلسوفا شاعراً ، وله علم بالفلك ، وقد اتهم في عقيدته ، قد حاول الطيران بأن صنع لنفسه جناحين من الريش ثبتهما فى جسده بالشمع . يقول عنه الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى فى كتابه « نفخ الطيب فى غصن الأندلس الرطيب » : « احتال فى تطير جثمانه وكسا نفسه بالريش ، ومد له جناحين ، ولم يدر أن الطائر انما يقع على زمكيه ، ولم يعمل له ذنبا » .

ويذكر الدكتور احسان عباس فى كتابه عن الأندلس : أن الأندلسيين كانوا يعارضون المخترعين والعلماء ومن أشعارهم المعارضة قول مؤمن بن سعيد الشاعر فى طيران ابن فرناس .

يطم على العنقاء فى طيرانها   اذا ما كسا جسمانه ريش قشعم

***

وفى أواسط العصر العباسى الرابع ، نبغ طائفة كبيرة من الفلاسفة والأطباء والأدباء منهم « ابن حزم » الذى يثبت فى كتابه « طوق الحمامة » ، أن التراث العربى تناول أدق الموضوعات بأرق لغة ، وأن فى هذا التراث محاولات مبكرة عبقرية لما يعرف اليوم بعلم النفس ،

ومن يقرأه يدرك طواعية اللغة العربية للتعبير عن أدق الخلجات ، وأن ما يقال عن قصورها ليس الا قصورا من متكلمها فى التعرف عليها والألفة بمفرداتها وتراكيبها .

ومن الغريب أن ينكر كثير من الكتاب الذين كتبوا عن « ابن حزم » نسبة كتابه « طوق الحمامة » الى « الحمامة المطوقة » فى « كليلة ودمنة » ، ونسبته الى كتاب « الزهرة » لأبى بكر محمد بن أبى سليمان الأصفهانى ، مستدلين بذلك على أن « طوق الحمامة » كتبه « ابن حزم » بتكليف من صديق له ، طلب اليه أن يصنف رسالة فى صدق الحب ومعانيه وأساليبه وأغراضه وما يقع فيه ، وله على سبيل الحقيقة ، وكتاب « الزهرة » هو الآخر وضعه مؤلفه تحقيقا لرغبة صديق .

ويقول الدكتور عبد الكريم خليفة فى كتابه « ابن حزم الأندلسى حياته وأدبه » وأكبر الظن أنه استوحى اسم « طوق الحمامة » من الباب الثالث والثلاثين فى نوح الحمام أنس للمتفرد المستهام من « الزهرة » حيث يورد المؤلف كثيرا من القصص والأشعار عن طائر الحمام وما يدور فى عالمه .

مطوقة لا تفتح الفم بالذى تقول وقد هاجت الى الشوق أجمعا
تؤلف أحزانا تفرقن بالهوى اذا وافقت شعب الفؤاد تصدعا

ومنها :

مطوقة طوقا ترى بفصوصه روائع ياقوت فهن فصول

وقال آخر :

يهيج على الشوق نوح حمامة دعت شجوها فى أثر الف تشوقا
دعت فبكت عينا محب لصوتها وفاض لها ماء الهوى فترقرقا

ومن أشعار « ابن حزم » فى طوق الحمامة التى تصور عذاب المحب الكتوم :

دمـــوع الصـب تنسـفك وســتر الصـب ينهتــك
كـأن القـلب اذ يبــدو قطـــاه ضمهـــا شــرك
فيــا أصحابنـــا قولـــوا فـــان الــرأى مشــــترك
الــى كــم ذا أكاتمـــه ومـــالى عنـــه مشـــترك

***

وقد حظى الطير فى الأمثال الشائعة ، على غرار الشعر وفنون الكتابة عامة ، بنصيب موفور • وليس أبلغ من الأمثال تعبيرا عن القيم الاجتماعية والفكرية السائدة وصياغة لها •

يقول « أبو قيد السدوس » أنها : « وشى الكلام وجوهر اللفظ وحلمى المعانى ، فهى أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ولا عم عمومها ، حتى قيل أسير من مثل ، وقد ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه الكريم وضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الشريفة •

كان التصور السمعى عند العربى أكثر امتيازا ، وهنا يكمن الخطأ فى مقارنة الثقافة العربية باليونانية مثلا • فالبيئة الصحراوية التى نشأ فيها العربى الجــاهلى جعلت منه شخصية عصبية المزاج سريعــة الغضب عاشقة للحرية الكاملة • وقد تميز العربى بطلاقــة اللسان وحضور البديهة واتزان الطبع ، لا يسمح أن يتجاوز حدود الحقائق ، وكما يقول الأستاذ أحمد أمين : « يطوف حول الشيء فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد » •

اتخذ هذا التصــور عند العرب مصدره من أصــوات الطيور

حسب درجات هذه الأصوات وأوزانها المختلفة ، صعودا وهبوطا ، وما قيل من أن العرب تصف طائر الفاختة بالكذب ، فذلك لأن صوتها يكاد ينطق « هذا أوان الرطب » تقول ذلك مع أن تمر النخيل لم ينضج بعد .

وقد ظهر هذا التصور جليا فى الأمثال حيث يورد « الدميرى » فى كتاب « الحيوان » أن « كعب الأحبـار » حكى أن سـليمان ، عليه السلام ، مر على بلبل فوق شجرة يحرك ذيله ورأسـه ، فقـال لأصحابه : أتدرون ما يقول هـذا البلبل ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : يقول أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء » ، ومر بهدهد فأخبر أنـه يقول : « اذا نزل القضـاء عمى البصر » أو « من لا يرحـم لا يرحم » . والورشان يقول : « لدوا للموت وابنوا للخراب » ، والطاووس يقول : « كما تدين تدان » ، واذا صاح العقاب يقول : « البعد عن الناس راحة » ، والقطاة تقول : « من سكن سلم » ، والنسر يقول : « يا ابن آدم عش ما شئت فأنت ميت » .

فقد قيل أن لقمان بن عاد عندما اختار طول عمره .. فنودى أن قد أعطيت ما سألت .. ولا سبيل الى الخلود فاختر ان شئت بقاء سبعة أنسر سحم .. فبينما يزور ذات يوم جبل أبى قبيس بمكة سمع مناديا لا يرى شخصيته وهو يقول : يا لقمان بن عاد المغرور ببقـاء النسور . « اصعد الى رأس واختر بعدد قدرك المقدور سبعة نسور » فطلع رأسى ثبير فاذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهمـا ، فاختار لقمان أحد الفرخين . ثم عقد فى رجله سيرا ليعرفه وسـماه المصون ، ثم قال المصون الخالص المكنون من البيت المصون ومحظور السنون وغيظ العيون والباقى بعد الحظون الى آخر الدهر الخؤون ، فكان لا يغفل عن اطعامه حتى تم طائرا مسخرا يدعوه باسـمه للمأكل فيجيبه حتى أدركه الكبر فضعف فلم يطق أن يطير ــ فبينما لقمـان

يطعمه لحما يضعه له قد غص ببعض منه فخر ميتا ، فجزع لذلك جزعا شديدا وقال هذا بلاء ووقعت الواقعة مثل ذلك مع كل نسر مثله • عوض ، وخلف ، ومغيب وميسره الى أن جاء دور السابع لبد •

وفسر أبو عبيده أن اللبد فى لغة العرب معنى « الدهر » فلما وافى أجل لقمان وبلغ الميقات أقبل ذلك النسر « لَبد » حتى وقع على شجرة الرطب فدعاه ليطعمه من لحم قد يضعه فأراد لبد • آن ينهض فلم يطق أن يطير فأقبل عليه فزعا حتى قام تحته وقال : انهض لبد أنت الأبد لا تقطع بى الأمد فلم يطق لبد آن ينهض وتفسخ فهال ذلك لقمان هولا عظيما ووقع موته منه موقعا جسيما ، فأنشأ لقمان يبكى نفسه •

ثم سقط لبد ميتا ، فجاء لقمان ينهض فاضطربت عروق ظهره وخر ميتا •

أصبحت هذه الأصوات والأقوال أمثالا فقدت الصلة بمصدرها واكتسبت طبيعة الحكم •• واذا أحصينا أمثال الطيور فى اللغة العربية والأمثال فى اللهجات(*) لوجدنا أن موقف العربى من الطيور يتردد بين مستويين من الشعور ، فهو يحسده جهارا ويمجده فى سره . يتشاءم به حينا أو يتفاءل به ويستلهه حينا آخر •

(*) « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال » لأبى عبيد البكرى .
٢ ـ من أمثال العرب :
(أ) محمد عبد الغنى حسن .
(ب) عبد السلام العشرى .
٣ ـ كتاب الأمثال : لأبى مؤرج عمر السدوسى
٤ ـ كتاب الأمثال العامية : أحمد تيمور .
٥ ـ من الأمثال العامية : خالد سعود الزيد .
٦ ـ الأمثال الدارجة فى الكويت : عبد الله آل نورى .

ولقد اختار العربى أن ينطق الطيور ـ خاصة ـ بالحكم حتى تكون أخباره مقرونة بذكر عواقبها والمقدمة مضمومة الى نتائجها .. لقد حملت الطيور على أجنحتهـا ، فى نظر العرب ، حـكم الوجود وأضمروا لها بسبب ذلك قدرا كبيرا من الحسد وربما كان أكثر الأمثال تأكيدا لذلك هو المثل القائل ما طار طيرا وارتفع الا كما طار وقع .

ان العربى يغبط الطائر لصفاته التى اختصـه الخالق بها دونه ، وكذلك يغبط أيضا من يملك ما يفتقده .

نعم الانسان عامة يدرك ولو بصورة غامضة أن الطائر هو الكائن الذى حقق مع الطبيعة قدرا أكبر من التوافق .. ولكنه يخفى هـذا السر ـ حسدا ـ حتى عن نفسه ، ولكن فلتات لسانه « أو الأمثال التى اتخذها علاجا لحسده تشى دائمـا به .. فالتعبيرات المصرية العاميـة « يسير كالطاووس » أو « يسير مثل قنصل الأوز » أو « على رأسه ريشة » للتدليل على العظمة ـ وعلى « الطائر الميمون » عن الأنباء السعيدة أو « كل ما يأتى فى الريش بقشيش » للطف القضاء ، « طار على جناح السرعة » لو ميض السير كالبرق .

أما تعبير « مريش » للدلالة على الغنى فمستقى من أصل تاريخى وهو حكاية عصافير المنذر . وهى نجائب كانت للنعمـان بن المنذر تسمى تاريخيا بالنوق العصفورية : وقالوا ان النعمان أمر للنابغة بمائة من عصافير .. وأن حسان قال : « ما حسدت أحدا الا حسدى للنابغة حين أمر النعمان بمائة ناقة بريشها من عصافيره .. أى عليها ريش .. ليعلم أنها من عند الملوك .

شىء آخر تكشف عنه الأمثال المتعلقة بالطيور أنه ما من انسان الا وله فى مملكة الطيور شبيه فى صفاته المميزة له . يقولون فى مصر : « زى الحمام يغوى أبراج أبراج » « زى الفرخ رزقه تحت رجليه »

و « زى فرخ الهدهد كل ما يقرب يبعد » و « زى النعامة لا طير ولا جمل » ... الخ .

ومن أمثال الطيور التى تضرب للسخرية واليأس من نفع المرء لغيره : « لو كان فيه الخير ما كان رماه الطير » « واذا لم ينفعك البازى انتف ريشه » .

أما ما يضرب كرمز على فوات الأوان فمنهـا : « طارت الطيور بأرزاقها » ، ويضرب المثل الكويتى « وسخنا المـاى، وطار الديك » لمن يستعد لأمر من الأمور ، ولكن ينقص استعداده ذلك الشىء الذى أعد له عدته . « وعقب ما طار طيره قال سبيل » ، يضرب لمن يفلت منه الشىء فيدعى أنه أفلتــه كرما منه ، و « ردينــا على طير يللى » ، ويضرب لمن يأسف على ما فات ولمن يذكر ما يود أن ينساه ، وأيضـا لمن يهب شيئا ثم تراوده نفسه لاسترداده .

وفى الجزائر يقولون : « زى الخفاش يلاقى الطير يوريليه جناحاته ويلاقى الحيوان يوريليه أسنانه » ، ويضرب الرجل ذى الوجهين الذى تتغير مواقفه حسب مصلحته .

أما ما ذكر من أمثال الطيور فى القرآن الكريم ، فما ورد على لسان عباد النبى ياسين ، (يسوع أو يشوع) عند اليهود : « انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » . قالوا : « طائركم معكم ، ائن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » . والتطير هنا بمعنى التشاؤم ، وقد ورد ذكر « التطير » فى « لسان العرب » بمعنى الخفة والطيش أيضا يقول ابن منظور : « فى فلان طيره وطيروه » . وقال الكميث .

وحلمـك عز اذا ما حلمت وطيرتك الصاب والحنظل

وكادت الأمثال العربية التى يضربونها للدلالة على التشاؤم تنحصر فى ذكر الغراب . جاء فى كتاب « بلوغ الأرب فى معرفة أقوال العرب » « للسيد محمد شكرى الألوسى » . من مذاهب العرب التشاؤم بالغراب ونحوه من الطيور وسائر الحيوان ، فقد كانوا يضربون بالغراب مثلا فى التشاؤم فقالوا فلان أشام من غراب البين . ولزمه هذا الاسم ، لأن الغراب اذا بان أهل الدار للنجعة اى طلبوا الكلأ فى موضعه وقع فى بيوتهم يلتمس ويتقمم فتشاءموا به وتطيروا منه اذ كان لا يعترى منازلهم الا اذا بانوا « فسموه غراب البين [1] » . ثم كرهوا اطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر والطيرة . وعلموا آنه نافذ البصر صافى العينين حتى قالوا : « أصفى من عين الغراب » . كما قالوا « أصفى من عين الديك » وسموه الأنور كناية . كما كنوا الأعمى أبا البصير .

وذكر بعض أهل المعانى أن نعيب الغراب يتطير منه لذاته وليس للجهة ونعيقه يتفاءل به . يقول جرير .

ان الغـراب بما كرهت لمولـع بنوى الأحبـة دائم التشحـاج
ليت الغراب غداة ينعب دائبـا كان الغـراب مقطـع الأوداج

واذا كان لدى العربى العذر فى التشاؤم بالغراب كطير ينذرهم ويذكرهم بالترحال والغربة عن الديار ، فلماذا أخذوا جمع الطيور بجريرة فرد منهم فى قولهم : « من لى بالسانح بعد البارح » .

يورد « ابن منظور » فى الجزء الثالث من قاموس « لسـان العرب » تحت عنوان « البارح والسارح » : « البارح ما مر من الطير والوحش من يمنك الى يسارك ، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن

(1) لذلك اشتقوا كلمتى الغربة والاغتراب من الغراب .

ترميه حتى تنحرف ، والسانح ما مر بين يديك من جهة يسارك ، يضرب للرجل يسىء الى الرجل فيقال له : انه سوف يحسن اليك فيضرب هذا المثل . وأصل ذلك أن رجلا مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح ، فقال : « من لى بالسانح بعد البارح » .

أما الطيور التى لا يختلف العرب على التفاؤل بها فهى الهدهد والحمام ، قال الشاعر .

تغنى هدهـد فـوق بانـة   فقلت هـدى يعدو به ويروح

وقالوا عقاب قلت عقبى من النوى   دنت بعد هجر منهم وتروح

وقالوا حمـام قلت حم لقاؤها   وعادت لتاريخ الوصـال تفوح

كل ذلك يوضح أن قاموس الطيور على ألسنتنا الآن .. والذى رسمه هؤلاء الحكماء والأنبياء فى دقة رائعة وحس سيكولوجى بديع كاشارة على ما تمتاز به الطيور فى نفس الانسان من حذق وبراعة . وجريانه مجرى الحديث اليومى ليس ابن لحظته .. وانما هو تراث متوارث منذ بداية الوجود .

الفصل الرابع

فى الأحـــلام

رمز المـــاضى والحاضر ودليل المستقبل

« ودخل معه السجن فتيان قــال
احدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر
انى أرانى احمل فوق راسى خبزا تأكل
الطـير منه نبئنا بتـأويله انـا نراك من
المحسنين » .

القرآن الكريم (سورة يوسف ٣٦)

الطيـور والأحـلام

اذا كانت الطيور قد تمكنت بقدراتها المتكاملة أن توافق الانسان بالحكمة • فى كثير من أمثاله التى يضربها فى يقظتـه •• فى مجالاته المختلفة ومناسباته المتعددة •• فانها ـ الطيور ـ كانت أيضا مثله فى نومه •• وهو ما نقصد به الأحلام •

عند بدء الوجود •• كان الحلم ألصق شيء بالانسان وتعتقد كثير من الشعوب البدائية الى الآن •• أن النائم تطير روحـه فى النوم ، وهى فى لون أخضر •• فترى حوادث كثيرة فـاذا رجعت الى البدن تذكرت ما رأته •

ومن ثم فان رحـلة النائم تكون فى ذاتها محفوفـة بالخطر •• لأن الروح عندما تفارق الجسم تهيم متجولة بعيدا عنه •• فـاذا اتفق وحدث شيء للروح فلن يستيقظ النائم وقد يصاب بالمرض •• ولذلك يحرص الكثيرون على عدم ايقاظ النائم بعنف خشية أن يكون مستغرقا فى أحلامه وروحه هائمة •• فاذا استيقظ فجأة فربما لا تتمكن الروح من العودة الى الجسم فى الوقت المناسب •

ومن الشائع بين الافريقيين أن الروح اذا غادرت الجسم أثنـاء النوم وتعذر عليها العودة فى الوقت الملائم •• فان العرافين والسحرة المتخصصـين قد يستطيعون اسـتعادة الروح الى الجسـم بطقوس وممارسات شتى •

وقد كانت جميع الشعوب القديمة فيما نعلم ترى فى الأحـلام

دلائل كبرى .. وتعلق عليها أهميـة فى استطلاع الغيب والتماس الفأل والطيرة يضاف الى هـذا أنه يحكى عن الشخصيات التاريخية العظيمة أنهم استمدوا من الأحلام تلك القوة التى أتاحت لهم القيام بأعمال خطيرة .

واذا بحثنا عن دور الطيور فى أحلام حضارة قديمة مثل الحضارة البابلية .. وهى حضـارة انسان قبل أن تكون حضارة ملوك لوجدنا الطير يحتل مكانة كبيرة بين ملامحهـا التى وردت الأحـلام فيها .. ولعل أهم ما فى أسطورة جلجامش ، الحلم الذى حلم به .

كان « جلجامش » ملكا بابليا ، حكم فى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد ، ولكن الملحمة المعروفة باسمه لم تخلد بسبب ذلك فحسب ، وانما لأنها تمثل مأساة الوجود فى قمتها ، وقد انتقلت كثير من عناصر الملحمـة المـأساة الى أساطير الاغريق وغيرهم ، وما زالت حتى الآن مصدر كثير من الأعمال الفنية .

كان « جلجامش » وصاحبه (أنجيدو) مغامرين وكان كل منهما يتمتع بقوة خارقة الا أن (أنجيدو) يموت شابا فيتحول عشق المغامرة عند « جلجامش » الى رغبة عارمة وسـعى دائب للخـلود . ويصيب الفشل « جلجامش » فيلجأ الى السحر ، يستحضر به روح « أنجيدو » ليقف على سر الموت الغامض ، ويعرف من ذلك أن الجسد وحده هو الذى يموت ، ويعود قرير العين مرتـاح البال الى قصره ، ويستلقى ويغيب فى نوم أبدى ، وقبل ذلك كان « جلجامش » قد رأى حلمـا هو موضوع الملحمة الرئيسى ــ رأى أن النجوم تتساقط حوله ثم تتمثل أمامه رجلا حاول أن يرفعه ولم يتمكن لثقله ويحوطه شـعب مملكته ويقبضون على الرجـل ويحملونه الى أمه وحينما تراه الأم تقرر أن تتخذ منه ابنا وتقدمه الى جلجامش أخا له فى كفاحه وتفسر

ذلك بأن بطلا سيظهر وينافسه وبالرغم من أنه سيغلبه فسوف يتخذه أخا وقد تحقق ذلك بالفعل فقد ظهر « أنجيدو » ووجده « جلجامش » مثقلا بالهموم لأنه كان هو الآخر قد رأى حلما أزعجه :

رأيت أن السماء تبرق وأن الأرض تهتز ورأيتنى أقف وحيدا أمام مخلوق مكتئب الوجه وفى لحظة خوف قذف بى بعيدا فى حفرة ثم حولنى الى شكل آخر واستبدل بذراعى جناحين وقال : الآن طر بجناحيك بعيدا حتى تصل الى طريق لا عودة لانسان منه ، فسر فيه وهناك يعيش الناس فى ظلام كامل لأنهم لا يستعينون فى الرؤية بالضوء .

طمأن جلجامش صديقه وقال له : غدا نقيم الطقوس ونذبح الضحايا ونتوسل الى الاله أن يحول بين أرواح الموت وبينك يا أنجيدو ، وذهبا لملاقاة قوى الطبيعة ومنازلتها وذات مساء استيقظ « أنجيدو » من نومه مذعورا ، ودخل على جلجامش وقال له : لقد تدبرت الالهة أمرها يا جلجامش وأحسبها أنها تدبر هلاكى .. ان حلمى الليلة كان مزعجا لقد أنبأنى بخطر عاجل . فقد أبصرت نسرا عظيما هوى من السماء ثم حملنى فى الفضاء عاليا وظل يصعد بى الأجواء ويقول : الق ببصرك الآن الى أسفل كيف ترى الأرض وكيف ترى البحر ؟ فلما نظرت وجدت البحر كالقصعة والأرض كقطعة من العجين وحينئذ تركنى أسقط من بين مخالبه فهويت من أعلى الى الأرض محطما . وتملكت « أنجيدو » الحمى ورقد طريح الفراش ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع فتح فمه وتحدث الى صديقه جلجامش قال : صديقى لقد أرادنى اله الحياة لنفسه . انه يريد أن يصيبنى بسهمه وأنا لم أصل الى منتصف المعركة ولفظ أنفاسه الأخيرة .

وظل جلجامش راقدا بجانب صديقه يبكيه ستة أيام ثم حفر له فى

اليوم السابع قبرا ودفنه وخرج هائما على وجهه فى البرارى باحثا وراء اللانهائى .

من هذا العرض نرى أن الطيور تزاحم أبطال الملحمة من حيث أهميتها فى التعبير عما قصــدت اليه وكأن الملحمة تقول « آن الطير هو الرمز الكامل للحرية غاية الانسان العليا ، وأنه متفوق أبدا عليه .

وتمتلىء صفحات التاريخ وكتب التراث بأحلام الأنبياء والقادة التى اتخذت من الطيور رمزا لها .

***

قيل ان الاسكندر الأكبر كان يصحب معه فى فتوحاته أشــهر مفسرى الأحلام فى عصره ومن أحلامه أنه رأى أثناء حصــاره لمدينة (صور) وكان قد عزم أمره على رفع الحصــار عنها بعد مقاومتهــا العنيدة طيورا وحيوانات ترقص احدى رقصات النصر . فلما قص رؤياه على المفسرين قالوا له : ان تلك بشرى النصر على المدينـــة فأمر بالهجوم وفتحت أبوابها له .

وفى السجن رأى أحد رفاق يوسف عليه السلام وكان ساقيا لفرعون ــ أنه يعصر خمرا فى كأس الملك . وقال آخر وكان خبازا أنه رأى خبزا فوق رأسه تأكل الطير منه ، فقال يوسف « يا صاحبى السجن أما أحدكمــا فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتــأكل الطير من رأسه . قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » .

ورأى الأمير نصر بن أحمد ، أحد أمراء بنى أمية ، كأنه جالس على سريره ، فجاء غراب ونقر قلنسوته فسقطت عن رأسه . وقص الأمير رؤياه على « حيوه النيسابورى » فقال له : سيخرج عليــك

رجل يزاحمك فى ملكك ثم يرجع الأمر اليك فعرض له أن أبا « اسحاق السامانى » خرج وشوش عليه الأمر ثم عاد اليه .

ومن أحلام العامة حكى أن رجلا أتى سعيد بن المسيب فقال : رأيت على شرفات المسجد الجامع حمامة بيضاء فعجبت من حسنها فأتى صقر فاحتملها ، قال : ابن المسيب ان صدقت رؤياك تزوج الحجاج . بن يوسف الثقفى بنت عبد الله بن جعفر .. فما مضى وقت طويل حتى تزوجها فقيل له : يا أبا محمد بم تخلصت الى هذه . قال لأن الحمامة امرأة ، والبيضاء نقية الحسب فلم أر أحدا من النساء أنقى حسبا من بنت الطائر فى الجنة ونظرت فى الصقر فاذا هو طائر عربى ليس هو من طيور الأعجام ولم أر فى العرب أصقر من الحجاج بن يوسف .

وأتى رجل « ابن سيرين » شيخ المفسرين وقال له : رأيت كأن غرابا على الكعبة فقال ابن سيرين : سيتزوج رجل فاسق امرأة شريفة . فتزوج الحجاج بنت عبد الله بن جعفر .

وقد وضع « ابن سيرين » أول كتاب فى تفسير الأحلام ، وخصص الباب الخامس والثمانين منه لتفسير أحلام الطيور . والتزم « ابن سيرين » فى تفسير هذه الأحلام بما جاء فى القرآن الكريم والتوراة والأساطير ثم ما تعنيه الحروف النبطية وحساب الجمل كما يقول .

ومن الدلالات التى يؤكدها « ابن سيرين » أن الطيران فى المنام سفر ، فان كان على القفا فهو فى راحة . والطيران لغير المسافر بطالة ومن طار من سطح الى سطح فانه ينتقل من رجل رفيع الى رجل رفيع، وأى السطحين كان أعلى فهو أرفع قدرا وأكثر جاها . وقيل السطح

امرأة فمن رأى ذلك فانه ينتقل من امرأة الى امرأة أخرى • والمرأة اذا رأت أنها طارت من دارها الى دار رجل تعرفه فانها تتزوج بذلك الرجل • ومن طار من دار يعرفها الى دار لا يعرفها ، فانه يموت ، لأن الدار غير المعروفة دار الآخرة ، والمسجون اذا طار فى منامه فانه يخرج من السجن ، ومن رأى أنه يطير فلا يقدر أو أنه يطير ورأسه نحو الأرض ورجلاه نحو الهواء دل ذلك على شر كثير يعرض له • ومن رأى أنه يطير من مكان الى مكان وكأن طيرانه فى عرض السماء فانه يمشى راكبا أو راجلا الى موضع يعهد المشى اليه أو يسافر فى سفره وينال رفعة بقدر ما ارتفع من الأرض فى طيرانه ، وربما كان الطيران طلبا للعلم لطالبه •

ثم ينتقل ابن سيرين الى الطائر المجهول للحالم فيقول : الطائر المجهول يدل على العمل لمن رآه على رأسه وعلى كتفه وفى حجره ، لقوله تعالى — « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » أى عمله فان كان أبيض فهو صاف ، وان كان كدرا ملونا فهو عمل مختلف غير صاف ، الا أن يكون عنده امرأة حاملا ، فان كان طيرا ذكرا فانه غلام •• وان كان أنثى فبنت •• فان قصه عاش له وبقى عنده وان طار كان قليل البقاء • والطائر المجهول دال أيضا على ملك الموت اذا التقط حصاة أو ورقة أو نحو ذلك وطار بها الى السماء من بيت فيه مريض •

وأفضل الطيور فى رأى « ابن سيرين » هى طيور الماء لأنها أخصب وأقل عائلة ومن أصابها أصاب مالا وغنى لقوله تعالى : « ولحم طير مما يشتهون » والطائر رجل من الرجال بمنزلة ذلك الطائر من الطيور فى قدرته وصلاحه وعظمته وقوته وريشه وطيرانه وارتفاعه فى الجو ، ومن رأى أنه يأكل لحم البط فانه يرزق مالا من قبل الجوارى ويرزق امرأة موسرة ، لأن البط تحب الماء ولا تمله • وقيل الجوارى

رجال لهم خطر وأصحاب ورع ونسك وعفة . ومن كلمته البط نال شرفا ورفعه من قبل امرأة . هذا عن طيور المـاء .

ويقول ابن سيرين ان الحمامة رمز المرأة الصالحة التى لا تبغى لزوجها بديلا ، وأفضل الحمام « الخضر » ومن رأى أنه يملك منها شيئا كثيرا لا يحصى أصاب غنيمة ، وبيضها بنات وجوارى وبرجهـا مجمع النساء وفراخهـا بنون أو جوارى . ويعبر هديل الحـام عن معاتبة رجل لامرأة والبيض منها دين والخضر ورع ، والسـود منها سادات النساء والبلق أصحـاب تخاليط ، ومن نفرت منه حمامة ، ولم تعد اليه فانه يطلق امرأته أو تموت ومن كان له حمائم فان له نسوة وجوارى لا ينفق عليهن . فان فض جناح حمامة فانه يحلف على امرأته أن لا تخرج أو تحبل امرأته ولا تخرج الا بعد أن تلد ، والحمامة امرأة عربية ومن ذبحها افتض امرأة بكرا ومن أكل لحمها أكل مال امرأة ومن رأى حمامة انسان فهو رجل زان .

وحكى أن رجلا أتى « ابن سيرين » فقال : رأيت كأن امرأتى ناولتنى طاووسا . فقال : لأن صدقت رؤياك لتشترين جارية ويرد عليك من ثمن تلك الجارية من الديون ستة وأربعين درهما ، ويكون ذلك برضـا امرأتك ، فقال الرجل : رحمك الله لقد كان أمس على ما عبرت . وقيـل « لابن سـيرين » من أين عرفت ذلك ؟ قـال : الطاووس الجارية وطاووس من الديون بكلام الانباط وأخرجت عدد الدراهم من حروف الطاووس من حساب (١) الجمل « الطاء تسعة » « وللألف واحد » ، « الواو ستة » ، « والسين ستين » .

---

(١) حساب الجمل : طريقة يستخدمها المنجمون وتستبدل فيها الحروف بالأرقـام (علماء الفلك العرب) عملوا عكس ذلك ، فاستبدلوا الأرقام بالحروف فى الزيجـات والحسابات فالحرف أ يمثله الرقم ١ والباء يمثله رقم ٢ وهكذا طبقا لترتيب حروف (أبجد هوز) .

وجاءه رجل يدعى « أبو عون » وقال له : رأيت كأن ديكا كبيرا صاح بباب بيتك هــذا • فقال له : لأن صدقت رؤياك لتموتن أنت بعد أربعة وثلاثين يوما • وكان للرجل خلصان وندماء على الشراب • قال : فرفع ذلك كله وتاب الى الله تعالى من يوم الرؤيا •• ومات فجأة كما قال ابن سيرين •• فقيل لابن سيرين كيف استخرجت ذلك قال من حساب الجمل أيضا • وحسبها كذلك •

وعن النسر يقول « ابن سيرين » انه أقوى الطير وأرفعهــا فى الطيران واحدهابصرا وأطولها عمرا • فمن رأى النسر غاضبا عليه غضب عليه السلطان أو ركله رجلا ظلوم ، لأن سليمان عليه السلام ، وكل النسر بالطير فكانت تخافه ، فان ملك نسرا مطواعا أصــاب سلطانا عظيما يملك به الدنيا أو بعضها ويتمــكن من ملك ســلطان عظيم ، فان لم يكن مطواعا وهو لا يخافه فانه يعلو أمره ويصير جبارا عنيدا ويطغى فى دينه لقصــة النمرود ، فان طار فى السماء ودخل فيها فانه يشرف على الموت ثم ينجو ومن أصاب من ريشه أو عظامه أصاب مالا عظيما من ملك عظيم فان سقط عن ظهره أصابه هول وغم وربما هلك فان وهب له فرخ نسر رزق ولدا ذكرا فــان رآه نهــارا فانه مرض يشرف منه على الموت فان خدشه النسر طال مرضــه • وقيل النسر خليفة وملك كبير يظفر به من ملكه ولحم النسر مــال وولاية ومن تحول نسرا طال عمره •

وسباع الطيور كلها مثل البازى والشاهين والصقر والعقــاب والنسر والباشق تنسب للسلطان والشرف • أما الطاووس فالذكر منها ملك أعجمى حسيب ، والأنثى منها امرأة أعجمية حسناء ذات مال وجمال ، وقيل ان الطاووس يدل على أناس صباح ضاحكى السن • والديك فى أصل التأويل عبد مملوك أعجمى أو من نســل مملوك ،

وكذلك الدجاج لأنهم عند ابن آدم مثل الأسير لا يطيرون ويكون رب الدار من المماليك كما أن الدجاجة ربة الدار من الخادمات والجوارى ، والديك أيضا يدل على رجل له علو همة وصوت كالمأذن والسلطان الذى هو تحت حكم غيره لأنه مع ضخامته مع تاجه ولحيته وريشه داجن لا يطير فهو مملوك • وقيل أيضا ان الديك رجل جلد محارب له أخلاق رديئة يتكلم بكلام حسن بلا منفعة ومن ذبح ديكا فانه لا يجيب المؤذن • وقال البعض ان من رأى انه تحول ديكا مات وشيكا • والديوك الصغار مماليك أو صبيان وكذلك الفراريخ الاناث أولاد وجوارى أو عبيد أو وصائف •

***

واذا كانت الأحلام ومنها أحلام الطيور من المحاور الرئيسية فى الملاحم والحكايات الشعبية باعتبار انها تعبر عن المستقبل وتنبىء بما سوف يحدث فان الأحلام عند « فرويد » اتخذت عكس هذا الاتجاه المستقبلى •

يقول الدكتور « سولومون فريهون » ثلاثة غيروا وجه التفكير الانسانى هم : ماركس ، وفرويد ، وأنشتين • واذا كان «كولومبوس» قد اكتشف فى أواخر القرن التاسع عشر عالما جديدا آخر بدراسته للاشعور •

أمضى فرويد سنوات عديدة وهو يدرس اللاشعور عند مرضاه ودون فى كتابه تفسير الأحلام ما وصل اليه من نتائج • وقد أرسى به دعائم مدرسة التحليل النفسى الذى بدأ كطريقة لعلاج بعض الاضطرابات النفسية ، على أساس وقائع اكلينكية غير تجريبية — ثم تطورت طريقة العلاج الى مدرسة ونظرية ونظام سيكولوجى ، لم يقف أثره عند علم النفس وحده ، بل أحدث انقلابا فى سائر مجالات

النشاط الذهنى من العلوم الانسانية حتى (علم أصول الأجناس) والميثولوجيا (علم الأساطير) •

يقول فرويد أن الأحلام نافذة تطل على الماضى من حياة الفرد ومن التاريخ البشرى وهى تجمع فى أفق واحد بين العقل والجنون •

ويرى البعض ما يقرره فرويد من أن مشكلة الحلم أعظم شأنا مما يبدو للوهلة الأولى وأن من يعقد العزم على أن يزيح الستار عن طبيعته انما يواجه مشكلة طبيعة النفس الانسانية بأسرها • واعتبر كتاب « تفسير الأحلام » سفرا يضم بين دفتيه أخطر الاكتشافات فى تاريخ معرفة الانسان لنفسه حتى شبهه البعض بكتاب « كوبرنيكس » الذى أحدث ثورة فكرية أرست قواعد علم الفلك الحديث • وقد وضع به فرويد أول نظرية متكاملة عن الأحلام •

يبدأ فرويد نظريته عن الأحلام بتحديد وظيفة الحلم فى حياة الانسان البيلوجية أولا • ومن هذه الناحية يرى فرويد أن الحلم يعمل بمثابة حارس للنوم •

فالانسان يحلم حتى يستمر فى النوم ، لأن الرغبات اللاشعورية المكبوتة تحاول دوما أن تنطلق من عقالها لتعبر عن نفسها منتهزة ضعف الأنا أثناء النوم • ويسمح لها الجهاز النفسى فى الشخصية بهذا التعبير أثناء النوم لسبب آخر هو أن الانسان فى هذه الحالة غير قادر على الفعل فجهازه الحركى والارادى شبه مشلول وبالتالى فلا ضرر من أن يترك الرغبات المكبوتة لتعبر عن نفسها من خلال الحلم • ومع ذلك فان هذا التعبير ينبغى أن يكون مقنعا ومختفيا خلف رموز كثيرة بحيث لا تظهر هذه الرغبات اللاشعورية المكبوتة من خلاله فى سفور تام • والدليل على وظيفة الحلم هذه كحارس للنوم ، أنه حينما تفشل عملية الرقابة التى يفرضها الأنا الأعلى على الأحلام فتسفر

الرغبات المكبوتة عن نفسها بشكل ظاهر ، يتحول الحلم الى كابوس ويستيقظ منه الانسان فزعا من هول الرغبات غير المقنعة التى رآها . وهنا يكون الحلم قد فشل فى لعب دوره كحارس للنوم . وبالطبع يستثنى من ذلك الكوابيس التى تنشأ عن عوامل فسيولوجية كسوء الهضم مثلا .

أما وظيفة الحلم بالنسبة لحياة الانسان السيكولوجية فيرى فرويد أن الحلم هو عبارة عن تحقيق رغبة . وبالطبع تكون هذه الرغبات اللاشعورية المكبوتة المحرومة التى تدور حول الجنس أو العدوان غير المقبول من المجتمع ، وحين يسمح جهاز الرقابة المتمثل فى الأنا الأعلى بالتعبير عن هذه الرغبات فى الأحلام يكون ذلك تحت شروط قاسية وفقا لميكانيزمات معينة (سنشرحها بعد قليل) تؤدى فى النهاية الى عملية تعمية وتمويه على حقيقة هذه الرغبات .

فالمحتوى الظاهر للحلم يكون عادة عبارة عن صور مفككة غير مترابطة ولا يحكمها أى منطق بحيث لا نفهم منها شيئا الا اذا حاولنا تكوين صورة عن المحتوى الكامن للحلم بواسطة منهج التحليل النفسى الذى يقوم هنا على عملية التداعى الطليق الذى نحاول به أن نربط بين كل عنصر فى الحلم وبين ما يستثيره من صور وذكريات بالنسبة للحالم .

وعادة ما نعثر على علاقة معينة للحلم بالواقع تتمثل فى السبب الذى أثار هذا الحلم بالذات . وهذا السبب يكون عادة شيئا أو حادثة مرت بنا فى اليوم السابق ، للحلم ويسميها فرويد « بقايا اليوم السابق » . فغالبا ما تكون أحلامنا ذات علاقة بموقف أو شخص أو شىء رأيناه فى الواقع قبل الحلم مباشرة ، ويكون هو الذى أثار هذا الحلم .

ومن الغريب أن معظمنا ينسى أحلامه بعد اليقظة بقليل ، وهـذا من عمل المقاومة التى تحـاول ان تمحو هـذه الصـورة المقنعة من التعبير عن الرغبات المكبوتة المحرومة :

واذا فالتعبير عن الرغبة فى الحلم يسمح به لأنه تعبير هلوسى يتكون من صور مفككة مقنعة لا ضرر منها فى حد ذاتها ، كما أنه غير مصحوب بأى مقدرة على التنفيذ حيث يكون الانسـان فى حالة من الشلل الحركى .

أما عن الميكانيزمات التى يعمل بها اللاشعور فى اخراج الحلم ، فسنجد أنها عكس الميكانيزمات التى يعمل بها الفنان عند اخراج عمل فنى فالأحـلام تعتمـد عـلى ميـكانيزم أسـاسى هو التـكثيف Condensation حيث تظهر الشخصية الواحـدة فى عدة صور بينما فى الفن يكون الميكانيزمات الرئيسى هو التفتت decomeposition حيث يعهد الفنان الى تقسيم الشخصية الواحدة وتوزيعها على عدة شخصيات بحيث يعبر عن الحـدث الدرامى فى عدة خطوط فرعيـة بالاضافة الى الخط الرئيسى .

وتعتمد الأحلام على ميكانيزم آخر رئيس هو الرمزية . فالرموز تستخدم فى الأحلام بكثرة وهى ناتجة من خبرة وتراث الجنس البشرى كله وليس الفرد وحده .

والرموز التى يعنيهـا فرويـد تختلف عما رأينـاه من رموز ابن سيرين فى تفسير الأحلام مثلا . فهى لا تعبر عن المستقبل بقدر ما تعبر عن المـاضى : المـاضى الشخصى للفرد وخبراته وذكرياتـه المكبوتة ، والمـاضى السحيق للبشرية التى تمثل اللاشعور الجمعى الذى نغترف منه جميعا فى أحلامنا ، لنعبر عن خبرات مشتركة مر بها الجنس البشرى كله وبقيت حية فى لا شعور أبنائه جميعا .

وحين نأتى الى الرموز التى تتعلق بالطيور عند فرويد والفرويديين سنجد أولا ما ترمز اليه عملية الطيران فى الأحلام . ولو تعمقنا دراسة تكوين الأحلام الطائرة فسنخرج بمعلومات قيمة عن المراحل الأولى من التطور العقلى .

ان كل فرد يلخص فى طفولته نشأة السلالة البشرية وتطورها بصورة مختصرة فالعهد البدائى يمثل طفولة السلالة البشريه .

ويعتقد فرويد أنه ليس من المحال أن نميز بين العمليات النفسية الكامنة التى تنتمى الى الأيام الأولى فى حياة الفرد وبين تلك التى تمتد أصولها فى طفولة السلالة نفسها .

من هذا يلوح لى أن الرمزية مثلا هى أسلوب لا يتعلمه الفرد اطلاقا ولا يكتسبه بل يمكن اعتبارها ميراثا من مواريث السلالة .

ويجيب فرويد على السؤال : لماذا يحلم الكثيرون أنهم يطيرون؟ يجيب قائلا : ان الطيران فى الأحلام ما هو الا تعبير عن رغبة أخرى نستطيع ادراكها بعبور أكثر من جسر واحد من الكلمات والأشياء . اننا نقول : للأطفال المحبين للاستطلاع ان طائرا كبيرا كاللقلق هو الذى جاء بهم الى هذا العالم . وقد كان القدماء يرسمون القضيب بأجنحة والتعبير العام فى اللغة الألمانية لنشاط الرجل الجنسى هو « فولجن » أى يطير وعضو الرجل التناسلى يسمى « لوشللو » بالايطالية أى الطير (١) . كل هذه مقتطفات من الأفكار المتعلقة بالموضوع ندرك منها أن رغبتنا فى الطيران أثناء الأحلام تكشف

---

(١) سبق أن ذكرنا أن كتاب ابن سيرين أورد عند الكلام عن الحمام أن من رأى حمامة انسان فانه رجل زان وعلى ذلك فعضو الذكورة بالعامية « حمامة » لفظ عربى قديم .

عن شوق للعملية الجنسية وهى رغبة تبدأ فى الطفولة المبكرة ويتذكر الانسان طفولته كفترة سعيدة تمتع بها ونظر أثناءها الى المستقبل دون أى عقبات ، ومن ثم يحسد الأطفال على خلو أفكارهم من الهموم •

ولو استطاع الأطفال فى سن مبكرة اخبارنا بما حدث لهم فمن المحتمل أن نستمع الى قصة مختلفة ويبدو أن الطفولة ليست بفترة سعيدة تماما كما تتأملها عندما نكبر •

فالطفل يشعر برغبة واحدة خلال سنى طفولته وهى أن ينمو ويسلك كالكبار • وعندما يتبين أثناء بحثه الجنسى غرض هذا الموضوع وأهميته وأنه يحرم عليه ويمنع عنه هذا الشىء الجميل الذى يستطيع عمله الكبار تنتابه رغبة عميقة فى تحقيقها تظهر على صورة أحلام الطيران •

ولذا فتحقيق أغراض الطيران فى عصرنا الحاضر له جذوره العميقة أثناء الطفولة •

ويقول فرويد فى دراسة للأحلام النمطية التى ضمنها الأحلام التى يطير فيها الحالم فى الهواء أو يسقط أو يعوم ••• الخ يقول : انها تعنى شيئا مختلفا فى كل حالة ولكن الاحساسات التى تحتوى عليها هى وحدها التى تنشأ دائما من ذات المصادر أى أن أحلام الطيران تعيد انطباعات من الطفولة وهى تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذابا فائقا فمن هو هذا العم الذى لم يعن طفلا على الطيران بأن يهرول به باسطا ذراعيه عبر الغرفة ، أو لم يتخذ من السقوط مادة ملاعبته فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة ويرتفع عاليا ثم يوهمه بحركة مفاجئة أنه سيتخلى عنه ويصيح الأطفال حينئذ طربا ولا يكلون من استعادة هذه الألعاب وبخاصة ان احتوت على ما يحدث بعض الخوف أو الدوار ، وأنهم ليستعيدونها

فى أحلامهم بعد أن تمضى بهم السنون سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التى تمسك بهم بحيث يبدون كمن يطيرون أو يسقطون أحرارا • وولع الاطفال بأمثال هـذه الألعاب كولعهم بالأراجيح بأنواعها وهو أمر معروف • واذا رأوا فى السير بعض الأفانين البهلوانية جدد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب • وقد لا تخرج النوبات الهستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضارا لأمثال هـذه الأفانين • وليس من النادر أن تنبه هذه الألعاب الحركية ــ وان كانت بريئة فى ذاتها ــ مشاعر جنسية ، واذا جاز لى أن أستخدم تعبيرا دارجا نطلقـه على هذا النشاط بكافته قلت : ان هياج الاطفال هو ما يستعاد فى أحـلام الطيران والسقوط والتأرجح وما شاكلها استعادة تنقلب فى خلالهـا اللذة الى هيلة أو فزع ولكن هياج الأطفال كثيرا ما ينتهى فى الواقع كذلك بالشجار وبالعويل كما تعرف كل أم •

وأنا اذن ــ والكلام مازال لفرويد ــ أملك أسبابا طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة : ان أحاسيسنا اللمسية فى أثنـاء النوم وكذلك الاحساس بحركة الرئتين وما أشبه هى التى تبعث على أحلام الطيران والسقوط بل فى رأيى أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له •

هذه المـادة من الاحساسات المركبة المتماثلة نوعا المتفقة مصدرا تستخدم الآن فى تصوير أفكار حلمية من كل ضرب ممكن • فأحلام الطيران والطواف فى الهواء هى أحلام عليها عادة طابع اللذة تقتضى تفسيرات متنوعة غاية التنوع خاصة كل الخصوص عند بعض الناس ، ثم ذات طابع نمطى عند البعض الآخر • فهكذا تتوق احدى مريضاتى أن تحلم بأنها تسير على ارتفاع معين فوق الطريق دون أن تمس قدماها الأرض ، كانت هـذه المريضة قصيرة جدا وكانت تخشى العدوى من كل صلة بالناس ، فحلمها هـذا يحقق لها رغبـة يرفع قدمهـا دون الأرض وأن يصعد رأسها الى طبقة أعلى من الهواء •

هذا بينما تعرب أحلام الطيران عند بعض الحالمات عن رغبتهن التالية : « لو كنت طائرا صغيرا » بينما تصير أخريات ملائكة فى الليل لانهن قد حرمن من أن يدعون ، كذلك بالنهار .. وأن الصلة الوثيقة بين الطيران وبين فكرة الطير تجعلنا نفهم كيف صار لأحلام الطيران عند الرجال معنى حسى غليظ فى غالب الأحيان . ولن يدهشنا أن نسمع أن هذا الحالم أو ذاك كان شديد الفخر بقدرته على الطيران .

ولقد أعرب الدكتور بول فيدون (من فيينا) عن رأى جذاب « لفرويد » مؤداه أن جزءا كبيرا من أحلام الطيران هو أحلام انتصاب لأن الانتصاب ــ تلك الظاهرة العجيبة التى شغل بها الخيال الانسانى من غير ما انقطاع (فى رأى فرويد) لا يمكن الا أن تسترعى الانتباه لما يبدو فيها من ابطال لقوة الجاذبية .

وانه لأمر خليق بالانتباه أن نجد باحثا تجريبيا متزنا صادقا مثل « فورى فولد » يؤيد التفسير العشقى لأحلام الطيران أو التأرجح فهو يصف الدافع العشقى بقوله : انه أقوى الدوافع فى أحلام الطواف فى الهواء ، ويجذب الانتباه الى احساس الذبذبة الجسمية الشديدة التى تصحب أمثال هذه الأحلام ويشير الى كثرة اقترانها بالانتصاب أو الانزال .

هذه هى وجهة نظر فرويد ومؤيديه فى الأحلام الطائرة والمتأمل لها يجد انه قد محا تماما كل ما يمت الى المستقبل بصلة .

ولكن ليس لنا أن نسلم تماما بهذه النظرية فمدرسة التحليل النفسى ــ التى بنى فرويد عليها نظريته ــ بدأت كطريقة لعلاج مرضى الاضطرابات النفسية وقامت على أساس اكلينيكى غير تجريبى . ودائما ما يؤدى البحث الاكلينيكى الى الكثير من الفروض والآراء

التى تضعف أمام البرهان التجريبى . هـذه الأبحاث الاكلينيكية تقوم على أساس مساعدة المريض الذى قد يضلل الباحث عن قصد أو غير قصد وكثيرا ما يصعب علينا أن تتحكم فى جميع العوامل المؤثرة فى الموقف عند قيامنا بتجربة معقدة لاثبات موضوع خاص ... يقول البعض ان اختبار التحليل النفسى يتم فوق أريكة المحلل ، ومعنى هذا أنهم لا يعترفون الا بالاختبارات العلميـة التجريبية ، اذ أننـا لا نستطيع التمييز بين نظريتى أينشتين ونيوتن بالاستلقاء تحت شجرة التفاح . ثم ان فرويد نفسه كان يراجع افتراضاته وقد عبر الكثير من آرائه بعد ازدياد خبرته واكتشافه قصورها فى كثير من النواحى .

وقد وجـه (ادلر) و (يونج) النقد لفرويد حول جمعـه كل الأحلام تحت نوع واحد ينتج عن انبعاث المواد المنسية من سـنوات الطفولة ، ولفتوا نظـره الى نوعين من التأويل : تأويـل التحليـل النفسى ، وتأويل صوفى وهو يعتمد على النزعات اللاشعورية الروحية والخلقية السامية .

وقد رد فرويد على ذلك بقوله : « لاشـك أننا نلتقى ببضعة أحلام من هذا النوع متناثرة هنا وهنـاك . ومن الخطـأ أن نحاول توسيع هـذه النظرية لأننا نرى أنهـا تشبه بعض الاعراض الهستيرية فى مبناها » .

ولكن رغم كل النقد والمراجعـات التى وجهت لنظرية فرويد الا أنها مع ذلك وسعت ميادين علم النفس وفتحت أبوابا كبيرة كانت مغلقة ومهدت السبيل لاجراء مزيد من التجارب والبحوث النفسية فى مختلف الميادين العلميـة والأدبيـة والفنية . ولا يفوتنا أن نرى كيف عالج هو نفسه دراسة عن ليوناردو دافنشى (١) . وقد اهتم فرويد

---

(١) اشهر رسامى عصر النهضـة .

فى دراسته تلك بتعبير أورده دافنشى فى مذكراته يقول فيه : يبدو أنه قد كتب على أن اهتم بالنسور لأننى أتذكر فى بدء حيـاتى بينما كنت فى مهدى اذا بنسر يهبط على ويفتح فمى بذيله ثم يلطمنى به عـدة مرات على شفتى •

يقول فرويد : اذا فحصنا جملة ليوناردو عن النسور بعين التحليل النفسى وحاولنا ترجمة ما تخيله دافنشى أو رآه الى كلمات مفهومه لأدى ذلك الى مفهوم شبقى ، فالذيل رمز معروف وتشبيه يعبر عن عضو التناسل عند الرجل وذلك سـواء فى اللغة الايطالية أو غيرها وعليه فان تخيل فتح النسر لفم الطفل ولطمه بذيله يفهم منه الترابط بين هـذه الصورة ومرحلة الرضاعة فى حياة ليوناردو • ويؤدى هذا الى ظاهرة غامضة فى تخيل ليوناردو فالتحليل يصل بنا الى أنه يختص بثدى أمه التى حل محلها النسر • فمن أين جاء هـذا التفسير ؟ هنا يقفز الى ذهن فرويد جزء متباعد من عالم الأسطورة فقد رمز قدماء المصريين بالنسر للأم وجعلوا تمثال ايزيس نسرا له عدة رؤوس بينهـا على الأقل رأس نسر •• وكان يطلق على هذه الالاهة اسم مات وهو رمز مستشف من أسـطورة ايزيس « الأم المقدسـة » التى حملت بحورس الصقر دون أن يمسها أوزير • وقد شرح هـذا العلامـة « هورابوللو » بالتفصيل فى كتابه « هيروغليفيكا » اذ يقول : ان الطيور تستلقى أثناء طيرانها وتفتح مهبلها فيحدث الاخصاب عن طريق الريح دون حاجة الى ذكر •• ومن ذلك سموا ايزيس الأم الطاهرة •

وقد تحمس آباء الكنيسة لقصة اخصاب النسر كظاهرة طبيعية ليثبتوا امكانية وجود العذراء وولادتها المسيح • وقد تكرر ذكر هذه القصة فى معظم الكتب الكنسية (١) ـ والحديث ـ لفرويد الذى

---

(١) كتاب « ليوناردو دافنشى ـ دراسة تحليلية لفرويد » تقديم وترجمـة دكتور أحمد عكاشـه •

يسترسل قائلا : اذا فخرافة الجنس الواحد سواء فى النسور أو الجعران الذكر ، وكلاهما فى الميثولوجى المصرى القديم ، لهما أهميتهما الخاصة التى يتمسك بها آباء الكنيسة كبرهان طبيعى ضد الشاكين فى التاريخ المقدس • فاذا كانت الرياح تخصب النسور فمن الممكن أيضا أن يحدث ذلك للمرأة •

وعندما راجع العالم النفسى « هافولوك » فرويد على اتخاذ هذه الجملة محورا فى تحليل دافنشى لأن هذا التعبير قد يكون خيالا ، رد فرويد قائلا : الحق معك فى آنها ذكرى غريبة فى مكنونها بالنسبة لطفل فى هذا السن • فقد يستطيع الطفل فى مرحلة المهد أن يتذكر بعض الأحداث ولكنه لا يستطيع الجزم بصحتها ولكن غرابة هذه الذكرى وعدم احتمالها مفترض فيها آنه قد تكون هذه الحادثة ما هى الا خيال تكون عنده فى وقت متأخر ثم نقله الى طفولته •

الفصل الخامس

فى الفنون السبعة

مثل الحريــة الكاملة

« كان راقص البالية الروسى العظيم نجنسكى يتمتع بقدرة فذة على التحليق، حتى قيل أن بمقدوره أن يمكث جزءا من الثانية عند أعلى نقطة يبلغها قبل الهبوط الى خشبة العرض . وكان ابوه يعلق على ذلك قائلا أ اذا كان ابنى يعود الى الأرض فهو انما يفعل ذلك مجاملة لزملائه » .

« ولم يكن الأب يدرى انــه يسخر بذلك من الفلســفة القائلة ان المجتمــع اولا ثم الفرد » .

(١) من قاموس الباليه .

التصوير والنحت هما أقدم الفنون جميعا . والتصوير أسبق من النحت وقد كان جسد الانسان اللوحة الأولى التى رسمت عليها صور (١) الطير والحيوان والشجر ، وهو ما يعرف الآن باسم الوشم ، ولكن الأثريين لا يعرفون متى بدأ ذلك ، وان كانوا يحددون تاريخ فن النحت بخروج الانسان من الكهف ، وقد اختلف علماء الحفريات وعلماء الآثار حول أغراض الوشم وهو الصورة الأولى لفن التصوير .

قال فريق منهم أن الوشم تعبير جنسى وأن دوافعه جنسية بحتة ، وقال آخرون أن الانسان رسم صور الطير والحيوان على جسده منعا للشر أو شفاء من مرض أى لأغراض السحر . وأيا ما كان الخلاف فما يعنينا هو ذلك الاهتمام الواضح الذى اختص به الانسان الطير فى فن التصوير والنحت والفنون التشكيلية عامة عجز الانسان . عندما خرج من الكهف وبدأ عصر الصيد عن تفسير ظواهر الطبيعة وعجائب الخلق فردها الى كائنات وقوى يمكن أن تقارن به هو . وكانت الطيور ، تلك الكائنات الصغيرة التى تملك قدرات فائقة لا تتوافر له ، هى أكثر ما شد انتباهه وأثار خياله ، فرسم جسده على جدران الكهف برأس طائر ، وكأنه يريد أن يجمع بين قوة بدنه وقدرة الكائن التى تصور أنها تتركز فى رأسه .

كان الانسان ينظر الى أعلى . كان يفكر فى الطير والرعد

---

(١) هناك اعتقاد بأن وشم العصفور المنقوش على جانبى جبهة الريفى المصرى .. هو الصقر حورس رب البر والرحمة ـ وابن ايزيس وأوزيس .

والسحب أكثر مما يفكر فى الحيوانات والغابات من حوله • وكان صوت الآلهة يتمثل عنده فى هزيم الرعد وهى تسكن فى السماء • فاذا زارت الانسان هبطت اليه من عل ثم عادت الى السماء محلقة تماما كما يفعل الطائر •

وعندما تلاقى أفراد النوع الانسانى فى الوديان وحول الانهار تكونت العشائر والقبائل وتطورت رسوم الطيور وغيرها بارتقاء حتى صارت حروفا هجائية • ولكن الانسان ظل ينقش صورها على أبنيته ويلونها فى معابده معبرا بذلك عن عقائده وفكره الاجتماعى والسياسى •

وما من أمة فى التاريخ خلفت آثارا مصورة الا وعبرت بأشكال الطيور عن مختلف جوانب حياتها الاجتماعية والفكرية ، فى الحضارة المصرية القديمة صاحب الطائر الانسان فى حياته الدنيا وفى الحياة الآخرة وفى الحضارة الآشورية كانت تحرس قصر الملك ثيران مجنحة لها وجه انسان ملتح وكان الثور يرمز للقيادة والفحولة ، أما اللحية فترمز للذكاء ، وتشير الأجنحة الى أنها من فيض الله •

وعن المصريين والآشوريين تعلم الفرس واليونان والرومان كيف يصورون الأطياف على شكل رجل مجنح أو امرأة مجنحة • فاشعار الاغريق وأعمالهم الفنية تصور بعض الطيور الغامضة المقدسة وتحكى عن آلهة من الذكور والاناث تحولت الى طيور بعد تعميدها •

واذا كانت بعض الالهة الاغريقية الكبرى لم تتخذ لها أجنحة فى طور متقدم فذلك يرجع الى اعتقاد الفنان أن الاله يتميز عن نصف الاله واذا كانت أنصاف الالهة تتخذ لها أجنحة فذلك لا يليق بالاله الأكبر وهو ليس فى حاجة الى جناح لأنه يسكن قمم الجبال

ولا يبارحها . فظهر الاله « أبولو » وهو يرمى سهام الشمس وكذلك ظهرت « ارتمبيس » فى ثنى قوس القمر ، « وزيوس » وهو يسوق السحاب بالبرق .

ولكن الرسول « هرمس » الذى ينتقل كثيرا بين الآلهة والبشر له جناحان مثبتان فى كعبيه وكان « ايروس » أو « كيوبيد » ــ اله الحب صبيا فى الثانية عشرة ممتلئا صحة وكان عاريا فاتنا متقلب الأطوار تلتصق بكتفيه عدة أجنحة صغيرة ، وكانت الهة النصر فى الحضارتين الاغريقية والرومانية تطير من نصر الى نصر ، وتزور أحيانا الامبراطوريات الناشئة مثل « أثينا » وتستقر عند الممالك القوية أحيانا أخرى .

وقد انحسرت الأجنحة بعد نزول أول رسالة من السماء ، ذلك أن اليهود تمسكوا بفكرة أن الاله لا يمكن رؤيته . وأنه لا يشبه أى شىء انسان كان أو حيوانا بل أنه روح لا توصف ولا تسمى ولكن لها صوتا .. وكثيرا ما سمع هذا الصوت ولكن لم يره أحد .. ويذكر كتاب العهد القديم أن الله أرسل لشعبه رسلا لم تكن لها أجنحة . وكتاب العهد الجديد أيضا لم يذكر أن لرسول الله أجنحة .. ففى انجيل لوقا نجد أن ملاك الرب جبرائيل ظهر للنبى زكريا وبشره بابنه يوحنا المعمدان وكان بدون أجنحة .

كما دخل الملاك على العذراء مريم وبشرها بابنها يسوع ولم تكن له أجنحة . لقد كادت الأجنحة تختفى خلال القرون الأربعة الأولى للمسيحية ثم عادت مرة أخرى الى الملائكة والرسل فى رسوم الكنائس .

ويقول المؤرخون فى ذلك .. ان الأباطرة عندما اعتنقوا المسيحية

بعد القرون الأربعة الأولى .. انهار السد القديم بين الدين والشعوب .. وتدفقت مياه الروح المسيحية فى القنوات الوثنية الجافة فملأتها بنشاط جديد .. وبعثت على شواطئها الحياة بعد آن كادت تحتضر .. ووسط هذه الدوامات والموجات عادت الأجنحة مرة أخرى الى الملائكة والرسل فى رسوم الكنائس .

ويؤكد الأثريون هذه الحقيقة بقولهم أن كثيرا من الكنائس كانت من قبل معابد وثنية .. فكنيسة (سيراقوس) (١) مثلا كانت معبدا للالاهة أثينا قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون استخدمه الوثنيون اثنى عشر قرنا ثم تحول الى كنيسة مسيحية .

وعن طريق هذا الاحلال اتخذت الملائكة ورسل العهدين القديم والجديد أجنحة انصاف آلهة الاغريق والرومان التى كانت منحوتة أو مرسومة من قبل على جدران هذه المعابد .

كذلك لم يتخل أباطرة اليونان والرومان عن آلهة النصر حتى بعد اعتناقهم المسيحية .. وكان عرش الامبراطور المنتصر فى القسطنطينية تحيط بجانبيه الهتان بجناحين منشورين وتقبض كل منهما على اكليل من الغار .

وقد تسربت الأجنحة الى الفن الاسلامى أيضا بعد قرون أربعة كما حدث فى المسيحية .. ولكن ذلك تم لأسباب وطرق مغايرة .

لقد حطم الاسلام الأصنام ، وكان بينهم الصنم (نسر) وعارض

---

(١) سيراقوس : ميناء كبير أسسه مستعمرون أغريق ٧٤٣ ق.م على شاطىء صقلية الشرقى أصبحت كبرى مدن صقلية فى عهد طغاتها ما زدادت قوة وثروة وصارت مركزا بارزا للحضارة الاغريقية حتى كانت تعتبر بمثابة أثينا الرغب بل هزمت الحملة الكبرى أرسلتها أثينا (٤١٥ : ٤١٥) ق.م ولكن الرومان هزمتها (٢١٢) وأخذت تضمحل تشهد اطلالها بمجدها الغابر .

المسلمون النحت بشكل عام ، حتى باعدوا بينهم وبين عبادتها •• وقد اختلف الائمة حول درجة ذلك التحريم • قالت طائفة منهم بتحريم النحت واباحة الرسم •

وذهب آخرون الى تحريمهما معا • وكان هذا هو الرأى الغالب ، فقد أهمل المسلمون فى صدر الاسلام وفجر دولته كلا من فن التصوير وفن النحت رغم ما كان يحيط بهم من أسباب الترغيب فيهما بعد فتحهم لفارس ، واتصالهم بالهند •

على أنهم صاروا بعد ذلك لا يستنكفون من اقتناء الرياش المزينة بصور • فقد حكى المسعودى عن أبى العباس محمد بن سهل قال : كنت أكتب لعقاب بن عتاب من ديوان جيش الشاكرية فى دار الخلافة العباسية أيام المنتصر ٢٤٨ هـ •

فدخلت الى بعض الأروقه • فاذا هو مفروش ببساط سوسنجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة • وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتاب بالفارسية •

وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن يمين المصلى صور ملك ، وعلى رأسه تاج كأنه ينطق • فقرأت الكتابة فاذا هى صورة شيريه القاتل لأبيه أبرويز الملك « ملك ستة أشهر » • وبساط آخر مرسوم عليه ملوك من العرب مما يدل على أن فن الرسم دخل قصور المسلمين •• وبعده دخل فن النحت •

ولكن المساجد أوصدت أبوابها دون التصوير والنحت ولم تعرف الا فن الزخرفة الاسلامية •

ففى القرن الرابع الهجرى بنى المقتدر بالله دارا عرفت « بدار

الشجرة » حيث أقيمت فى الساحة شجرة ذهبية تستقر على أغصانها طيور يحرسها فرسان على صهوات أفراسهم • وقبله صنع الأمين السفن على أشكال الطيور والحيوانات ومثل ذلك أيضا فعل « الخليفة الناصر » فى الزهراء عندما أقام فى قصورها تماثيل للطيور والأسود والغزلان •

وعلى هذا النسق أنشئت قصور « اشبيليه » وقصور « الحمراء » فى غرناطة بأسبانيا ، وقصور « بنى طولان » بالقطائع ودور الفاطميين فى مصر • وفى مخطوطات مدرسة التصوير الهندية والمغولية ومدرسة التصوير الصفوية التى تم الكشف عنها فى القرن الحادى عشر الهجرى رسوم تمثل رحلة الاسراء والمعراج ، وفيها يصعد النبى صلى الله عليه وسلم السماء فوق « البراق » وحوله سبعة ملائكة مجنحون • وقد شاع التعبير عن موضوع الاسراء فى المنشآت الفارسية فى القرن السادس الهجرى وبعده •



ومضى الزمن وتداخلت الثقافات وأقيمت المعارض فى الشرق والغرب ويندرأن تزور واحدا منها الا وتطالعك لوحات موضوعها الطيور التى استخدمها الفنان أحيانا كرمز للجنس كما فعل لينوناردو دافنشى وأحيانا أخرى للتعبير عن علاقة الحاكم بالمحكومين كما فعل « جويا » فى لوحاته الشهيرة عن محاكم التفتيش ، وكذلك

---

(۱) مروج الذهب ومعادن الجوهر .. الجزء الرابع .. ص ٤٦ ، ٤٧ .. (دار الاندلس) .. ابو الحسن على بن الحسين ١٠٧ وهو جغرافى ومؤرخ عربى ولد ونشأ فى بغداد أمضى شبابه فى التجوال ، واستقر بالفسطاط ، وبها توفى وضع عشرات من الكتب اشهرها ما بقى منها (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وهو تاريخ عام يبدأ من الخليفة وينتهى بسنة ٩٤٧ هـ . جمع فيه مشاهداته ودراساته فى جميع تلك البلاد .. وله أيضا كتاب (التنبيه والاشراف) •

الفنان « بوش » الذى يعالج فى معظم أعماله العلاقة النفسية بين الانسان والطـائر •

واذا استثنينا رسـوم بيكاسو عن الدجـاج والكتاكيت التى وضعها كرسوم توضيحية لكتاب « التاريخ الطبيعى » « لبافلوف » الا أن أشهر أعماله كانت « حمامة السلام » التى تكررت كثيرا بعد ذلك فى رسومه ورسوم غيره • واستخدمها بيكاسو فى زخرفة أوانى وأطباق تجاوز ثمنها أحيانا قيمة بعض لوحاته • وجعل الفنان المشهور « مارك شاجال » الديك رمزا لفرنسـا فى لوحاته على جـدران قصر الاليزيه معالجا له بأسلوبه المعروف الذى يتردد بين الحقيقة والحلم • ومنذ سنوات أقام الفنان حامد ندا فى القاهرة معرضا خاصا عن العلاقة بين الطيور والأنثى •

الطيور والشعر

« اذا تصورنا المعنى الشعرى طائرا حيا فمهمة الشاعر ، هى الامســاك به ووضعه فى قفص التعبير . ومن هنا كانت صعوبة فن الشعر ودقته . فقد تكون قبضــة الشــاعر على المعنى افتر قليلا مما ينبغى فيفلت منه المعنى ـ الطائر ـ الى الأبد ، أو تكون أعنف وأشد مما ينبغى فلا يجد ـ الشاعر ـ فى كفه فى النهاية الا جســدا وجناحين بلا روح » .

واذا كانت الناقدة الانجليزية عندما أرادت أن تعرف المعنى فى الشعر اتخذت الطائر كضــوء يجلى الشاعر الحســاس المجيد الذى باستطاعته وحده أن يدخل الطائر مغردا الى قفصه .. فان الطيور المحلقة مع الشعراء ـ أغلبهم ـ أدوارا فى المعنى والمبنى ، فى الخاطر وفى الوجدان عن الأحلام والآمال .

وعندما نقول هنا الطيور والشعر ، فاننا لا نقصد الشعر عامة ، ذلك الذى هو وعاء المعرفــة التى تقوم عليها حضــارة الأمم ، والذى اذا ما أردنا التعرف على البيئة الاجتماعية للعرب أو حياتهم اليوميــة وتأملهم للطبيعة المحيطة بهم فى باديتهم وحاضرهم ، اتجهنا الى شعرائهم امرىء القيس ، وطرفة ولبيد وعنترة وغيرهم ، كما تتجه لشعر هومير أو أوفيد فى الأوريسة ومسخ الكائنات .. لنعرف تصورهم للعالم الحى وما وراء الحى .

الحقيقة ليست كذلك .. اننا عندما نقول هنا الطيور والشــعر ، فنقصد الشعر الغنائى منه فى مقابل الشعر الدرامى أو الملحمى .. أى

القصيدة التى تعبر عن أنفعال ذاتى • أغنية كانت أم مرثية أو أى تعبير وجدانى كما فى القصيدة ذات الأربع عشر بيتا والتى يطلق عليها الغرب اسم « سوناتا » والاحاطـة بدور الطيور وهـذا النوع من الشـعر صعب وسهل ممتنع فى آن واحد •• ذلك أن الطيور وهذا النوع من الشعر يبدوان ككائن متكامل ، الشعر جسده والطيور روحه المعبرة •• أو اذا كان الشعر ــ هنا ــ كتاب فان الطيور هو قاموسه الخاص •

الطيور فى الشعر العربى :

فاذا أطللنا على علاقة الشعراء من الجاهلية الى الآن بنوع واحـد من الطيور مثل الحمامة •• لوجدنا كم اهاج مشاعرهم ودفعهم الى الكتابة والتغنى بالوطن والأحباب •

واذا تتبعنا الطيور عصرا بعد عصر لوجدنا رسالة الباحث الكويتى « ابراهيم الحشاش » لنيل الدكتوراة من جامعة قرطبة عن دلالة الطيور فى الشعر الأندلسى فقط •• واذا اتجهنا الى الشعراء المعاصرين وجدنا أغلبهم قد اتخذ من طـائر بنوعه رفيقا له يعبر عن خـلاله عن آماله وأحلامه • فشوقى بعد ان رافقه كثير من الطيور « فى شعر شوقى فى الحيوان » اختص البلبل بصداقته سواء فى شعره الفصيح أو شـعره العامى • واختار زكى أبو شادى طائر أبو الفصاد كرسوله الى قرائه ، والطـائر الجريح جذب ابراهيم ناجى فجعله مترجما لمشـاعره •• والكروان ألف بين العقاد وطه حسين بعد طول خصام •

أما محمود حسن اسماعيل ــ كهمزة وصل بين الشعر الموزون المقفى الحر ــ فقد شملت صفحة شعره على كثير من الطيور •• مثل الطاووس والبومة والغراب •• بل اننا اذا استللنا ديوانا واحدا له مثـل « قاب قوسـين » وتوقفنـا عند أى قصـيدة منه فسنجده فى « تسبيحة » يقول :

« جنـى طـير غـريب الجنـاح
يغنى وتصـغى اليـه جـراحى »

وفى المستجيرة :

« جنـاحاه من شـهوات الحيـاة
ومـن بأسـها فى لقـاء المصـير »

والى « الهاربة من المعبد » ينصح :

« لا تغلقـى البـاب .. وأمضى
مـن بعـض ذاتـى لبـعضى

قوافـلا مـن ضراعـة
تطـير نحـو « الشـفاعة »

و « للنيل النعسان » يناجى :

« ذهبت له ، والانجـم البيض حـوم
على خمره ، كالطير تحسو وترشف

لهـا رعشـة مسـحورة فى عبابـة
وهمس حـديث فى الحنايا مرفرف

سبته الرؤى فانساب نعسان مثلما
على راحـة المحبوب هـوم مرتـف

غنى يهـاب الدهـر حرمـة ساحـة
ويفـرغ اعصـار الزمـان المطـوف

وعلى « شاطىء التوبة » يردد :

« وحمـلوه طيـورا
لقنتهـا مـن غنايـا »

وعن « النفس والخطيئة » يتوعد :

« فقـلت طـيرى واصـعدى
يا نفـس حـان الموعـد »

وفى « صحوة العجائب » يبتهل :

« امانك ربى ، ذلك الوجـه ربوة
تغنى بها الأطيـار من كل جانب »

ومن « معبد الشمس » يغنى :

« وسمعت طيور أزالية
للشرق صباحا وعشية »

ومن « ساعة مع الكوخ » يتأمل :

« ولا شارب كالصقر ، يرمى بنظره
تدس فنون الحثل طى المحاجر »

وفى « جنازة الرق » ينوح :

وطيور الربى ، بقيات منح
عصر الليل شدوه ، ورماه »

وخلال « الضباب الأخضر » يحدق :

عبرت بها فى وجود العباد
وأوغلت حتى ضمير الضمير

فابصرت كهفا ، على راحتيه
خريف تهلل فيه الطيور

ومع كل ذلك يفخر فى « أنا والنفس والضمير » فيقول :

« وشدونا ، وكنا نغما يشجى رباه
ساحرا ، يخجل لحن الطير فى الروض صداه »

واذا كان للطير كل هذه الدلالات والسكنات واللمحات والاستلهامات فى ديوان واحد ، لشاعر بعينه فما بالنا مع مجلة تنشر الشعر لكثيرين • اننا اذا تصفحنا مجلة كيفما اتفق ، ولتكن الآداب فبراير سنة ١٩٦٩ لوجدنا أغلب القصائد بل القصص والاعلانات عن الدواوين • قد اتخذت من الطيور عنوانا لها ومحورا ، واذا كان اعلان الديوان هو « العصافير تموت فى الجليل » لمحمود درويش ، فان القصائد هى « حوار فى جزيرة العقاب » لياسين طه حافظ ، « والنزيف فى غضبة النورس » لخلف الشيخ ابراهيم ، « والنهوض والسرب

المهاجر » لعبد الرحمن عمار ، والمغرد السجين لفدوى طوقان .. حيث تناجي الشاعر الأسير كمال ناصر فتقول :

« شـدوك يأتينـا حبيب الصـدى
محلقـا رغـم انغـلاق الرحـاب

يا طـائرى السـجين فاصـدح لنـا
من خلف جـدران الدجى والعـذاب

فـان قضـبان الحـديد التى
تسـد فى وجهـك رحب الفضـاء

لن تحجب الغنـاء عـن سـمعنا
يـــا طـــائرى »

واذا قفزنا عشر سنين مع نفس المجلة « الآداب » فبراير سنة ١٩٧٩ لوجدنا الاعلان عن الديوان « طيور بعد الطوفان » لياسر بدر الدين وهو مجموعة من اللوحات الرومانسية النافرة بشكل تطير نحو عـالم أجمل .

وأقوى .. أما اسـتهلال المجـلة نفسه فكان قصيدة « أغنيـة العنقاء » للشاعر محمود على شمس يقول فيها :

« لاشتعال الطير فى هذا السواد
للذى يحـلم بالمنفى
من الأرض
اليهـا
للغـريب
لجناح الوعد »

كل هذه الحوارات الشعرية مع الطيور .. تجعلنا نتأكد ، كيف أن العربى وهو واسع الخيال من ناحية التصور السمعى . قد استقى نظرياته عن الايقاع ــ أصلا ــ بمساعدة الطير .. عندما طبقها على تغريدها حسب وزن الأصـوات وفقا لصعودها وهبوطها .

الطيور فى الشعر الأوروبى :

أما الطيور عند الشعراء الأوروبيين الذين كان تقدمهم الفكرى الحالى امتدادا طبيعيا للفكر اليونانى القديم ، فنحت سعة الخياله لديهم ناحية التخيل الاختراعى ، فوهبوا جناحين لاله الحب ، والشعر والغناء ، « كيوبيد » أو « ايروس » مما يدلل أن الشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الأمم ، والشعر وضع أولا للتغنى به وانشاده للملوك والالهة ولذلك فاليونان والرومان يقولون حتى الآن ، « غنى شعرا » وليس « نظم شعرا » أو « صنع شعرا » والألمان يقولون : مقطوعة شعرية ، أننا نجد القالب الذى صب فيه معظم شعراء أوروبا انتاجهم امتدادا لما كان يلقيه « بندرا .. الكاسيوس » « سافو » . نجد هذا القالب ـ حتى ـ عند الشعراء المسرحيين مثل شكسبير عندما قال فى « سوناتا » « الأنغام التى يرددها معى العصفور الصغير » :

« تحت شجرة الغابة الخضراء انتظر
ذلك .. الذى يريد أن يرقد الى جانبى
لننتقل سويا الى العالم ..
فليقبل الى هنا وليتبعنى
فلا نرى عدوا لنا
غير الشتاء والبرد »

وعندما حل القرن التاسع عشر ، وكانت الطيور قد هاجرت من الشعر الى الرواية ، فقد جاء « وردزورث » و « كوليريدج » فأعدوا لغة الشعر الأصلية من الصالون والرواية الى الحقول والمراعى ، فعادت للطبيعة هيبتها ، واستعاد الشعر الانجليزى النغم والشدو الذى يردد مباهج الطبيعة ويدفع عنها العدوان فى مثل قصيدة الأخير « أغنية الملاح القديم » .

بينما كان ضيف العرس سائرا فى الطريق ،

يغذ السير .. خشية أن يفوته الموعد ،
استوقفه الملاح القديم بوجهه المخيف ،
وأصر أن يقص عليــه ما جرى له ،

لقد قتل طائر القادوس الذى يحلق فوق رؤوس البحارة،
ركد المــاء .. وسكنت الريح .. واشتد الحر ،

أصبح حال البحارة أقرب الى الموت منه الى الحياة ،
احتج رفاق السفينة على الملاح القديم .. لأنه قتل القادوس ،

طائر القادوس هو رسول السلام ، والأمان والطمأنينة ،
للاحين يجربون محيطا لا يرون له على البعد من نهاية ،
علق رفاقه الطائر المقتول فى عنقه كى يذكروه بسوآته ،
وكعقاب له على ما قدمت يداه ،
ولم يصل الى بر الأمان .. الا بعد أن كفر عما قدمت يداه ،
بالتراتيل والتعاويذ .. وأخذ على نفسه عهدا الا يكرر فعلته ،

وما أن حل الرومانسيون الذين جعلوا الطبيعة شعيرتهم للحب والحرية .. حتى رفعوا الطائر الى منزلة انسانية سامقة ، طوحوا مع كل جناح طائر ، توحدوا مع كل خلجة فيه ، اقرأ « أغنية الكروان » لـ « جون كيتس » .

« أنت لم تخلق لموت ، أيها الغرد ،
أنت بــاق أبــدا ،
ربما لاقــاك عبر الزمــان ،
شعب كنت له صيدا ثمينا ،
لم تهن فى عينيــه ،

فمضى يطوى على الجوع حشاه ،
وبقيت الدهر تشدو وتغني ،
ان هـذا الصوت اصغى لغناه ،
كم سعى يصغى اليه الناس جيلا بعد جيل
ربما نفس الأغـانى

الشعر والطيور اذا تحتـاج الى كتب ومجلدات والشعر ، هو الروح الشفافة لكل الفنون .. فاننا نقول على أى مقطع منهم رق فيه تعبير مبدعة وشف معناه : ان هـذا المبدع ـ مثالا كان أم رساما ، راقصا أو مخرجا . سينمائيا ـ كان شاعريا .

والطيور لم تحلق فى شعر الطبيعة ، والوجدان فقط بل طارت الى الشعر التصويرى والميتافيزيقى وشعر الفرسان .. بل أن معاصرا كالدكتور زكى نجيب محمود ، ليقول عن شعر الطير عند ثلاثة من اعلام الفلسفة والفقه والتصـوف . « رسالة الطير » لابن سينا ، ورسالة الطير للغزالى ، ومنطق الطير لفريد الدين العطـار ، انه عندما يقرأ حوارهم الشعرى مع الطير يسمع هاتفا باطنيا يهتف به قائلا : هـذا بيت اقامه صوفى ليسكنه أفلا يجور لى ـ أنا الذى ورثت البيت ـ ان أجرى فيه بعض التعديل لاسكنه بدورى ؟

الطيور والمسرح

كتب اسخيلوس خالق التراجيديا أو المأساة المسرحية ، مسرحيات « بروميثيوس مقيدا » و « بروميثيوس طليقا » و « بروميثيوس صديق الانسان بين الأرباب ، آلهة اليونان » . وقد كان « بروميثيوس » ربا من الأربـاب المعبودين قبـل أن يتولى « زيوس » عرش الأولمب ، بمعاونـة بروميثيوس وتأييد اصحـابه من أربـاب الأرض . ولكن « زيوس » لم يكد يعتلى العرش حتى رأى أن الأجنحـة تحط من قدره وتهبط بمكانته ، فاستبدلها برسل يبعث بهم الى البشر ، وكان يعرف وهو فى مكانه على قمة الألب لا يغادره أفعـال البشر ، وأنكر منهم أن يتشبهوا بالخـالدين ، وهم الفـانون ، فغضب وأضمر لهم السوء ، وأسر الى خاصته بأنه قد أعد للبشر كارثة تجتاحهم ولا تبقى منهم ولا تذر . وحقت على البشر لعنة الأرباب جميعا الا « بروميثيوس » الذى كان صديقا للانسان عطوفا عليه . وما كاد « زيوس » يسلط البرد على البشر حتى تلقف بروميثيوس شعلة النار « لهب الحياة » وألقاها اليهم ، والتقطوها بأقواسهم كما يصيدون الطيور من الجو .

وقد عاقب « زيوس » « بروميثيوس » على ذلك بأن نفاه الى جبال البحر الأسود ، حيث قيد الى حجر كبير وانقضت عليه العقبان تشرب من دمه وتأكل من أحشائه ، وتنوشـه جوارح الطـير التى ساعدته أجنحتها على ارتكاب خطيئته .

ولقد (١) بحث مؤرخو المسرح عن المادة الأسطورية التى أخذت

---

(١) العدد « ٥ » من سلسلة حول مائدة المعرفة تقديم الأستاذ عباس محمود العقاد . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية .

عنها هـذه المسرحيـة ، ولم يصـلوا لشيء ، ولكن كلا من النقـاد « لويس كروتيرجر ، وليمان بريزرك واندريه ميخالوبلوس » يقررون أن « برومثيوس » كان ماردا . استدلوا على ذلك بمعنى الاسم ، وهو يعني حدة النظر أو القدرة على رؤية ما لا يراه قصار القامة ، كما يعني مجازا استشعار المستقبل ، ولكن هذه الصفات ليست بالضرورة من خصائص المـارد بقدر ما هي خصـائص الطائر وحده ، ذلك أن « برومثيوس » كان الى الأرض بجناحي طائر لاسيما ويتردد في أناشيد المأساة كلمات « الطائر والطيور » و « الخفق » و « ضربات الأجنحة »، حيث تنشد الجوقة المؤلفة من « بنات أوقيانوس » (١) بعد أن سمعن صراخ « برومثيوس » وشكواه لقوى الطبيعة .

ما هذا الذي يتردد من قريب
أعود الى سماع همس كأنه خفق الطير
والهواء يطن بضربات أجنحة سريعة
ومهمـا يكن المقترب
فليس عندي الا الخـوف

وتؤكد مسرحية « الطيور » ، أكمل مسرحيات « أرستوفانز » الذي بدأ به تاريخ الكوميديا في اليونان حقيقة طيران برومثيوس .

كان « أرستوفانز » قد صب غضبه على حماقات مواطنيه وسخر منهم في مسرحية « الضفادع » وبعدها كتب « الطيور » وتصـور فيها عالمـا من النعيم الدائم الذي لا يتحقق ــ كما يرى ــ الا لكل ذي جناحين .

---

(١) في أساطير اليونان ، المجرى المحيط الذي يفيض بمائه ويحيط بحافـة الأرض من جميـع الجهات منه تشرق الشمس والقمر وفيه يغربان ولأن لكل شيء في اليونان آله وحوريات فان لهذا المجرى حوريات .

يستحضر « ارستوفانز » المواطن الاثينى العاقل العادى متمثلا فى « أبليدس » ، و « بيستيز » اللذين ارهقتهما الحرب وحماقاتها بجانب ما يحسان من قيود السجن داخل الجسد المهدد بالعقم والشيخوخة والعجز والموت ، فماذا يفعلان ؟ انهما يسبحان بخيالهما ويحلقان فى محاولة انشاء مملكة ينافسان بها الآلهة ويسترجعان بذلك حيوية الشباب ، ويقر عزمهما على استشارة الهدهد « آيوبس » ، ويصلان الى بيت الهدهد ، فتخطر لهما فكرة رائعة ، لماذا لا تصير الطيور سادة كل شىء فتقيم مدينة فى الهواء فى موقع تتمكن منه على ازعاج الآلهة بالسيطرة على دخان الضحية المتصاعد من المذابح ، وحكم البشر عن طريق التحكم فى جو الأرض . وهلل الهدهد « آيوبس » للفكرة ودعا كل الطيور ليشاورهم فى الأمر . وقد كانوا فى البداية على استعداد لمواجهة البشر الذين اقتحموا حماهم ، ولكن النظام استتب تدريجيا فوافقوا على الاقتراح ، وتغنوا بنشيد رائع الجمال ، كانت أنغام العندليب فيه هى اللحن الأساسى :

أيها العندليب ، أيها العندليب
انك عزفت على الفلوت
الذى يهدهد أرق الأنغام
عزفت موسيقى كأنها أغانى الربيع
فلتبدأ الغناء .. أتوسل اليك
أن تردد نشيدنا الانبسطى (١)

ويصيح المواطنان : أيها الرجال الذين يحيون حياة معتمة فى أسفل ويموتون ، ويذبلون كأوراق الشجر وقد اكتأبوا وبهت لونهم

(١)الانبسطى : وزن من الشعر اللاتينى تفاعيله مؤلفة من ثلاثة مقاطع قصيرة .

فصاروا كالخيال ، أولئك الذين خلوا من الروح وخفت حياتهم العاجزة والقصيرة •

أنتم رسوم هشة من الصلصال تمحى فى يوم
كأنهـــا حــلم ملىء بالأسى والتنهـــد
أرهفوا آذانكم لطيور الهواء الخالدة الأبدية
التى تطير فى بهجة الأثير ونشوته وتفكر فى
الحكمــة الخــالدة
يــا آلهـــة الشـــعر فى الغابـــات
تيــو تيــو تيوتــكس
ذات الريش المتنوع التى بعونهــا الــكريم
تحلق قمــة الجبــل فى مســالك الغابـات
تيــو تيــو تيوتنــكس
صب كأس الأنغام الغردة من جيدى الأسمر
وأطلق الرقصات الجماعية فى حضن أم الجبل

ثم يتوجه الجمع الى الجمهور يغريه بالانضمام الى الطيور حيث الحرية التى لا تحدها آفاق •

هل بينكم أيها النظــارة من يبغى أن يعيش
مع الطيور حيــاة المتعــة فيأتى الينا مسرعا
ان كل ما يعتبر هنا مشينا وكل ما تدمغه القوانين هنا
بحق يحظر القانون هنا أن يضرب الابن آباه
وهــو يتبختر فى حنق الشــباب صــائحــا
ارفع مهمازك وحاربنى •• ان هذا ما تعجب له الطيور
أقبل أيها الهارب الرعديد الذى جللك الهوان
سندعوك (فرانكولين) المنقط • هذا سيكون اسمك

وأنت يا من تتخذ أسلوب رجل القبيلة أفرجى (١) تعال وكن طائرا ،
معنا من يربى الطاووس،سيكونون رجالا مجللين بالذهب قادرين أصحاء
يا بن بيسياس الذى يبغى فتح أبواب المدينة للخارجين على القانون
أقبل الينا وكن حجلا (مثل الديك كما يقولون) .. اننا ننعى
على الناس اتباع الحيل الدنيئة التى يتبعها الحجل

بل وهكذا البجعة
تيو تيو تيوتيتكس
ان صياحنا الصاخب كان يعلو أولا . مع خفق الأجنحة
شكرا لأبوللو
تيو تيو تيوتيتكس
حقا ان أحسن شىء أن تكتسى بالريش

انه الخيال أيها النظارة هو الذى أعطى كلا منكم طوقا من الأجنحة
ليس لكم حاجة أيها المتعبون الجوعى لأن تصبروا على فرقة المأساة
وانما تنشرون أجنحتكم وتطيرون حين أنتم بها تبرمون
وتعودون بعد الغذاء لتستمتعوا بملهاتنا المسرحية
فاذا رأى الزوج الشهم من فوق منصة المجلس
سيدة مرحة شائقة كان يحبها فيما مضى
طارتوا لتحيتها وكان له معها حديث حلو قصير
ثم يعود أو تفتقده الى الأبد .. وهو هادىء باسم فى مقعده
أليس اذن ثوب الريش أحسن الأشياء

أن المدينة وهى فى مرحلة البناء اسمها (تفولاكجيا) مدينة

---

(١)اسم شخص او علم منتشر ، مثل ما تقول زيد أو عمرو .

السحاب •• وسرعان ما يقابل مؤسسها عددا من الاثينيين الاناسيين •• فهذا شاعر ، وهذا كاهن •

ولكن مناديا ينادى أنه قد انتشر جنون الطيور • فتهرع الى المدينة جموع أخرى من الشخصيات الكريهة التى تحتاج للطيران لحل مشاكلها •

وأخيرا يتسلل الى المدينة شخص مغطى بالثياب الثقيلة ، وقد تبين أنه « بروميثيوس » الصديق التقليدى للانسان • وهو يحمل نبأ يقول : الآلهة فى حالة يرثى لها منذ تأسيس المدينة ، وأنهم قد يضطرون الى قبول أى شروط تفرض عليهم •• وبهذا تختم مسرحية طريفة فى سرور وضحك •

هكذا تؤكد المسرحية أن الطيور هى القادرة على حل مشاكل البشر • كما ترى ضرورة تجنب المشاكل التى ليس لها حل وشيك •

وخلال المسرحية يحقق البطل المستحيل ، فهو قد أنشأ مملكة نافس بها الآلهة ، واسترجع فحولة الشباب باستمالة زوجة كبير الآلهة اليه • وهذا الزوج الذى يمثل عقد مصالحة بين اضداد الانسان والآلهة ، هو فى نفس الوقت احتفاء بوجود عالم أفضل واحتفال بالفرح الجنسى لجسد جديد يؤكد حيوية النشاط الانسانى عندما يتحرر من القيود الميتافيزيقية •

***

وحديثا اكتشف الباحثون مسرحية يرجع تاريخها الى أواخر القرون الوسطى وهى بعنوان « رومان ومريون » لمؤلف الكوميديا

« آدم دى لاهال » الملقب بأحدب آرس ، وهى مسرحية غير دينية تحكى أن الراعية « مريون » كانت تفكر ، وهى فى المرج تحرس غنم جدتها ، فى حبيبها الراعى « رومان » وتتغنى بحبه ، فمر بها فارس خرج الى الصيد وعلى يده طائر الباز ، فوقع نظره على الراعية الجميلة وغازلها سائلا اياها عن دواعى غنائها ، فحكت له عن حبها لصديقها الراعى • ولكن الفارس يصرفها عن الحديث متسائلا عما اذا كانت قد رأت طيورا فى الناحية ، فترد (مريون) ساخرة منه • ويبدأ الفارس عند ذلك فى الكشف عن غرضه متلطفا ، ولكن (مريون) تعرض عنه ، وعندما يأتى حبيبها (رومان) تشكو له الفارس فيدعو أصحابه للانتقام منه ، ويلعب الباز دورا هاما فى الانتقام للراعية « مريون » من صاحبه الفارس •

وما أن حل عام ١٨٠٠ من عصر النهضة الذى شهد مولد الطبقة المتوسطة ، حتى ظهرت الدراما البرجوازية التى هاجمت تلك الطبقة ، وكان ذلك الهجوم هو السمة المميزة للمسرح ، وبلغ الهجوم ذروته فى مسرحية « الغربان » لهنرى بيك ومسرحية « البطة البرية » لابسن •

يعرض ابسن فى البطة البرية الحياة الخاصة لأسرتين تمثلان الطبقة الجديدة المتناحرة انتصرت أسرة (ويرل) بالخديعة والاحتيال على أسرة (اكدال) ، وقد ورثت احدى الأسرتين من الأخرى شيئين: فتاة ضعيفة البصر ، وبطة برية مكسورة الجناح مهجورة فى سقيفة ، ويعمل « ابسن » مبضعه فى أوصال أوهام المثاليات ، والاختراع والسعادة المنزلية •

ان السقيفة الصغيرة بأشيائها العديدة التى تحمل سحر الماضى وذكرياته الموحية ، والبطة البرية الأسيرة على أرض ليست أرضها فى زاوية منعزلة بجناح مكسور ، كل تلك الأشياء أجزاء من رؤيا واقعية تعتمد على تحطيم الوهم الرمزى •

ان عنوان المسرحية « البطة البرية » فى حد ذاته يرمز الى أكثر من شخصية فيها ، وبشكل خاص الى الصغيرة « هدفنج » التى تطلق النار على نفسها فى الخاتمة مؤكدة قدرتها البريئة الظاهرة على التضحية بحياتها فى سبيل المحبة ، وفى سبيل هناء الآخرين واتحادهم • انها حمامة سلام أخرى تنزف حتى الموت على الصليب • وها هو الأمل الخفى يشرق من قلب المأساة ، الأمل فى جيل نبيل يحل محل القسوة وانعدام المسئولية لدى الرأسمالى المتعجرف « ويرل » ، ولدى أولئك الذين يحلمون حتى ينسوا الأرض التى يقفون عليها فيتهالك الحاضر وتنضب الجذور ويظل المستقبل محض سراب • وتصبح السقيفة العتيقة مذبحا تستلقى عليه كل من « هيدفنج ، والبطة البرية » صديقتين برصاصة من أسرة « ويرل » •

ان فى هذه المسرحية ارهاصا ــ كما يرى بعض النقاد ــ بتأثير نظرية فرويد فى التحليل النفسى وتحليل الماركسية ، فان مفهوم خداع النفس ــ كما يشرحه فرويد يتأكد لدى شخصيات ابسن التى تشبه دمى ما يلبث أن يحطمها بمطرقته النقدية الجارحة فتنهال ترابا لا ندرى ان كان بسبب المأساة أم بسبب ضرباته المتحاملة •

أما تأثير الماركسية فى المسرحية ، فقد عورض هذا الرأى لأن ابسن لم يبدأ فى مسرحياته من منطلق ايجابى توافق عليه الماركسية • ولقد كان ابسن يكره الخضوع المطلق للواقع المادى تماما كما يكره الخضوع للوهم •

وتعرض مسرحية « مدموازيل جوليا » نفس الحالة فى نفس الطبقة ، ويظهر « استرندبرج » فى المسرحية التى ارتبط مصيرها بحياة طائر ــ اهتماما متزايدا بالخطيئة والجريمة والشذوذ ودراسة الطبيعة البشرية •

الآنسة جوليا هى ابنة كونت تجاوزت العشرين ، ماتت أمها ، فأصبحت سيدة البيت ، وتعيش معها الطاهية (كريستين) والخادم (جان) .

تبدأ المسرحيــة بجوليا تسقط وهى تحت أضــواء ليلة العيد وصخب الرقص والغناء والخمر ، بين فلاحى الضيعة ، فى يدى خادمها (جان) وتفيق من غشيتها ، فتظل تتمزق بين شتى النوازع الاعتبارية والطبيعية . ومن حوارها مع خادمها نعرف نشأتها وتاريخ أسرتها . فأمها كانت خادمة وقد رباها أبوها على أنها ولد . لذلك فان جوليا تكره الرجال . وعندما يسألها جان : وتكرهيننى أيضا ؟ ترد :

جوليا : كرها لا حدود له .. أود لو أقتلك كما يقتل الوحش .

جــان : كما تبادرين الى قتل كلب .. كلب .. أهذا صحيح ؟

جوليا : صحيح

جــان : ولكنك الآن لا تملكين ما تقتلين به .. وليس هناك كلب .. فماذا نحن فاعلون اذن ؟

جوليا : نرحل الى الخارج .

جــان : كيما يعذب كل منا صاحبه حتى الموت ؟

جوليا : لا بل لكى نمتع أنفسنا .. يومين أو أسبوعا ، طالمـا كانت المتعة ممكنة ثم نموت .. وبعد محاولات ومحاورات حول مشاريعهما المستقبلية .. يقرران السفر وفعلا .. يقول لها:

جــان : ولكن لا حقائب فهى تشى بنا

جوليا : لا . لا شىء على الاطلاق ، سوى ما نستطيع أن نأخذه معنا فى العربة .

جــان : (يدقق النظر فيما تخفيه) ما الذى معك ، ما هو ؟

جوليا : ليس الا عصفورى •• لا أستطيع أن أتركه ••

جـان : أهذا معقول ، أتصحبينه معنا ، عصفورا حيثما ذهبنا ، لابد أنك مجنونة ، أرمى هذا القفص ••

جوليا : انه الشيء الوحيد الذى آخذه معى من بيتى •• انه المخلوق الحي الوحيد الذى يحبنى منذ أن هجرتنى ديانا •• لا تكن قاسيا •• دعنى آخذه معى ••

جـان : قلت لك أرمى القفص •• ولا ترفعى صـــوتك بهـذا الشكل ••

جوليا : لا أستطيع أن أتركه فى أيد غريبـــة •• أفضـــل أن تقتله أنت ••

جـان : طيب أعطينى اياه •• سأكسر رقبته ••

جوليا : نعم ولكن لا تؤلمـه •• لا ، لا أستطيع ••

جـان : دعينى •• أنا أستطيع ••

جوليا : (تخرج العصفور من القفص وتقفله) أو يا طائرى الصغير أو لابد من أن يموت ويرحل عن سيدته ••

جـان : لا تمثلى مشهدا من فضلك ، ألا تعلمين أنها مسألة حياتك ومستقبلك •• تعالى بسرعة •• (يخطف العصفور منهـا ويحمله نحو العربة ويتناول ساطورا •• جوليا تدير ظهرها ووجهها) •• كان ينبغى لك أن تتعلمى ذبح الفراخ بدلا من اطلاق الرصاص (يهوى بالساطور) واذن لمـا أغمى عليك لمنظر نقطة من الدم ••

جوليا : (تصرخ) اقتلنى أنا أيضا •• اقتلنى •• أنت يا من تستطيع أن تسلب الحيـاة من مخلوق برىء دون أن تهتز فيـك

شعرة .. أوه انى أكرهك ، وأحتقرك .. ان بيننا لدما ..
لعن الله الساعة التى قابلتك فيها أول مرة ، لعن الله الساعة
التى دبت فيها الحياة فى وأنا فى رحم أمى ..

جـان : حسن .. ما فائدة كل هذه الشتائم ..

جوليا : (تقترب من القرمة وكأنها منجذبة اليها رغم ارادتها) ..
لا ، أنا لا أريد أن أذهب بعد .. لا أستطيع ..

ويؤدى أسف جوليـا على عصفورها الى تحويـل
خططها . ثم تدخل كريستين الخادمة ، وكانت تحب جـان
كواحد من طبقتها ، وتحقد على جوليا لعكس السبب وعندما
تخبرها جوليا بنيتها تسفهها وتهدم خططهما ..

كريستين : وفى مقدورى أن أخبر حارس الاسطبل آلا يخرج الخيل ..
فيما اذا أراد أى انسان أن يرحل قبل مجىء الكونت ..
الى اللقاء (تخرج) ..

جـان : (لجوليـا) أليسـت شـيطانة . .وكل ذلك من أجـل
عصفور ..

جوليا : (بكراهيـة) لا تذكر العصفور .. أتستطيع آن ترى أى
طريقة للخروج من هذا المـأزق للانتهاء منه ؟

ولكن جوليا تلجأ آخر الأمر الى الانتحـار بايعاز من خادمهـا
نفسه . وقتل العصفور بهذه الصـورة لم يكن الا مقابلا لقتل البراءة
والطهر وكل ما بقى لجوليا (ممثلة الطبقة) من حياة .

يقول « سترتدبرج » عن المسرحية : لقد ألهب صراع الأحزاب
الأذهان بحيث استحال على المتفرج أن يشعر بالحقيقة الخالصة المنزهة
فى مكان تقابل فيه أعمق معتقداته بالمعارضة وتمارس فيه الأغلبيـة
ديكتاتوريتها بالتصفيق أو الصفير ، لذلك أغرانى موضـوع مأساوى

سمعته يمكن أن يوصف بأنه غريب على صراع الأحزاب ، وقد تناولته كما روى لى منذ بضع سنوات ، فاذا كنا ما زلنا نحس احساسا مأساويا عندما نرى عملا سعيدا ينهار ، فسيزداد هذا الاحساس عندما نرى جنسا بأكمله ينهار . واذا كانت بطلة هذه المسرحية تثير الشفقة فلا ينتج ذلك الا عن ضعفنا وعجزنا عن عدم الاحساس بالخوف من أن تتعرض نحن أنفسنا لمصير مشابه .

ويسقط الطائر رمز الحرية ، صريعا أيضا فى مسرحية « الطائر البحرى » لتشيكوف ، كما حدث فى المسرحيتين السابقتين .

نينا ، فتاة جميلة تعيش على ضفاف بحيرة ساحرة ، وتحلم هناك بالمجد على خشبة المسرح . وتحب « نينا » ابن جيرانهم أسرة « تربيلوف » الذى فشل فى دراسته ، فألف مسرحية فشلت هى الأخرى ، ولعبت فيها « نينا » دور البطلة . وبسبب ذلك ، تحرم أسرة « نينا » عليها التردد على جيرانهم « أسرة تربيلوف » .

تقول « نينا » لحبيبها : أبى وزوجته لا يسمحان لى بالمجىء الى هنا . يقولان أن حياتكم بوهيمية ، ويخشيان أن أصبح ممثلة .

وتلتقى « نينا » بعشيق أم حبيبها « تريجورين » فى ضيعة تملكها الأم ، وتقع فى حبه وما أن يكتشف « تربيلوف » هذه العلاقة المفجعة ، حتى يدخل على « نينا » جبينه بلا قبعة وبيده بندقيته وطائر بحر (نورس) قتيلا ، وطالما شبهت « نينا » نفسها بهذا الطائر فى أول المسرحية . ومن حوار « تربيلوف » معها تتعمق دلالة هذا الطائر عليها .

تربيلوف : أنت هنا وحدك ؟

نينا : وحدى (يضع طائر البحر تحت أقدامها) ..

تريبلوف : كنت اليوم جبانـا لدرجـة أننى قتلت هـذا الطـائر (النورس) ••

نينـــا : ماذا جرى لك (تأخذ الطائر وتحدق فيه) ••

تريبلوف : (بعد برهة صمت) قريبا سأقتل نفسى بهـذه الطريقـة ذاتهـا ••

نينـــا : أكاد لا أتعرف عليك ••

تريبلوف : نعم بعد أن أصبحت لا أتعرف عليـك •• لقـد فترت عواطفـك نحوى وبردت نظـراتك وأصبحت تضيقـين بوجودى ••

نينـــا : أنت فى الفترة الأخـيرة عصبى جدا •• تعبيراتك كلهـا غموض ورموز وطلاسم ، ولابد أن هذا الطائر يرمز الى شىء •• لكنى أعتذر لعجزى عن فهم مرادك (تضـع الطائر على الأريكة) أنا أبسط جدا من أن أفهمك ••

تريبلوف : ترجع بداية كل هذا الى ذاك المساء حين لاقت مسرحيتى الفشل •• النساء لا تغتفر الاخفاق (يلمح تريجورين) الذى صار عاشق نينا بعده قادما يقرأ كتابا ، فيشير لها اليه ها هى الموهبة الحقيقة •• انه يمشى مثل هاملت •• وهو أيضا يحمل كتبا (ليكايدها) كلمات •• كلمات •• هذه الشمس لم تقرب بعد منـك ، ولكنـك بدأت تبتسمين وأخذت نظراتك تذوب فى أشـعتها ، لن أعكر صفوكما (ينصرف سريعاً) •

يتقدم تريجورين •• يتحـاور مع نينا حول مغادرته الضيعة •• ويبدى لها رغبته فى معرفتها أكثر •• يقع نظره فى هذه اللحظة على النورس القتيل ، فيسألها :

تريجورين : وما هـذا ؟

نينـــا : هو طائر البحر قتله تربيلوف .. ما الذى تكتبه ..

تريجورين : أسجل خاطرا .. فـكرة تراودنى (يخفى الكتـاب) .. مشروع قصة قصيرة عن فتاة مثلك شابة .. تعيش منذ الصغر على شاطىء بحـيرة ، وهى كطـائر البحر تعشق البحيرة ، كانت سعيدة طليقة .. وبالصدفة جاء شخص ولمحها فقتلها لمجرد التسلية كهذا الطائر ..

ويمضى عامان يفصلان بين أحداث الفصل الثالث .. والرابع .. وفيهما يحدث .. ما كان يتوقعه أهل نينا لها .. تهجر أسرتها لكى تذهب الى المسرح فى موسـكو حيث يعيش تريجورين . غير أن علاقتهمـا تنتهى بمأساة ، اذ يتسرب الفتور الى غرامه بهـا فيعود الى حبـه القديم .. وبذلك تكون توقعات (تربيلوف) لها قد تحققت . ثم تتحطم حيلة « تربيلوف » تبعا لذلك .. وكان قد حـاول الانتحار بعد أن هجرته نينا .. غير أنه فشل .. فواصـل الكتابة .. وصادفت قصصه شيئا من النجـاح فى المجـلات الكبرى .. بيد أن حياته تخلو من السعادة لأنه يعجز عن التغلب على حبه لنينا .. وتصبح « نبنا » بعد ذلك ممثلة من ممثلات الأقاليم ، وتزور مسقط رأسها بعد غيـاب طويل ، وهناك تلتقى بـ « تربيلوف » وتشكو له تعاستها بفقد حبيبها ووحيدها منه .

نينـــا : أنت لا تدرك مـدى الفظاعـة فى آن تحس بأن تمثيلك سخيف ، أنا طائر البحر ، لا ليس صحيحا .. هل تذكر طائر البحر الذى قتلته .. (تسرح) وبالصدفة جاء شخص ورآه فقتله لمجرد التسلية موضـوع قصة قصيرة (تنتبه) ليس هذا ما يعنينى ، تمسح جبهتها بيدها .

تربيلوف : (يهون عليهـا) لقد وجدت طريقك وأصبحت الآن تعرفين

الى أين تمضين ، أما أنا فمازلت أتخبط فى فوضى التهويمات والرمز دون أن أدرى لهذا كله مآلا أو جدوى . اننى لا أومن بشيء ولا أدرك لوجودى رسالة .

ولكن « نينا » تحب « تريجورين » .. وهو ما يعذب « تربيلوف » . ثم نرى « شامرايف » وهو يقود تريجورين بعد أن سأله شيئا الى الدولاب .

شامرايف : (يخرج من الدولاب طائر البحر المحنط) تفضل ها هو الشيء الذى طلبته منى .

تريجورين : (الذى ينظر الى طائر البحر) ، لست أذكر .. ومن اليمين خلف المسرح يدوى عيار نارى .. فنعرف أن « تربيلوف » قد انتحر . وبذلك تنقطع حياته فى منتصفها كما توقع بالنسبة للنورس طائر البحر ، لحن التحليق فى الآفاق البعيدة والانتصار ، الذى كان يتمناه تشيكوف لبلده روسيا .

ان عجز الطبقة المتوسطة عن امتلاك الحرية وتحقيقها يقابله فى المسرحيات الثلاث اغتيال . البطه البرية ــ عصفور جوليا ــ طائر النورس .. وتعطينا صورة واضحة عن الحيرة والقلق التى عاشتها هذه الطبقة .. بعد أن انقلبت مسيطرة قاتلة للحرية مجسدة فى طيور مسرحها ومرهصة بتغييرها .

فقامت الحرب العالمية الأولى .. وأحدثت ويلاتها أزمة فى الضمير العالمى . تمخضت عن حدثين كبيرين . أولهما فى العالم الغربى حيث فقد رجال الأدب والفن ثقتهم فى العقل الواعى وقدرته على قيادة البشر فى طريق السلامة أو السعادة وأخذوا يبحثون عن منابع القيادة فيما سماه فرويد ومدرسته بمنطقة اللاوعى من العقل

البشرى وحاولوا فيها تفسير نشأة المجتمع والدين والحضارة وتطورها •

أما العالم الشرقى فقد حدث به انفجار الثورة الاشتراكية وتمخضها عما تسميه بالواقعية الاشتراكية فى الأدب وهى واقعية متفائلة تؤمن بالانسان وتكشف عن مواضع القوة فيه حتى يسترد الانسان ثقته فى نفسه وفى أخيه الانسان •

واذا تتبعنا الطيور فى أى من العالمين •• وليكن الغربى •• نجد أن الحركة التعبيرية ـ التى ازدهرت فى الهجوم على الأجيال السابقة حيث كتب جان كوكتو الصقر ذو الرأسين وكتب (شون أوكيزى) المسرحى الايرلندى والنقابى الذى يشيد فى أعماله بكفاح شعب دبلن (الديك الماهر) و (جونو والطاووس) ـ ولكن هذه الحركة قد انطفأت بعد حوالى عشر سنين وأصبح الأدب بأجمعه صرخة حارة فى سبيل أدب جديد يعبر عن انسان جديد وقيم جديدة تحقق العدل والحرية والكرامة والاخاء البشرى دون أن تفقد الطيور دورها •

فيكتب متشائم كجان آنوى عن جان دارك •• ويختار لها اسم ووصف (القبرة) فهى الفلاحة البسيطة العنيدة الماكرة القديسة الطفلة التى قدت على مثال البدائية •• لا أحد يستطيع خيرا مما تستطيع هى بطهارتها التى لا يمكن قهرها أن تصلح ما بين آنوى ومن يرى رأيه من جهة وبين بشرية مخيبة للآمال من جهة أخرى •• لا أحد يستطيع ذلك خيرا من تلك التى تختار الموت حرقا على التنكر لنفسها ولماض نظيف آمنت ومازالت تؤمن به •• هذا الى أن الدنس يعرف طريقه اليها قط على خلاف جميع بطلات المؤلف وأبطاله تقريبا •

ويتساءل « موريس ميترلنك » فى « العصفور الأزرق » هامسا

عن المآسى والمهازل التى شهدها العالم منذ مولد الاحساس : أمن المجازفة أن نؤكد أن مأساوية الحياة الحقة هى المأساوية العادية العميقة العامة • وهى لاتبدأ الا فى اللحظة التى ينتهى فيها ما يسمى بالمغامرات والآلام والأخطار ، ألا يكون للسعادة باع أطول من الشقاء ؟ ألا تزداد بعض قواها اقترابا من النفس البشرية ؟ هل لا بد من العويل مثل آل اتربوس حتى يظهر اله خالد فى حياتنا •

ألا يجىء هذا الاله ليجلس فى نور مصباحنا الذى لا يتحرك ؟ •

يتصور « ميترلنك » رحلة شيقة يرحل فيها صبى وصبية باحثين عن السعادة المتمثلة فى الطائر الأزرق •• مرا خلالها بكشوف كثيرة فى جواهر وسرائر الأشياء والطبائع وبعد مانال منهما التعب ، عادا الى بيتهما الصغير (الكوخ) ، وعندما فتحا عينيهما فى الصباح وجدا فى القفص الموجود بجانبهما الطائر الأزرق ، ولوكانا قد دققا النظر لوجداه بين ظهرانيهما ولعرفا أن السعادة على قيد خطوة وهما لا يعرفان ويرمز الطائر الأزرق للسعادة والرضا بين البشر •

واذا كان النقاد يذهبون الى أن مسرح تنسى ويليامز قد عرض الفرويدية بأجلى معانيها فانهم يكونون قد أغفلوا حلقة الوصل بينهما وهو الروائى د • هـ • لورانس •• الذى كتب سلسلة من القصائد الهامة بعنوان « طيور وحيوانات وأزهار » ، « الطاووس الأبيض » ومجموعة رسائل تحت عنوان العنقاء وقد نسج ويليامز مسرحية من خياله تدور حوادثها فوق الريفيرا الفرنسى حول موضوع وفاة لورانس أسماها « أقوام ملتهبة » أو صرخة العنقاء وهو ما يؤكد أن مسرحيتى

تنسى ويليامز (١) . (طائر الشباب) و (هبوط أرفيوس) (٢) .. صيغة أخرى من قصة (الثعلب) (٣) للورانس ..

« هبوط أورفيوس » (١) .. ظهرت أولا باسم (معركة الملائكة) ولكنها لم تقابل نجاحا فى بوسطن .. فعاد ويليامز الى مسقط رأسه ليكتبها مرة أخرى تحت عنوان (لا مكان للعندليب) فلا تنجح..ولكن ويليامز يظل يعود الى مسرحيته سبعة عشر عاما حتى تنجح أخيرا باسم جديد هو (هبوط أورفيوس) وبطلها فال يمثل . دور أورفيوس فى الأسطورة الأغريقية حين نزل بهذه المدينة العريقة من الجنوب والتى تشبه الجحيم .. لينقذ ليدى من تلك الحياة المرة القاسية التى كانت تحياها مع زوجها .. ولكنه يشبهها بقصة الثعلب للورانس . لأن نزوله الى مدينة الجنوب يحدث ما أحدثه الثعلب فى حظيرة الدواجن.

يقول (فال) (لليدى) فى معرض التفاؤل بالمستقبل فى مسرحية (هبوط أورفيوس) :

هناع نوع من الطيور ليست له أرجل ، لذا فهى لا تستطيع أن تحط على شيء بل عليه أن يبقى طيلة حياته معتمدا على

---

(١) طائر الشباب : عرض كفيلم سينمائى بنفس الاسم بطولة فيفيان لى .

(٢) هبوط أورفيوس : عرض كفيلم سينمائى تحت عنوان جلد الثعبان بطولة مارلون براندو . وآنا مانيانى .

(٣) الثعلب : عرض كفيلم سينمائى تحت عنوان نساء عاشقات بطولة شيرلى ماكلين .

(١) أورفيوس فى أساطير اليونان منشد عظيم من تراقيا . ابن ربه الشعر كاليوبا وأبولو . كانت ألحانه وأناشيده من الروعة بحيث تسحر الوحش والطير والشجر والحجر .... تزوج الحوريه يوريكا فلما ماتت حزن عليها حزنا شديدا ونزل الى عالم الموتى (هاريس) يبحث عنها . وهناك سحر اليه العالم الآخر فسمع له بأن يأخذ زوجته بشرط ألا ينظر الى الخلف حتى يصل الى الأرض ولما لم يستطع ذلك فقد زوجته مرة ثانية فعاد الى تراقيا حاقدا على كافة النساء ، لذلك قررت مجموعة من عابدات باخس أن يقتلنه انتقاما لبنات جنسهن .. وينسب اليه المذهب الاورفى .

أجنحته فى السماء ، هذه حقيقة ، وقد رأيت واحدا من هذه الطيور ذات مرة .. مات وسقط على الأرض .. كان لونه أزرق وجسمه بالغ الصغر فى حجم أصبعك الصغيرة وزنه خفيفا لا يزيد على وزن ريشة لو وضعته على راحة يدك .

ولكن جناحيه كبيران لونهما فى لون السماء شفافان وهذا ما يسمونه باللون الواقى أو لون التعمية ، ولا يستطيع المرء أن يميز تلك الطيور فى السماء ولذا فالصقور لا تمسك بها لأنها لا تراها .

وترد « ليدى » بواقعية من يعرف ما يخبئه القدر .. أخشى أن يكون هذا النوع من الطير مجرد كائن فى خيالك .. فأنا لا أعتقد أن هناك كائنا على وجه الأرض له كل هذه الحرية وحتى ما يقرب من ذلك .. أرنى واحدا من هذه الطيور ، وعندئذ سأقول حقا لقد خلق الله كائنا واحدا كاملا .

وفى حديث آخر بين فال وكاسندرا ــ احدى الأرستقراطيات اللائى صادفهن ــ يأتى رأى ويليامز فى الحرية .. وكيف قيدت فى هذا العصر .. تقول كاسندرا لفال : أنت طائر كاسر وأنا أرستقراطية ، كلانا شىء لم يعد يسمح بوجوده فى العالم المتحضر ، كلانا مقضى عليه بالهلاك . لنفس السبب . لأننا ننشد الحرية . اعلم جيدا أنك أفضل منى بل أفضل كثيرا ، فأنا فاسدة مضطربة الأعصاب .. لقد فسدت ماؤنا بالافراط فى مخالطة الأنواع الأخرى . ها هم قد أقاموا المقصلة، لا فى ميدان الكونكورد بل هنا فى داخل أجسادنا .

ولكن كلمات كاسندرا عن امتياز فال (الطير الكاسر) رمز لمأساة الشاعر والفنان وعزلته فى هذا العالم . لأنه دائما الرجل العاطفى المتمرد على التقاليد وهو الانسان الخلاق وآخر الآثار الباقية من ثقافة عفا عليها الزمن .

كل هذه الامتيازات عن الطبقة الارستقراطية الفاسدة ـ تعميم لم يستفد منه فال فقد التفت حوله الغوغاء وقتلته حرقا ..

وعندما جاء المأمور المحقق ، ليقول للجميع لا يتحرك أحد من مكانه كان كل شيء قد انتهى .. وتبدلت الأمور والأحوال ليس فى حياة ليدى الأرستقراطية فقط .. ولكن فى حيـاة العالم كله فقد قامت الحرب وتمخضت عن أزمة ضمير أخرى أطاحت بايمان العالم الغربى بقواعد الأخلاق والمبادىء الروحية المتوارثة .. فسمعنا عن المسرح العبثى واللامعقول والمـادية ومسرح بريخت .. وهى أجواء تعكس قلقا انسانية لا يأبه لمـا يرمز اليه الطير .

ولكن ما أن بدأ المسرح التسجيلى الا وعادت الطيور تدلى بدلوها فنجد الألمانى « مارتن مالزور » وهو من أهم أعمدة هـذا النوع المسرحى .. يتخذ البجعة السوداء محور ارتكازه .. لأهم مسرحياته .. فالبجعة السوداء تعطى الايحاء بالحاضر والمستقبل فى كل واحد متماسك .. يجعله يتخطى الوقوع فى وصف تفاهة الحياة الحاضرة وأن يكتشف فى تاريخ الناس الأشـياء والأحـداث بعدا جديدا يمكننا أن نسميه بمصطلح « وليام فوكنز » الزمن الاسطورى الذى هو فى حقيقته اكتشاف أبعد عمق ممكن وراء اللحظة الحاضرة ممتزجة بتفاصيل من الخيال تجمعها عملية (مونتاج) صورة بريئة للعالم تخترقها شظايا الوعى .

***

واذا كانت الطيور التى ترمز للأبناء قد استشهدت على المسرح الغربى تحريضا للآباء على الثورة ضد كل الأوضاع الفاسدة . فقـد كانت فى شرقنا العربى صيحة الأسلاف على الأبناء حتى يحرروا بلادهم من الاستعمار .. وثلاثية الأديب الجزائرى ، كاتب ياسين « الجثة المحاصرة » و « الاسلاف يتميزون غضبا » ، ثم « العقاب » أو « طائر الموت » ، شاهدنا على ذلك .

تحكى « الجثة المحاصرة » التى عدل اسمها وجعلها « المرأة المتوحشة » عن صراع الفلاحين ضد الحكم التركى الذى سبق الاحتلال الفرنسى للجزائر .

ومن بين جثث القتلى ، وركام الجرحى ، يخرج « الأخضر » جريحا ، وتراه جبيبته « نجمة » ، فتسرع اليه تعاونه على النهوض والاختفاء . ولكن الرصاص سرعان ما يعلو على عتاب المحبين ، وتضطر نجمة الى الفرار بعد فشلها فى مساعدة الأخضر . وعندما تعود تجد أن ابنة القائد الفرنسى العاطفة على القضية الجزائرية قد التقطته فى عربتها ، ويكتشف القائد وجوده ، فيساق الى التعذيب ليدلى بمعلوماته ، ويجن .. وأمام هذا كله ، لا يملك مربيه الا أن يطعنه طعنة الموت ، وهو يزأر « أيها المجاهدون .. لا تتركوا مخابئكم ، ان المعركة ما زالت دائرة » .

بهذه الجملة تنتهى المسرحية : لم يبق هناك حب ، لم يبق أحد ، لم يبق أحد لم يبق الا أنا . لم يبق الا أنا .. طائر الموت ، رسول الاسلاف ، وطائر الموت هذا هو العقاب الذى أصبح رمزا للأخضر، فبعد أن كان الأخضر يقود حركة المقاومة ، أصبح العقاب روحا تهيمن على الثوار وتشحذ عزيمة المجاهدين ، وكما أن العقاب هنا هو البديل الرمزى للأخضر ، فالأخضر نفسه البديل الأدبى لكاتب ياسين .

ولعلنا نجد فى الأصل البدوى الذى ينحدر منه كاتب ياسين تفسيرا لتلك القوة الغريبة التى تشده الى الأجداد ، وكأنه يتمثلهم طيورا جارحة لا تجد سبيلا الى الراحة ، أو قتلى تكاسل أحفادهم عن الثأر لهم ، فاذا بهم يواجهون عقابا هرما يحوم فوق رؤوس الأحفاد يحاصرهم ويسد عليهم الآفاق ، ويستصرخ فيهم المروءة والشرف ، ويهيب بهم أن يناضلوا من أجل استقلال البلاد .

الروايـة

منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تقدم فن الرواية بشكله المتعارف عليه الآن على غيره من فنون الأدب ، وظهر عدد كبير من الروايات التى تعالج الأوضاع الاجتماعية والاقتصـادية معالجة بلغت من الدقة والعمق حدا لم يطاوله فن آخر . وقد صدرت بعض هذه الروايات بأسماء طيور ذات دلالة خاصـة على موضوعاتها كرواية « الطاووس » للكاتب الانجليزى « د.هـ. لورنس » الذى كتب أيضا مجموعة من الرسائل بعنوان « العنقاء » .

وقـد أراد الكاتب الأمريـكى « وليام فوكنر » فى روايتـه (العنف والصخب) أن يوضح أثر عوامل الوراثـة فيما يتميز بـه الأمريكيون فى الجنوب من الصخب والعنف فجعل ابنـة أخت البطل تهجر منزل الأسرة وتهرب بعد أحـداث وملابسات تشبه تلك التى وقعت لأمها التى هجرت هى الأخرى بيتها وقتلت الفتـاة عصفورها الأثير قبل فرارها كما حدث فى مسرحية « الآنسة جوليا » لسترندبرج . وان كان العصفور فى المسرحية قد قتل بيد العشيق .

ومن أشهر الروايات الرمزية التى ظهرت فى القرن العشرين والتى تصور وضع الانسان الحائر بين الشرق الذى يمثله الاتحاد السوفيتى والغرب الذى تمثله أمريكا ، روايتا (١) « جورج أورويل » « العالم

---

(١) جورج أورويل : (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠ م) . الاسم المستعار للمؤلف الساخر اريك بلير ، ولد فى الهند ، واشترك فى الحرب الأهلية الأسبانية .. وبرغم ميوله =

سنة ١٤٩٨ » و « أسطورة الحيوانات الثائرة » التى صور فيها قيام النظام البولشفى ، ثم قتل « ستالين » « لترتسكى » من خلال تصويره المجتمع وكأنه الغاب التى يحكمها مبدأ البقاء وقد تنبأ « جورج أورويل » بما حدث بعد ذلك بين العسكريين من تقارب تطور فيما بعد الى ما سمى بالوفاق •• ففى « أسطورة الحيوانات الثائرة » يتم ضبط صاحب المزرعة وهو يتاجر فى « الدواجن » مع الغرب •

وحديثا ظهرت رواية « طيور الشوك » وهى من مستوى ونوع « رواية ذهب مع الريح » وقد حققت رقما قياسيا فى مبيعاتها ، وتتناول ثلاثة أجيال من عائلة واحدة تعمل فى تربية الأغنام والمواشى وتتخذ شعارا لها (طائر الشوك) • وهو طائر يبحث عن شجرة الشوك ويندفع اليها لينتحر وهو يغنى •

تقول المؤلفة « كوكين مككولو » ان ثمة أشخاصا كهذه الطيور• وتحكى الرواية قصة حب ملتهبة بين البطلة « ميجى » والكاهن الأب « رالف » ولكن الخبر يتسرب الى الفاتيكان وهناك يراجعونه ويردونه عن هذا الحب •

وقبل « طائر الشوك » صدرت فى أمريكا رواية « نورس القلب الشريد » للروائى « ريتشارد باخ » وقد أثارت دهشة وفضول النقاد سواء فى أمريكا أو فى أوربا ، وحققت رقما كبيرا من المبيعات رغم خلوها من كل أثر للحب والعنف أو الفضيحة ، فأبطالها ليسوا من الرجال أو النساء وانما بطلها الوحيد هو طائر « النورس » الذى عاش مأساه بشرية اذا جاز هذا التعبير •

= اليسارية المتطرفة فقد عبر عن خشيته على الحرية الفردية من تسلط السلطة الحاكم. عليها فى روايته « مزرعة الحيوان » سنة ١٤٩٦ وقد ترجمت الى العربية . وفى روايته « العالم سنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩ » يصور عالما سيطرت عليه القوة وتحكم فيه البطش وانعدمت الحرية انعداما تاما .

على شاطىء جميل هادىء من شواطىء أمريكا يعيش النورس الطيب الرقيق « جوناثان ليفنجستون » وسط أسرته وفى مجتمعه من طيور النورس ، ولكن « جوناثان » يحيـا بينهم غريبا مستوحشـا مستوحدا ، فبينما يتعلم أقرانه الصـغار الطيران لصـيد الديدان والأسماك يهتم جوناثان بتعلم الطيران فى الأعـالى انه يحب أن يحلق فى الجو ويطمح الى السمو فوق الواقع حتى يكتشف أسرار الوجود ويرفض أن يكون وجوده مكرسا لمجرد الغذاء والنوم مثل أقرانه المتواكلين ويحلق « جوناثان » عاليـا ، وتعصف الريح بجناحيـه الضعيفتين ويهوى الى المـاء وهو يهذى من الالم : « لا شفاء لقلبى الشريد » .. ما أنا الا نورس مسكين حددت الطبيعة طاقتى ولو كانت تريد لى أن أطير لزودتنى بأجنحة النسور ولزودت رأسى بقدرة على التخطيط ومعرفة الاتجاهات . لقد كان والدى على حق . يجب أن أنسى هـذا الجنون . يجب أن أعود الى القطيع وأرضى بالحياة معهم ومثلهم وأقنع بمجرد صيد الديدان والأسماك » . ولكن ما ان يطلع اليوم التـالى حتى يعاود « جوناثان » اشـتهاء الطـيران ويعـاود تمريناته ويكتشف أنه بالرغم من طاقاته المحدودة يستطيع التحليق اذا استغل عقله .

وها هو يحـاول من جديد أن يكتشف كيف ينبغى أن يحرك جناحيه أثناء الهبوط وكيف ومتى تأتى لحظة الخطر وكيف ينجومنها واستطاع أخيرا أن يتقن الطيران بسرعة ٢١٤ ميلا فى الساعة وهو أمر لم يسبق لنورس أن حققه .

ولكن حكماء اسرب وزعماءه يحاكمونه ويفاجأ بطرده من القطيع لأنه تجرأ على تقاليد أسرة النوارس «وخالف نظامهم ولا يحق للنورس» الا أن يأكل ويظل حيا أطول وقت ممكن » .. وغادر « جوناثان » القطيع ليعيش وحده فى المرتفعات المشرقـة على البحر واكتشـف أن

العجز والخوف والغضب التي تجعل حياة النورس قصيرة بسبب القهر الذي يمارسه المجتمع معه ، يمنعه من الطيران وها هو « جوناثان » يكبر دون أن يشيخ وانما تزداد طاقاته على التحليق بشكل مذهل يطير حتى يصل الى عنان السماء •

وذات مساء يفاجأ « جوناثان » بوصول طائرين من النورس شفافين أجنحتهما من نور وهب يقتادانه الى بلاد النوارس التى تعرف الطيران • ويظن أنه فى السماء ، لكنه يكتشف ان خلف هذه السماء سماء أخرى وخلف معرفته بالطيران معرفة لا تنتهى •

ويكتشف جوناثان على يدى معلم النوارس « شيانج » أن بوسع النورس أن يتجاوز بطيرانه سرعة الصوت وحتى سرعة الضوء وأن يطير بسرعة الفكر ، ويسأله : هذا العالم ليس السماء • أليس كذلك ؟ ويرد المعلم « شيانج » انك تتعلم بسرعة ياجوناثان ويعود يسأل : ومتى أصل الى السماء فيجيبه ستبدأ بلمس ملكوت السماء فى اللحظة التى تصل فيها الى الطيران المثالى ، يصبح جوناثان الابن الروحى لشيانج يعلمه حتى الطيران عبر الزمن الى الماضى والمستقبل ويقول له « ان أصعب طيران وأمتع طيران هو الطيران الى عوالم البهجة واكتشاف معنى الحنان » • ويختفى شيانج ويكون صدى كلماته عودة جوناثان الى الأرض فيهبط من السماء عائدا الى قومه ويلتقى مع « فليتشرليند » وهو نورس صغير يحاول وحده أن يتعلم الطيران وكذلك النورس « سار لزلاند » وتتسع حلقات الثوار الصغار • وذات يوم يسقط نورس كان يحاول التحليق ويموت ، ولكن جوناثان يحييه من الموت •• ويعلن للجميع أن تقاليدهم يجب أن تتبدل وأن قانون الحرية يجب أن يسود •• وتحاول جماعات النوارس صلبه وقتله لكنه بما أوتى من قدرة على الطيران عبر الزمان والمكان ينجو منهم ويظل قلبه رغم هذا! ينبض بالحب لهم • وحينما يسأله نورس صغير

من تلاميذه كيف تستطيع أن تحب رعاع النوارس الذين حاولوا قتلك . يرد جوناثان : أوه يافلتس النورس . أنا لا أحب ذلك بالطبع أنا لا أحب الكراهية والحقد لكونى أحب الخير فى أعمال كل نورس وأحس أن واجبى أن أساعد هم على اكتشاف ذاتهم على ادراك معنى الحب داخلهم .

ان دعوة جوناثان هى دعوة المسيح .. دعوة الى الحب والحنان الذى سمى به . وتبدو الرواية بهذا المعنى تعبيرا عن احساس الأمريكيين بالذنب بعد جريمتهم العظمى وهزيمتهم النكراء فى فيتنام.

واذا كانت دعوة جوناثان موافقة لدعوة المسيح فى العهد الجديد.. فان من الروايات ما يخالف ما جاء فى كتاب العهد القديم من حقائق أقرها الاسلام من بعده من ذلك أن مارك توين فى روايته (يوميات آدم وحواء).. نسج قصة حول تسمية المخلوقة الجديدة (حواء) للأشياء والحيوانات .. يقول آدم حسب تعبير مارك توين : ليس لدى فرصة لتسمية الأشياء بأسمائها ، ان المخلوق الجديد يطلق اسما على كل شيء يقابله دون أن يترك لى فرصة الاعتراض .. وهو دائما يقدم لى نفس العذر فيقول : آنه يشبه شيئا ما .. فهذا الطائر مثلا يشبه طائر الدود ، وهو من الطيور المنقرضة منذ أواخر القرن السابع عشر تقريبا وهو معروف بقبح شكله وبكبر حجمه الذى كان يماثل حجم الديك الرومى ، وبعدم مقدرته على الطيران . ويكنى به عن الغباوة ــ ولذلك يجب أن يطلق عليه هذا الاسم .

ومن الغريب أنه لا يشبه طائر الدود لا فى قليل ولا فى كثير مع أن التوراة تقول . فأكملت السموات والأرض كل جندها وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ، ووضعه فى جنة عدن ليعملها .. وجلب كل حيوانات البرية وكل طيور السماء ليرى ماذا يدعوها . وكل مادعا

به آدم ذات نفس حية فهو اسمها • وقال تعالى فى القرآن الكريم « وعلم آدم الأسماء » •

ولم يغفل الأدب العربى الحديث عن الطيور سواء فى القصة القصيرة أو الرواية • كتب طه حسين « دعاء الكروان » وكتب توفيق الحكيم « عصفور من الشرق » وتأتى فى مقدمة روايات الطيور « السمان والخريف » لنجيب محفوظ و « العنقاء » «للويس عوض» وطيور الحب « لعبد الله الطوخى » و « الديك الأحمر » لفاروق منيب و « للكتاكيت أجنحة » لعبد العال الحمامصى ، و« مذكرات دجاجة » لاسحق الحسينى ، و « عودة الطائر الى البحر » لحليم بركات •

وتتنبأ احدى الروايتين الأخيرتين وهما عن قضية فلسطين بالنكسة والأخرى بمواجهتها • فقد صدرت « مذكرات دجاجة » فى يوليو ٤٣ وصدرت « عودة الطائر الى البحر » بعد يوليو ١٩٦٧ ••

يقع الديك فى حب الدجاجة الفلسطينية فيموت وتصبح الدجاجة أسيرة الأرض التى دفن بها الديك وعندما تفد اليها دجاجة ضالة تبحث عن غذاء لها ، تلقى الدجاجة العاشقة عليها درسا فى الوطنية وتنصحها بألا تغادر وطنها ، وألا تفعل كما فعل غيرها من الدجاج المهاجر •

كانت « مذكرات دجاجة » تدعو الى الكفاح السلمى ، وعلى خلاف ذلك دعت (عودة الطائر الى البحر) الى النضال والمجابهة ••

« رمزى صفدى » فلسطينى ، مثقف ، شديد الحساسية ، حزين القلب ، أراد ان يعيش تأثير حرب الخامس من حزيران « يونيو » فيذهب مع أحد الوفود لمعاينة الخراب والتدمير • ولكنه يهجر الوفد ويواصل طريقه بمفرده لكى يعيش كل شىء بتأثيره الحقيقى ويفقد أحساسه بالزمن وبجدوى الحياة ، فها هو كل شىء يموت •• الأطفال والنساء والعجائز ، حتى الحمام رمز السلام لا وجود له لقد أفنته

الحرب أو شلت قدرته على الطيران • مثلما حدث للانسان العربى الذى يقف مكتوف اليدين أمام المأساة ويمثله رمزى صفدى •

وفى احدى المستشفيات يلتقى البطل بالممرضه « باميلا » التى ترعى المحترقين بقنابل النابالم • ورغم مظاهر الدمار والخراب والكآبة الشاملة فمازال الأمــل يملأ قلب رمزى • ويدور حوار بينه وبين نفسه •• أنه أنسان وأن يكون المرء أنسانا حقيقيا يعنى أن يكون ذاته هو ، وأن يسمو فوق المذاهب والتيارات والتى يضطرب بها العالم من حوله • أنه انسان حقيقى وأنه عربى رافض ومرفوض لأن كلا من الفريقين المتنازعين على سيادة العالم يريد أن يكون تابعا لها يطلب منه أن يقف يسارا أو يمينا •• واذا اختار أن يكون وسطا اكتسب عداوة الاثنين وتحالفا معا ضده •

ويواصــل البطل طريقه بحثا عن رفيق تشتعل نــار الثورة فى قلبه ويؤمن مثله ان القوة هى طريق الخلاص • ويمضى باحثا وهو لا يفتأ يذكر لنفسه ساخرا أن العدو كان قد أطلق على خطته العسكرية لتدمير المدينة اسم « الحمامة » •

عن المؤلف الموسيقى بجمال الطبيعة ، وجذبت سمعه بصـورة خاصة أصوات الطيور • ولصوت كل طائر ايحاء يثير عقل ووجدان السامع • فصوت « الكروان » مثلا يتدرج فى تسلسل سلمى يوحى بالتطلع والنداء وتخضع أصوات الطيور للقوانين الموسيقية ، ويمكن قياسها وتقدير درجاتها ومقاماتها • فالديك تشـكل صيحته نغمـا موسيقيا يقدر بمسافتين الأولى صاعدة والثانيـة هابطة ، وترنيمـة اليمامة القصيرة تؤلف عبارة موسيقية منتظمة حاكاها الفن الشعبى المصرى بكلمات منغمة تقول : وحدو ربكو ، ست فاطمة عندكو ••

وتكاد أعمال الموسيقيين من الكلاسـيكيين حتى عصر الجاز ، لا تخلو من التعبير عن أصوات الطيور • وقد اتسع مجال هذا التعبير ابتداء من العصر الكلاسيكى وبلغ ذروته فى العصر الرومانسى ، حيث بدأ المؤلفون الموسيقيون يرسون دعائم التعبير عن ذواتهم ومشاعرهم الخاصة •

***

كانت المؤلفات الموسيقية فى عصر « الباروك » عصر « هيندل » و « باخ » تكتب للكنيسة والبلاط ولأن طبقات الشـعب الدنيا لم تكن تستمتع بهذه المؤلفات الا فى الأعياد العامة فقد تميز فن الباروك بالفخامة والأبهة الأرستقراطية • ورغم أن وحدة الأسلوب فى التأليف قد ربطت بين كل وسـائل التعبير التى سادت فى هـذا العصر أى

الموسيقى الدينية والدنيوية على السواء فقد تعرضت هـذه الحقبة التاريخية (١٦٧٠ ــ ١٧٧٠) الى متغيرات متطرفة فى الموسيقى وفى الأفكار الأساسية لجمالياتها • وذلك انه رغم التزام المؤلفين بارضاء رغبات القصر والكنيسة الا أنهم كانوا يجنحون كثيرا الى التعبير عن أنفسهم ، فاستلهموا الطبيعة وشدت أسماعهم أصوات الطيور واتخذوها كلسان حال لهم ، بل كتب المؤلفون موسيقيون أعمالا خاصة للطيور : مثل « رقصات الكوكو » « لفرسكو بالدى » و « لفيفالدى » واستهل « هيندل » « أوبرا لارينالدو » بمحاكاة أصوات الطيور الى جانب كورال كامل عن طيور سليمان •

وتميز العصر الكلاسيكى عصر « هايدن » و « موتسارت » بالنزوع الى توسيع دائرة المستمعين • كان هايدن قد بدأ يتذمر من المعامله المهينة التى يتلقاها على يد الأمير « استرهازى » وراح يعبر عن أمله فى أن تصل موسيقاه الى الطبقة الكادحة وأخذ مشاهير المؤلفين فى ذلك العصر يستمدون روح البساطة والرشاقة والمرح من أغنية رجل الشارع فى فينا وتحضيرها ووضعها فى قالب اللحن الفرنسى الأنيق مع اشاعة روح الغنائية الموسيقية الايطالية فى اللحن •

ورغم تذمر هايدن من النبلاء وثورته على موسيقى القصور ، فقد كتب مؤلفاتــه بتحرر حــذر ، كتب السيمفونية الثالثة والثمانين « الدجــاجة » Das Hann وكتب أخــرى للأطفــال باســم Toy Synphony أو « سيمفونية البجعة » التى يطغى على ألحانهــا صوت الكوكو •

ولكن موتسارت وصل بالصــوت الموسيقى للطائر الى قمــة امكانيــات التعبير وحقق به نجاحــا عبقريــا براقا فى كل القوالب الموسيقية • فى أوبراه « الناى السحرى » حيث يظهر البطلان « بابا

جينو » و « بابا جنيا » فى هيئة الببغاوات المرحة وكانت ملابس الممثلين من ريش ملون بألوان الببغاء • واستلهم « موتسارت » الطيور فى التعبير عن النفس البشرية بخيرها وشرها وارتبط لفظ الانسانية بجوهر وروح أعماله •

ويعتبر عملاق الموسيقى الأعظم بيتهوفن حلقة الاتصال بين الكلاسيكية والرومانسية فقد قاش المرحلة الأولى من حياته فى ظل الكلاسيكية ثم انطلق بعدها الى أعلى آفاق الثورية فى الموسيقى ، وهو ما يعبر عنه بالمرحلة الرومانتيكية •

لقد أعلى بيتهوفن فى موسيقاه فكرة السياسى الحر ، بل جعل مستمعيه يتذوقون مكنونات الأشياء بعمق وتحولت بذلك الملامح الموسيقية الكلاسيكية على يديه من الفخامة الى الرقة ومن التكلف والترفع الى البساطة والصدق الكامل • وأطلق على سيمفونيته السادسة اسم « السيمفونية الريفية » ويعبر فيها عن جمال وبساطة الريف التى استهلها بأصوات طيور تتناجى وتتحاور •

ومن موسيقيى هذه المرحلة الذين اهتموا بالطيور اهتماما خاصا « بوكرينى » الذى ألف خماسية الوتريات باسم « نقر الطير » و « باجنينى » الذى ألف مجموعة من المقطوعات القصيرة للكمان تعبر عن رقصة « الكوكو » •

وأطلق الرومانسيون بعد ذلك العنان لتعبيرهم الموسيقى ولما كانت الذات هى موضوعهم ولما كانت الحرية هى شرط التعبير عن المشاعر والأفكار الخاصة تحتم عليهم أن يضحوا بقيم البناء والتوازن والشكل الموسيقى فانفرطت القوالب الكلاسيكية الصارمة ونافس القصيد السيمفونى السيمفونية فى أعمال « ليست » و « ريمسكى كور ساكوف » الذى ألف « الديك الذهبى » وأطلق

الطيور تتغنى بألحان مختلفة فى مقدمة . أوبراه « العروسة الجليدية »

صار المؤلف الموسيقى الرومانتيكى .. بمجد اللحن الذى يتيح له الربط بين العناصر الأدبية والطبيعية حتى عرفت موسيقى هـذا العصر (بموسيقى البرنامج (١) الذى يضع المستمع فى جو وصور موسيعية معينة . ولم تقتصر مؤلفات البارزين فى هذه المرحلة مثل « شومان » و « برليوز » و « شـوبرت » و « دفورجاك » و « سـميتانا » و « سان صانس » و « ادوار جريج » على وصف أصوات الطيور بل صوروا طبائعها المختلفة وجسدوا فى موسيقاهم هدوء البجعـة ورعشة العندليب وفى الأغانى الريفية نسمع وصفا ماديا لطبيعة هذه الطيور .

وقد تحقق الترابط الكامل بين الشعر المغنى وصوت الآلة فى أغنية العندليب Die Nachtigal لشـوبرت والقصـيد السيمونى « ماى كوبنترى » لسمبتانا و « كرنفـال الحيـوانات » وغـيرها «لسان صانس» ، والسيمفونية التاسعة «العالم الجديد» New World «لدفورجاك» مع قصيدة السيمفونى (حمامة الغاب) Die Woddfauls وقصيدة السيمفونى الآخر فى الطبيعة In der Natur وأغنية البجعة Der schwan لادوار جريج .

وما ان أتى عهد الامبراطورية الثانيـة (٢) حتى طغت الأوبرا

---

(١)موسيقى البرنامج : الموسيقى ذات البرنامج التصويرى سميت بهذا الاسم لأنها تحتاج الى برنامج لشرح مصاحباتها الخارجية .. وهى تحاول أن توقظ فى ذهن المستمع شيئا من الارتباط بالمعانى أو الموضوعات الخارجية ..كأن تحكى قصـة أو تصـور مشهدا أو تستثير خاطرا .. والسيمفونية الخيالية التى كتبها برليوز ، وقصد بها المؤلف أن تكون موسيقى تصويرية ، على النقيض من سيمفونية برامز التى تعتبر بمثابـة (موسيقى مطلقة) .

(٢) الامبراطورية الثانية : تحولت فرنسا من الجمهورية الثانية الى الامبراطورية الثالثة على يد نابليون الثالث سنة ١٨٥٢ الذى انتهى بنكبة الحرب البروسية الفرنسية سـنة ١٨٧٠ .

والأوبريت كمظهر لتغلغل الروح الصحفية فى عـالم الموسيقى حيث تقوم الأوبرا بالتعليق على الأحوال المعيشة .

وكان « فاجنر » يكتب نصوص أوبراته بنفسه لأنه كان يرى أن الكلمات لا تحقق معناها الا اذا صاغها المؤلف الموسيقى وأن على كاتب النص أن ينفذ عمله فى اطار الدراما الحقيقيـة الصـادرة من القلب . لذلك تميزت أوبراته بوحدة الدراما واندماج عناصر الشعر والموسيقى والصوت البشرى وكافة العناصر المسرحية وسميت أوبراته لذلك بالدراما الموسيقية Misical Drama . وقد كتب فاجنر أهم أوبراته للطيور وهى أوبرا « سيجرفريد » وفيها تظهر الطيور من خلال التعبير الدرامى وليس مجرد محاكاة لأصواتها .

***

وأفضل الآلات تعبيرا عن أصوات الطيور « الأرغن والآلات الوترية وآلات النفخ الخشبية والفلوت والبيكولو » (١) « الفلوت الحاد » بصفة خاصة ذلك أن الاداء المطلوب يكون غالبا آداء متقطعا Staccatoo يشـابه أصـوات الطيور غـير المترابط .. وتكتب الألحان عادة فى طبقة صـوتية حادة لتعبر عن رشاقة الطيور وخفتها على خـلاف التعبير عن الحيوانات الثقيلة الضخمة حيث يتم ذلك من خلال الطبقات الغليظة .

ولكن الصوت البشرى أقدر على التعبير عن أصوات الطيور من الآلة وذلك لامكانية استعمال بعض الحروف والمقاطع المناسبة مثل « سـو » Sue . « وسيوى » Siwi « وكوكو » و « كاك » .

---

(١) بيكولو : اسم أعجمى بمعنى صغير . وهو آله النفخ المسماه (فـلوت) ولكنه صنف صغير الحجم حاد الطبقة حتى ليبدو نغمه ظاهرا فوق مستوى مجموعة الآلات « الاوركسترا » وهو أعلى من الطبقة المعتادة لآلة الفلوت .

وأصوات النساء البالغة الحد Soprano Edoratun هى أقرب الأصوات البشرية الى أصوات الطيور « وأصوات الرأس » التى تتردد بين تجاويف الرأس والمعروفة باسم Head Tunes لها امكانية ولون التعبير عن أصوات الطيور حيث يتميز أداؤها بالرشاقة والخفة .

وقد استعان المربون الموسيقيون بأصوات الطيور فى تعليم الأطفال الغناء والصولفيج ورائد هذا المجال المبدع فيه هو المؤلف الألمانى « كارل أورف » Canl orff المولود عام ١٨٩٥ والذى استعمل (ثالثة النداء)(١) الطبيعة كمدخل لتعليم الطفل قراءة المدونات الموسيقية ولحن الأدب الشعبى لأطفال ألمانيا مستخدما هذه المسافة فى العديد من أغانى الكوكو .

كذلك استخدم كارل أورف آلات الباند فى فرق الأطفال لأنها تعبر عن أصوات الطيور كما استخدم الجلاجل المنغمة والأكواب الزجاجية .

وأغانى الأطفال وموسيقاهم فى العالم أجمع تزخر بأصوات الطيور ومن الأغانى الشهيرة العالمية للأطفال أغانى « البلبل والحمال » « وصوت الطيور » و « الطيور تقيم حفل زفاف » .
كما أن كثير من الأغانى العربية الغرامية منها والجماعية أو للأطفال تدور حول أصوات الطيور وأحوالها . مثل أغانى اسمهان عن البلبل الحيران الذى تركته وليفته وياطيور .. أغنية سيد درويش «ياللا بنا يا صنايعية فى البدرية والديك بيدن كوكو فى الفجرية » .

وتعتبر الموسيقى أحد عناصر فن الباليه الذى ازدهر فى الاتحاد السوفيتى لأسباب خاصة .

---

(١) ثالثة النداء : عبارة عن مسافة موسيقية ، البعد بين نغمتين موسيقيتين بينهم نغمة وسطى .

كما أن الأدباء والفنانين فى الغرب راحوا يبحثون عن منابع جديدة لقيادة العالم وتطلعوا الى ما سماه « فرويد » ومدرسته باللاوعى لعلهم يجدون فيه الخلاص ، وكان الاشتراكيون ما يزالون متمسكين بقدرة العقل وسلامته فأنشأ السوفيت معمل الأبحاث للأفعال الشرطية عام ١٩٣٠ لعالمهم الفسيولوجى المشهور بافلوف الذى قال : عندما أفكر فى فرويد وفينا نحن علماء الفسيولوجيا أتصور فى ذهنى فريقين من الحفارين بدأوا يشقون نفقا فى أسفل جبل كبير لكى يصلوا الى النور ٠ أى فهم الذهن البشرى — لكن فرويد بدأ يحفر الى أسفل ومن ثم وقع فى متاهة اللاشعور ، أما نحن فسوف نصل فى يوم ما الى الهواء والنور وسوف ننتهى من بناء النفق « أى ترجمة الأفعال الشرطية » ٠

ولقد وجدت روسيا ضالتها فى رقص الباليه فجعلته الفن الرسمى لها لأنه يوفق ببراعة بين رغباتهم فى قيادة الفرد الروسى وآراء بافلوف، ففن الباليه بصرامة تدريباته وحدة خطواته والنظام الدقيق والتناسب الموقوت لتشكيلاته المعتمدة على الايقاع الميكانيكى المضبوط وكذلك على التعبير الايحائى تسانده بلاستيكية الأيدى ٠٠ كل هذا بجانب الموضوع الكلاسيكى والتصورات الرومانتيكية المثالية عن الانسان والمستلهمة من الأساطير والخرافات التى مجدها القادة لأنها تساعد على تفجير الحركة بهيئة الانسان الماريونت وتجعل الراقص فاقدا لذاته وتخضعه لارادة المجموع ٠

وقد وجد مؤلفو الباليه أكمل صياغة للقوانين الجمعية فى عالم الطيور ٠ وأصبحت حركة التحليق هى محك القدرة والبراعة ، بل وأصبح التعبير ذاته اصطلاحا لكل الحركات التى يلعبها الراقص فى الهواء ٠ وكان « نجنسكى » يتمتع بقدرة فذة على التحليق حتى قبل انه بمقدوره أن يمكث جزءا من الثانية عند أعلى نقطة يبلغها قبل الهبوط الى خشبة العرض وكان أبوه يعلق على ذلك قائلا « اذا كان

ابنى يعود الى الأرض فهو انما يفعل ذلك مجاملة لزملائه » •• ولم يكن الأب يعلم انه يسخر بذلك من الفلسفة الاشتراكية القائلة أن المجتمع أولا ثم الفرد •

واستخدمت كلمة طائر وطائرة وغيرهما من صفات الطيور فى الاصطلاحات الخاصة بفن الباليه ومن أشهر أعمال الباليه « بحيرة البجع » « لتشابكوفسكى » « والبجع الأسود » وهو أول فيلم باليه أخرجه «ستربوسكوبى» وقصته مقتبسة من الفصل الثالث لبحيرة البجع و « كرنفال الحيوانات »لمصمم الباليه « فوكين » و « البلبل » الذى وضع موسيقاه « كروستراول » • وتكاد معظم أعمال الباليه العالمية تسمى بأسماء الطيور وفى روسيا لا يتحمسون لاخراج مسرحية غير روسية للباليه الا اذا كان الدور البارز فيها للطيور كما حدث فى مسرحية « مدموازيل جولى » « لاسترنديرح » التى عرضناها فى حديثنا عن المسرح •

ولا نذكر عملا بارزا عن الطيور فى فن الرقص العربى سوى « رقصة الحمامة السودانية » التى استلهمها محمود رضا فى رقصة جماعية •

السينما

يرى بعض النقاد أن السينما فاقت الطباعة من حيث التأثير وصياغة عقل ووجدان الانسان المعاصر ذلك لأن الناس ليسوا جميعا قادرين على القراءة بينما هم فى معظمهم قادرون على أن يروا وأن يدركوا ما يبصرونه ويتأثروا به فى سهولة مباشرة ٠

واذا كان فن الفيلم قد بلغ الرشد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى كما يقول هؤلاء النقاد فقد شهدت صناعة السينما تطورا هائلا بعد تلك الحرب ٠

كانت الحرب قد تمخضت عن تحديد حاسم بين المعسكرين : الشرق والغرب ، وعن تقسيمات سياسية ومذهبية طبعت آثارها أتباع كل معسكر ، وانعكست تلك الآثار بالتالى على الانتاج الفكرى والفنى فى كل منهما ، وظهرت واضحة وصريحة فى فن السينما وبصورة أكثر وضوحا وصراحة فى الأفلام التى اتخذت الطيور موضوعا لها ، حتى أنه أصبح بمقدورنا أن نقول : اذا أردت أن تعرف الاتجاه السياسى الحقيقى لبلد ما فشاهد أفلامها عن الطيور ٠

كانت الطيور هى الرمز الغنى بالدلالات والأكثر مرونة فى نقل المفاهيم السياسية المتغيرة وكانت أبلغ تأثيرا فى أداء ذلك بما لتلك الكائنات من ايحاءات ثابتة ومشتركة بين الناس جميعا ٠ (الحمامة ــ مثلا ــ فى الصين وفى أمريكا رمز الوداعة والسلام) ، والعصافير رمز للأطفال فى براءتهم واندفاعهم والصقر رمز القوة واذا كانت البومه

عند العرب مدعاة للتشاؤم بينما يجد الأوربيون فيما رمز الحكمة الا أن اتصال الثقافات محا تلك الاختلافات بالتدريج حتى أن العربى أصبح قادرا على ادراك ما يقصد اليه الأوربى ، وأصبح الأوربى قادرا على ادراك ما يقصد اليه العربى دون جهد كبير •

***

ولقد اقترنت فرحة بلوغ الفيلم سن النضج فى أمريكا بحسرة الألم والويلات التى عانت منها أوربا الكثير بعد توقف حركة التجارة والصناعة فى الأسواق الأوربية فى الثلاثينات مما أثر على فن الفيلم الذى أخذ يهبط تدريجيا •

كان جو العمل والانتاج السينمائى مهيئا بأمريكا التى لم تعان من ويلات الحرب كغيرها ، فرحل اليها كثير من أساطين هذا الفن ورحبت الشركات الأمريكية بهذه الهجرة •

ومنذ هذه الفترة على وجه التحديد ، صارت هوليود عاصمة الفن الجديد ، وقلعة هذه الصناعة وتفوقت بذلك على كل مدن السينما فى فرنسا وألمانيا وايطاليا وانجلترا وروسيا • أصبحت أمريكا بهذه المواهب والطاقات النادرة التى طارت اليها من أوربا طائرا جارحا لا يستطيع أن ينافسه منافس فى الانقضاض على الأسواق من حيث ضخامة ميزانية الانتاج أو فى اتساع أسواق التوزيع والدعاية وكان فيلم الطيور لألفريد هيتشكوك قمة ونموذجا لهذا التفوق الشامل •

يبدأ الفيلم هادءا ـ على عكس أفلام الاثارة ـ بلقطات بطيئة من لقاء كوميدى بين فتاة ثرية ضجرة بحياتها ومحام فى أحد محال الدخان ـ يتظاهر المحامى بأنه أخطأ فى التعرف على شخصية البائعة ويحدث الفتاة لكنها تدرك ذلك فتسيطر على الموقف ولكنه يغريها بأن تتبعه الى كوخ ، وهناك تقابل مدرس القرية فتعجب به وتحبه •

بعد هذه المشاهد الهادئة يبدأ العنف — نرى طائرا بحريا يخوم برأسه ، وفى التو يحدث هجوم مرير للطيور على حديقة الأطفـال • وربما أراد هيتشكوك أن يرمز بحديقة الأطفـال الى الهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا • وتنقض آلاف الطيور من المداخن من خلال الشروخ التى أحدثتها عند هجومها الشرس ، ويتحول المجتمع كله ميدانا وهدفا لها • ونرى مشهدا تكاد تنقطع له الأنفاس حيث تتجمع الطيور الضخمة وتحط بهدوء عجيب طائرا تلو الآخر فى ملعب المدرسة وتتبع ذلك موجة هائلة من العنف ، ويمتلىء المكان بالأجسام ذات الريش التى تحدث طنينا متصـلا ، وتتهم امرأة مصابة بالهستيريا الفتاة بأنهـا جلبت الشر على مدينـة « حليم يووج » • وكانت المرأة هى « مالينى » الساحرة • ويتساءل أهل القرية : هل هذا هو يوم الحشر ؟ لكن هيتشكوك لا يعطينا الجواب ، فقد ترك ذلك لنا ، يفسره كل مشاهـد كمـا يحب • ونرى أن هيتشـكوك الانجليزى يريد أن يقول أن الطيور الجديـدة — أمريكا — أقـوى من البشر فى السيطرة على العـالم • واصابته بالعجز الكامـل وان كان آخرون يرون أن هيتشكوك يريد أن يقول ان الانسان الذى يظن أنه وحده الذى يسيطر على ما حوله يعلمه وقوته يمكن أن تهلكه كائنات صغيرة لا حول ولا قوة لها •

***

ولكن أوربا الضعيفة لم تستسلم لمـارد أمريـكا المفزع ولم تسقط من ناحية أخرى فى قبضة السوفيت ، بل راحت تناضل وتعيد بناء نفسها وتظهر الأحلاف وتعود مرة أخرى قوة منافسـة فى شكل السوق الأوربية المشتركة وهذا هو ما يعبر عنه فيلم « سجين الكتراز » للمخرج « الفريد زيتمان » •

ذات صباح فى سجن « الكتراز » الكئيب حط عصفور جريح ،

مكسور الجناح على زنزانة سجين حكم عليه بالسجن مدى الحيـاة ، وتعاطف الانسان الحبيس مع الطائر الجريح فكلاهما أسير : الانسان أسير حكم المجتمع عليه والطائر أسير جرحه وعجزه • وبدأ السجين يضمد جرح الطائر ويوليه عنايته ويهتم به أيضا كل السجناء ويبدأ التماثل للشفاء تدريجيا وتعود له قوة جناحيه ورغم ارتباط السجين به فقد أطلقه لأنه يعرف أهمية الحرية •

ومضت أيام يعود بعدها العصفور الى السجن بصورة توحى للمشاهد أن العصفور الصغير أكثر وفاء ونبلا من الانسان • وبدأ السجين يدرس تاريخ حياة الطائر والى أى فصائل الطيور ينتمى ولم تمض أعوام حتى أصبح السجين عالمـا فى الطيور لا فى بلده فحسب ولكن فى العـالم أجمع ، ولمـا انتشرت أبحاثه وكتبه رصـد محبو الطيور الأموال حتى يواصل هـذه الأبحاث وامتلأ السجن بالطيور والعصافير • ورغم أن السجن أصبح أكثر هدوءا فقد ضاقت ادارته بالعصافير وتمسك السجناء بها فقررت الادارة طردها بالقوة ونشبت معركة تدخل فيها كل محبى الطيور فى المدينة وانتهت المعركة بانتصارهم على ادارة السجن • وتوج هـذا الانتصار بطلب من السجناء ومن محبى الطيور فى العالم بالعفو عن السجين العالم ليفرغ للطيور التى أحبها وأحبها معه باقى السجناء •



ورغم التناقض بين فكر الشرق وفكر الغرب والاختلاف الكبير الذى يشمل كل أساليب الحياة فان عددا كبيرا من فنانى الغرب قد اختاروا بكامل حريتهم الالتزام بالقضايا الانسانية وانحازوا الى جانب الانسـان • ومن هنا اقتربوا الى حد كبير من اتجـاه فنانى الشرق وبخاصة الفنانين الشبان الذين حاولوا أن يضيفوا من ذواتهم الثائرة أبعادا جديدة لفن السينما ، والافلات من الحصـار المضروب حولهم

من رجال الصناعة التقليدين الذين يدورون فى نفس الدوائر الفنية الملتزمة بفلسفة الغرب •• وفى محاولاتهم تجديد فن السينما والتقوا على تفاوت فى الدرجة ـ مع سينما العالم الاشتراكى فى فيلم « مقتل طائر برى » اخراج « روبرت مولينجان » عن رواية « لهار برى » حصلت على جائزة « بولتزر » التى تعتبر من أكبر الجوائز الأدبية فى أمريكا •

يعرض الفيلم الخطوط المتقابلة والمتقاطعة لأسرة المحامى « اتيكس فيش » وابنته « سكوت » وابنه « جيم » ومر بيتهما والتى تولت خدمتهم بعد وفاة الأم •

الأسرة نموذج للضمير الانسانى الأمريكى فى أحسن صوره ، تتعاطف مع الزنوج فى مواجهة سكان مدينة « مايكومب » بالجنوب القساة الدين يعادون الزنوج ومن يدافع عنهم •

يحكى البطل لأبنائه عن ذكرياته وبينها حادث بندقية أهداها له والده وهو صغير ولكنه طلب منه ألا يصطاد نوعا معينا من الطيور يغنى ويقلد جميع أصوات الطيور الأخرى • وفى العودة الى الذكريات هنا عبرة فى وراثة الحق ، لأن هـذا المحامى بعد ذلك يقبل عن طيب خاطر الدفاع عن زنجى متهم بالاعتداء على فتاة ، ذلك لأنه اقتنع ببراءة الزنجى رغم موقف أهل المدينة ضده • وفى الطريق يتوقف الناس ويسبونه فى وجهه وفى المدرسة تشاجر ابنة المحامى مع زميل يعيرها بأن والدها يدافع عن المتهم الزنجى • وفى المحكمة يجتمع أهل المدينة وبينهم الطفل والطفلة « جيم وسكوت » ابنا المحامى وتسمع المحكمة الشهود والفتاة التى ادعت الاغتصاب وأبيها • وينفى توم حادث الاعتداء ويؤكد أن الفتاة هى التى دعته الى منزلها لمساعدتها فى فتح دولاب ، ثم أغرته ولكنه تركها هاربا • ممثل الاتهام لا يصدق،

اذ كيف يساعدها دون أجر ولمــاذا ؟ ويرد قائلا : لأنى أشعر بالأسف من أجلها •

ويناقش المحامى الشهود والفتاة ويثبت أن توم لا يحرك يده اليسرى لأنها مصابة منذ الصغر وآن والد الفتاة أشول يجيد استخدام يساره وأنه هو الذى ضربها وليس توم • ولكن المحلفين يدينون توم فيجمع المحامى أوراقه بينما يقف الزنوج فى الشرفات العليـا تحية وتقديرا له ويعدهم انه سوف يستأنف الحكم فيه الا آن توم لا ينتظر أن تدركه عدالة مجتمع مات ضـميره فيقرر الهرب أثنــاء نقله الى السجن ، ويقتل برصاصة أحد الحراس أثناء المحاولة • وهكذا يقتل طائر برىء كما تقتل فى قسوة ونزق آلاف الطيور كل يوم فى أمريكا رغم أنها لا تضر أحدا •

ومن الفنانين الذين انحازوا بدرجة كبيرة الى الفن الاشــتراكى « بازولينى » الايطالى خاصة فى فيلم « الغربان » •

يبدأ الفيلم بأغنيــة أوبرالية تقول : الفريد وبيبى يقـدم توتو المخالف • توتو الانسان •• توتو المجنون •• توتو اللطيف •• فى قصــة الطيور المفترســة والطيــور الصـغيرة قصــة وســيناريو « بيير باولوبازولينى » مع البرىء واللئيم « نينووانولى » فى القصة المبكية المضحكة •• الخ • بعد ذلك نشاهد لقطة عامة لشارع متسع يصحب فيه الأب توتو ابنه وانولى الى آن يصــلا الى طريق زراعى فى ضواحى روما ليستقلا الأتوبيس ولكنهما لا يلحقان به ويثيرهما تجمهر الناس فيدفعهما الفضول الى التوقف قليلا ثم يغادران المكان بعد أن يعلما أن الجثتين اللتين تجمهر حولهما الناس كانتا لزوجــة وعشيق أطلق عليهما الزوج الرصاص •

ويمضى الأب والابن يتحاوران ناقدين ما حولهما الى آن يصــلا

الى المقابر فينتقل الحوار الى الدعوة الى السلام وهما يسيران بين المقابر من ممشى الى آخر .. حتى يسمعا صوتا فينظران فاذا بغراب يستأذنهما رفقة الطريق وينضم اليهما بالفعل .

يتعجب توتو لهذا الغراب الناطق ويسـألـه من أنت ؟ فيجيب : أتيت من بعيد من بلد اسمها « ايدلوجية » انني قادم من عاصمة مدينة المستقبل شارع كارل ماكس رقم ٧٠ ثم يكرر العبارة سبع مرات .

يسأل توتو الغراب .. هل لك أقارب ؟ فيرد الغراب : اقاربي هما الأستاذ/ « الشك » و السيد « الضمير » ثم يقص عليهمـا قصة حدثت عـام ١٢٠٠ حينما كلف القـديس فرنسيس الاسـيزى الأخ شيشليو والأخ نينيو ان يعظا الطيور .. ويرتدى الأب والابن ملابس توم القـديس فرنسيس وينجح الأب فى وعظ الطيـور المفترسـة والصغيرة .. لكن طائرا مفترسا ينقض على طائر صغير ويواصل الأب والابن المسيرة ومعهما الغراب القادم من مدينة المستقبل . ثم تتتابع مشاهد الفيلم وخلال هـذا الجزء ينادى بازولينى مستغلا الرمز ببراعة بالمساواة بين الناس والمجتمعات البشرية ويدعو بأن تسود الاشتراكية العالم ويسود السلام ولا تنقض دولة رأسمالية ـ طائرا مفترسـا ـ على دولة ناميـة ـ طائرا صغيرا ـ تسـعى لبناء حيـاة جديدة . ويناقش بازولينى أيضا قضية البحث عن العمل وقدرة من يملك على استغلال من لا يملك من خلال زيارة يقوم بها توتو لامرأة كسول تنتظر هى وزوجها الفرج من السماء ، ثم يعرض توتو لامرأة تلـد ويحدثها عن تحديد النسل . وفجأة يقف الغراب ويقول للأب والأبن . لا أسألكما وجهتكما يبدو أننا وصلنا النهايـة . وعندئذ يعتزم الأب أكل هذا الغراب ويقول للأبن : لقد ضايقنى بما فيه الكفاية وعليه أن يتعلم ألا يتدخل فى شـئون غيره .. سنأكله كما كان القـدماء يأكلونه . ويعود الصوت الاوبرالى الذى بدأ به الفيلم يقول : وينتهى

الفيلم يا أصدقائى الأعزاء •• انها كالعادة قصة الطيور المفترسة والطيور الصغيرة ••

يقول بازولينى : أردت أن أجسد فى الغراب شخصية « بالميروتوليانى » الزعيم الشيوعى الايطالى وأما مسألة أكله فقصدت بها أن يتحد رسول السلام توتو مع رسالة هذا الاشتراكى الذى كان يدعو للمساواة بين الطبقات وبين الشعوب والأمم •

***

هذا عن الغرب ، فكيف استخدموا الطيور فى سينما الشرق :

اتخذت السينما السوفيتية كغيرها من الفنون والآداب الواقعية الاشتراكية طريقا ومذهبا • والواقعية كما يصورونها ليست مذهبا صلبا أو مبدأ جامدا فهى تتطور كما يتطور المجتمع • ونستطيع ان نلمس ذلك بوضوح من خلال نظرة نلقيها على نماذج من أفلام السينما السوفيتية منذ قيام الثورة حتى الآن •

قبل أن تضع الحرب أوزارها • كانت تتنازع «أوكرانيا » احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى ــ نزعة قومية انسياقا وراء الدعوة النازية والاشتراكية انطلاقا من واقع قومى صادق وقد ظهر ذلك جليا فى فيلم « طائر أبيض ذو علامة سوداء » •

« ليس زفورنا » منادى القرية الذى يدق الأجراس فى أفراحها وأحزانها موسيقى وأولاده أيضا موسيقيون يتناول المخرج وكاتب السيناريو « يورى ايلينكو » صعودهم وهبوطهم فى اطار من تراث أوكرانيا القومى الفولكولورى موظفا كل ذلك لتقديم تفسير ناضج مقنع للظاهرة التى شملت أوكرانيا آنذاك • زفو نار له من الاولاد عدد يخطئه الحصر وتلك ظاهرة ريفية عامة لكن القحط الشديد والانقسام فى أو كرانيا والحرب التى تدور حولها قوات العصابات

تجعل الحياة بالنسبة لرجل مثل « زفونار » ضربا من الجحيم •
ما ان تدخل الكاميرا بيت « زفونار » حتى تعثر على رمز ينبىء عن الاتجاهات التى ينتمى لها أولاد هذا الرجل • فالبيت ملىء بالمنبهات بشكل ملفت للنظر بحيث يبدو كأن هذا الرجل مهنته اصلاح المنبهات •
والحقيقة كما يقول الأب أن المنبه الأول للتوقيت الألمانى والثانى للبولندى والثالث لموسكو والرابع لتوقيت المحلى • ويعلق احد الأبناء على ذلك قائلا لأبيه : ان الحرب لم تحرق بيتك فحسب وانما حرقت روحك أيضا •

بسبب الفقر الشديد يعرض زفونار أبناءه للبيع ويقترب قسيس القرية ومعه ابنته من زفونار يتأمل الأولاد يختار أصغرهم جيورجى ، ولكن ابنته ترفض لأنها تريد الأكبر وتبكى ويقتحم الرومانيون السوق ويهينون أولاد زفونار لأنهم رفضوا أن يغنوا لحنا رومانيا •• وتعود الكاميرا الى بيت زفونار فنجد ابنه الصغير الساخط على الأوضاع قد ابتلع نقودا فيضربه أبوه •• ويصرخ فيه انه قد سئم منهم لأن تكاليف الحياة باهظة وهم لا يكترثون • ويرد الصبى بالصراخ معلنا أمام الجميع أنه لم يطلب منه أن يولد •

ويأتى قس القرية ويأخذ الطفل جورجى ، وها هو يتسلق بيت القس لامساك طائر « أبو المغازل » وهو طائر أبيض بذيله علامة سوداء لكن والدته التى حضرت فى تلك اللحظة تزجره فيحتج عليها بأن هذا الطائر كما تقول الأساطير هو رمز الاخصاب ولابد من قتله لكن الأم تحكى لابنها أن هذا الطائر كان يوم انسانا أعطاه الله كيسا ثقيلا لكى يحتفظ به ولا يفتحه ولكنه فتح الكيس فاندلعت منه الثعابين فعاقبه الله على عصيانه هذا وقال له : لن أحولك الى انسان قبل أن تقضى على الشر فى هذا العالم • ومنذ ذلك اليوم وطائر « أبو المغازل » يتجول فى المستنقعات بأمل القضاء على الشر فى هذا

العالم ، وربما نسب اليه رمز كثرة الانجاب لأنه يتمنى أن يكثر البشر الصالحون ، للقضاء على الشر •

وهكذا تتنازع أبناء زفونار التيارات المتصارعة فى أوكرانيا فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخها • أحد الأبناء يصنع تابوتا ويقيم احتفالا يدفع علامة الحدود التى كانت تقسم أوكرانيا ويصل زفونار الأب الى المحتفلين ويبث شكواه الى جندى سوفيتى أن البؤس الذى عاناه لم يسمح له بالحياة الا ستين يوما خلال ثلاثين عاما هى أعياد الميلاد — ثم يطلب اليهم أن يأخذوا منه الفطير الذى صنعته زوجته وسقطت عليه دموعها ، وأخيرا يصيح : ارفعوا هذا العمود اللعين الذى يقسم أوكرانيا وتتزوج « وانا » ابنة القس من سائق الجرار الذى سحب عمود التقسيم وأسقطه ثم نرى أخشابا قائمة يقف فوقها أبناء زفونار الثلاثة متجهين الى حيث يقف الجنود السوفيت ويخرج عليهم أحد أفراد عصابات الجبل القوميين المتعصبين هاتفا : « تحيا أوكرانيا » ثم يعيرهم بأنهم يرسلون الأخشاب والأسلحة الى السوفيت ويتحدث عن تصوره السياسى فيقول : ان هتلر سيحرر أوربا •• وتتحول المعركة الكلامية الى اقتتال ويسقط الأوكرانى المتعصب وتغرق الأسلحة ويصبح أحد أولاد زفونار شيوعيا والآخر أحد قادة عصابات الغابة ، أما ابنة القس فما أن يسافر زوجها الروسى حتى تسلم نفسها الى أحد أبناء زفونار وتدخل الى والدها لحظة القداس وتعلن رفضها للقداس ، كما تعلن أنها حملت سفاحا وانها الآن سعيدة فرحة •

وينتهى الفيلم بجيورجى الابن الصغير وقد كبر وأصبح طبيبا يداعب مهرا يعبث وسط مساحة شاسعة من الجليد ، ويستقبل القسيس ويفحصه ، وينظر من النافذة ويعود بخياله الى الماضى أيام كانوا بؤساء يعزفون الموسيقى من أجل لقمة خبز ويتهمون طائر « أبو المغازل » بأنه أصل فقرهم والسبب فى كثرة العيال •

ان فيلم « طائر أبيض ـ و علامة سوداء » يعبر عن حالة روسيا قبل الثورة أما عن روسيا الحرب فذلك ما نراه فى فيلم « البجعة الطائرة » أو « الباشروس يطير » •

فتاة تقع فى حب شاب ويتزوجان فى الأيام الأولى لنشوب الحرب ويذهب الشاب الى الجبهة فيعتدى ابن عمه على زوجته ، وتنتج العلاقة الآثمة طفلا ، وتنتهى الحرب فتطفو على السطح آثارها •• الفتاة تنتظر عودة حبيبها مع طائر الباشروس المهاجر ولكنه لا يعود لأنه مات وسوف تقيم له الدولة نصبا تذكاريا فى ساحة البلدة •• ولكنه مات فماذا أفعل ويعود طائر الباشروس وتبدأ الفتاة الحياة من جديد •• فعلى الانسان أن يجد نفسه مثل طائر الباشروس الذى يهاجر ويعود • ولكن السينما السوفيتية ليست دعوة الى الماركسية وشعارات مباشرة فكما أدان بعض مفكرى الغرب سياسته فقد ظهرت فى الشرق محاولة الفكاك من قبضته الحديدية وكانت البداية فى يوغسلافيا وقد استطاع المخرج اليوغسلافى الشاب « دوسان ماكفيف » أن يلفت النظر اليه بفيلم « الانسان ليس طائرا » الذى يجمع بين الأسلوب الروائى والأسلوب التسجيلى وتسيطر عليه نزعة فرويدية تتمثل فى الميل الى تفسير السلوك البشرى على أساس الجنس •

المهندس العجوز الذى ينجح فى تركيب مصنع النحاس قبل موعده المحدد بشهرين يفشل فى اغواء فتاة صغيرة والسائق الشاب يبذل العرق والجهد فى المصنع يغرق نفسه فى السكر واللهو ويضرب زوجته ويسرق ملابسها والفتاة التى يهيم بها المهندس العجوز تعطى نفسها للسائق الشاب لأنه يماثلها فى السن وتثور الزوجة على هذا الوضع وتقبل دعوة أول شاب يقابلها ولا يظفر العجوز الا بالذكريات ونيشان الدولة ومشط كانت تملكه الفتاة •

ويبرز رأى المخرج فى الجانب التسجيلى من الفيلم عن طريق

الربط بين زيارة يقوم بها الطلبة لأحد المصانع ومشاهدة الشعوذة والتنويم المغناطيسى ويدين فيلم « ماكفيف » سطحية الدولة وجمودها • ويكشف عن مدى الهوة بينها وبين الفرد حين يقيم المصنع حفلا سيمفونيا لتكريم العمال • ولكن العمال يحضرون الحفل مجبرين ويقررون الاحتفال بطريقتهم الخاصة وليس حسب البرنامج الذى وضعته ادارة المصنع • وكأن « ماكفيف » يريد أن يقول : أيتها الدولة ، هؤلاء هم العمال يصيبون ويخطئون •• أيتها الدولة قليلا من الجمود ومزيدا من الفهم للنفس البشرية فالانسان طائر حر ولا يستأنس بالقوة والبطش •

***

وفى تشيكوسلوفاكيا عبر المعارضون والرافضون أيضا عن أنفسهم وان كانت قد سبقتهم أفلام تمجد سياسة الحزب وتبارك ومن هذه الأفلام فيلم « الحرب والحب » فماذا كان رمز الطائر فيه ؟ •

يفاجى روكو ــ ٧ سنوات ــ حمامة برية جريحة فيمسكها ويخفيها داخل سترته وعندما ينضم الى بقية الأطفال يؤنبه المدرس الفاشى النزعة • ويحاول روكو أن يضلل الجنود المحتلين عن مكان المقاتلين الأحرار دون جدوى فيضطر الى الجرى أمام سيارتهم محاولا أن يسبقهم لتحذير المقاتلين • وهنا يلتقى بأبيه الذى هرب من الاعتقال فيريه الحمامة ثم يسرع روكو الى زميله فيكو المكلف بدق الناقوس الجديد للكنيسة ويقنعه بدق الناقوس قبل الأوان حتى يلفت نظر المقاتلين فى مخابئهم • ويتعرف روكو وفيكو على صبى آخر يزهو بالأوسمة الحربية التى حازها والده الضابط وبشهاداته العسكرية وعندما تهاجم الجميع طائرة نازية يفر الضابط ويتخلص من بندقيته فيعيدها اليه فيكو طالبا منه أن يصوبها الى الطائرة ويرفض الضابط فيخجل الصبى من أبيه ويذهب الى حطام السيارة المحترقة ويلقى بأوسمة ابيه وشهادته العسكرية فى النار • ويسقط الجليد بينما كانت

امرأة تعانى آلام الوضع فى تلك اللحظة تساعدها « ناتاشا » المحاربة الروسية ويقبل الجنود الألمان فى نفس الوقت لتفتيش المنطقة ويحاول روكو وزملاؤه أن يجذبوا أنظار الألمان بعيدا عن مكان الأم وطفلها الوليد بانشاد بعض أغانى الكريسماس ويصل الألمان ويستمر الصبية فى الغناء وفجأة يسمع الجنود صوت الطفل الوليد فيتجهون الى مكان الصوت ويلقون القبض على المحاربة الروسية • ويجتمع الأطفال بعد ذلك للعب ويحمل روكو الحمامة البرية بعد أن شفيت ويطلق سراحها ولكن لغما ينفجر تحت قدميه فيموت بينما تنطلق الحمامة رمز السلام محلقة فى آفاق تشيكوسلوفاكيا •

وقد كانت الحمامة أيضا رمزا فى أحد أفلام الرافضين أو أصحاب وجهات النظر المختلفة عن « القيادة » فى تشيكوسلوفاكيا •• أخرج الفيلم « فرانشك فلاتشيل » باسم « الحمامة البيضاء » •

حمامة تعيش مع غيرها من الحمائم على شاطىء بعيد لمدينة هادئة ، لكن الحمامة تاقت أن ترى أبراج المدينة الصناعية الضخمة فطارت اليها منفردة وهناك يصيبها الهلع من المصانع والمداخن الشاهقة فترتبك وتسقط فى منزل فنان نحات ، ويعثر عليها ابنه المريض ويعالجها وأراد الأب أن يوفر على ابنه المريض هذا الجهد فأقنعه بأن يصنع للحمامة تمثالا وأن يتركها تطير بعد أن شفيت لكن الابن لا يرضى بديلا للحمامة البيضاء وان كان لا يرفض أن يصنع لها والده التمثال • ويصنع الأب تمثالا لابنه وعلى يده الحمامة لكنه يتحطم ولا يبقى الا الكف والحمامة كما أن الحمامة البيضاء تعود الى وطنها الهادىء • وكأن المخرج يريد أن يقول بذلك ان على تشيكوسلوفاكيا أن تعود الى قوميتها وتستوحى ماضيها كما عادت الحمامة الى وطنها ولم يبق منها الا هذا التمثال الحجر ، فاقد الحس والروح • وذلك هو سر تسمية الفيلم « الحمامة البيضاء » •

ومن الأفلام التى أثارت الاهتمام الفيلم التشيكى « حب العصافير » ويبدو للوهلة الأولى مثل الأفلام التقليدية التى تتكرر فى سينما الشرق عن مقاومة النازى ولكن المشاهد سرعان ما يدرك أن فيلم حب العصافير يعرض الى جانب ذلك قضية الفرد والمجموع وجدوى أو لا جدوى أن يضحى الأول من أجل الثانى كما تفعل الطيور .

واذا كان هناك من يعتبر الاشتراكية والرأسمالية جناحين لحضارة واحدة فى الحضارة الأوربية فقد تميزت السينما فى الشرق الأقصى بخصائص لا يشاركها فيها أى من المعسكرين وأهم هذه الخصائص الاستعانة بالمثولوجيا كما تفعل اليابان . ومن أشهر أفلامها « الكنوز الثلاثة » المأخوذ عن احدى أساطير الطير هى أسطورة « الطائر ياماتو » .

يدور الفيلم حول صراع بين أميرين شقيقين على فتاة حسناء وينتهى الصراع بأحد الاخوين يقتل أخاه . ويفكر الأب فى طريقة لعقاب ابنه على قتل اخيه أو للقصاص منه فيرسله الى قتال الأعداء لكن الابن ينتصر عليهم ويعود ليجد حكما بالأعدام ينتظره فيهرب وتفشل الجيوش التى سيرها الأب فى الانتقال منه لأنه يملك سيف التنين . وعندما يحاول الابن الهرب مع حبيبته تهب عليهما فى البحر الأعاصير وتضحى الفتاة بنفسها حتى يهدأ البحر وعندئذ يكسر سيفه ويعود الى بلاده ويتحول الى شعلة من نار وتتحول الشعلة الى بجعة تطير .

واذا كانت الطيور المحلقة هى الرمز السياسى فى السينما عامة . فان « العصفور » المصرى المحبوس فى قفصه ، انفلت مع هدير جماهير نكسة سنة ١٩٦٧ رمزا قد تختلف أو تتفق مع مدلول انطلاقه . ولكنها وجهة نظر مخرجه يوسف شاهين السياسية على كل حال .

الفصل السادس

فى السـلم والحرب

النذيـــر

« الم تـر ان الله يسـبح له من فى
السموات والأرض والطير صافات كل قد
علـم صـــلاته وتسبيحـه والله عليـم
بما يفعلون » .

القرآن الكريم (سورة النور . آية ٤١)

اختلف العلمـاء حول كثير مما ذهب اليه داروين فى نظريتـه المعروفة باسم « النشوء والارتقاء » ولكنهم اتفقوا جميعا وسـلموا بصحة ما قال من أن الحيوان عموما ومنه الطير يملك قدرا من الذكاء يختلف حسب نوعه وطبيعة تكوينه ، والعامل الحاسـم فى ذلك هو نسبة حجم المخ أو الرأس الى جسم الكائن ، ويدلنا الفحص العلمى على أن نسبة العقل فى عصفور الكناريا ١ : ١٤ ، وفى الديك ١ : ٢٥ ، وفى العصفور الدورى ١ : ٣٥ ، وفى طائر أبى الحن ١ : ٣٥ ، وفى الشـحرور ١ : ٦٨ ، وفى البطـة ١ : ٢٦٥ ، وفى النسر ١ : ٢٦٠ ، والأوز ١ : ٣٦٠ ، أما الانسان فتتراوح هذه النسبة لديه بين ١ : ٢٢ ، ١ : ٣٢ .

ونحن نخطىء اذا حينما نريد البحث عن طبائع الطيور .. وتقابل بين بنيتها وبنيتنا .. وندعى أنها دوننا ـ لأن كلا من الفريقين كامل بالنسبة لنوعيته . بل أن الأبحاث التى أجريت على السلوك الصادر عن هـذه النسبة أتاحت لناكثيرا مما غمض من سـلوك الانسان . (وترتبت عليه بالتالى نتائج غير منطقية) .

فالمجهودات الأولى التى قام بها العالم الاجتماعى لتعريف طبيعة الانسان مثلا كانت ثقافية من جانب واحد . وأدت الى نهاية حتمية مغلقة تقول ان هناك مجتمعا فوق المستوى البيلوجى هو الذى يصنع الفرد .. ومن ثم فان على الكتاب الذين يؤلفون الكتب للشباب ويقابلون البشر بالطيور التى لا تحركها الا الغريزة أن يتوقفوا لأنهم بذلك يخدمون الذوق الفيكتورى أكثر مما يخدمون حب الاستطلاع. لكن دراسة سلوك الطيور جاءت لتقلب هذه النتائج .. حيث اكتشفوا أن طائر أبو الحن يستطيع أن يتعلم أغانى (أبو الجن) ولكنه لايستطيع أن يتعلم أغـانى طائر آخر .. وأن الشحرور النمساوى لا يفهم لحن الشحرور البافارى والفرنسى لا يفهم الانجليزى .. وأن الطائر لا يغنى الأغانى الخاصة بنوعه الا اذا أتيحت له فرصة الاستماع الى طائر أكبر

يرددها فى فترة معينة من أيامه الأولى أى أن الغريزة وحدها أقل تحديدا مما كان يفترض أن تكون وأن هناك مضمونا ثقافيا يحدث فى اطاره يتطلب قدرا بسيطا من المرونة •

وكان لاكتشاف « ان التعليم فى الطيور يوجد مع الغريزة » آثار بعيدة المدى حيث استغله العلماء الاجتماعيون المتميزون بالارتفاع الثقافى •• فى الدفاع عن موقفهم الذى لا يميز بين البيولوجى والثقافى فى المستوى الانسانى حيث ان هذا التمييز لم يعد له وجود فيما تحت المستوى الانسانى وهو هنا الطيور •• أن تأكيد هذه الحقيقة ينكر ما كان ديكارت قد قرره من أن أفعال الطيور التى تبهرنا آلية محضة لا أثر لاعمال الفكر فيها ومن ثم عادت الكتب التى تؤلف للشباب كما كانت تشير الى الطيور •

ان هذه الطيور لا تصدح فقط ولكنها تتكلم ولها على مثال البشر لهجات خاصة •• والذين يراقبون الطيور يجدون أصواتها تتكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها •• فهديل الحمام اذا جاع غيره اذا طلب السفاد •• فلكل صوت كيفيات ونبرات ليست فى الصوت الآخر •• يفهمه عنها أبناء جنسها فاذا أقبل الربيع دبت فيها حياة جديدة مليئة بالحركة ، تبعث فى جوانح شبابها العاطفة والحب •• وتقارض التشبيب والغزل والاندفاع نحو التزاوج وانجاب البنين •

ولعله من تحصيل الحاصل القول بأن ذلك التطريب الذى تصدح به الذكور من الطيور هو لاجتذاب الأنثى التى تعجب بفنه اذ يتيه أمامها بمفاتن هيئته وشجى نغماته وروائع ألوانه •• لذا كانت الذكور أرشق قدا وأرق صوتا وابدع لونا وأعذب نغما من الأنثى ــ ألسنا نشاهد أن الكثير من هذه الذكور تتوج رؤوسها قنازع مرقشة وأن الألوان الجذابة التى وصفها الكتاب والشعراء فأجادوا ، ورسمتها

ريشة المصورين فأبدعوا هى مما يتمتع به الذكر دون الأنثى اننا لن نسترسل فى ذلك لكم لا نزلق الى غرائب مملكة الطيور فليس هـذا موضـوعنا .

***

ومن الطيور من يملك قوة ابصار حادة مثل الانسان ، كطـائر البومة ، وهى طيور صائدة عيونها فى مقدمة رأسها وبهذا تستطيع أن تلاحظ بسهوله ضحاياها دون حاجة الى أن تنحنى برأسها تجـاه الضحية ، ومن الطيور ما يحتاج الى أدنى قدر من الذكاء فى الحصول على غذائها فهى تعتمد فى البحث عن الطعام على الحس الغرزى وليس قدرة العقل . ومن الطيور أيضا ما يملك من قدرة التأثير على ضحاياها دون اعتماد على قوة البدن ، فالنسر مثلا يهاجم طيورا وحيوانات تفوقه فى القوة والحجم .

وتختلف قدرات الطيور على الطيران والتحليق ، منها ما يستطيع أن يرتفع فى الجو الى أكثر من ٣٠٠٠٠ قدم ، وكذلك فى السباحة فى المـاء ، فالأوز مثـلا يقطع أكثر من ٥٠٠ ميـل سـباحة فى اليوم الواحد . وتختلف قدراتها أيضا على الرؤية ، فحمام السباحة مثلا يستطيع أن يرى الأشياء على بعد يصل الى ١٠٠ ميل ، وتتأثر الطيور بخطوط القوى المغناطيسية التى تمتد من القطب الشمالى المغناطيسى الى القطب الجنوبى المغناطيسى ، وذلك هو ما يجعل الطيور المهاجرة تتبع نفس الطريق كل عام ويعتقد كثيرون أن الشمس هى التى توحى الى الأسراب المهاجرة بمعرفة تجاه سيرها نهارا .. الى المكان الذى تقصده ، ويستطيع الحمام أن يدرك الزاوية بين تجاه الشمال والشمس ، ويعرف أكثر الأجزاء نورا واشراقا فى السماء وفى الساعات المختلفـة أثناء النهـار .

والمؤكد أن صغار الطيور المهاجرة لا تتعلم الطريق من أبويها ،

فالثابت أن الآباء تبدأ رحلتها قبل الأبناء فطائر (الوقواق) مثلا يبدأ رحيله على انجلترا قبل بدأ رحلة الصغار .

***

وهجرة الطيور عموما ظاهرة فسيولوجية تسيطر عليها عدة عوامل مختلفة توصل العلماء الى تفسير بعضها ، ولم يصلوا بعد الى تفسير الكثير من هذه العوامل ، وعموما فقد حقق التركيب البيولوجى الخاص للطائر قدرات خاصة لم يقتصر تأثيرها ونفعها على الطائر وحده . فقد استفاد الانسان كثيرا من هذه القدرات حتى أننا لا تتجاوز الحق اذا قلنا ان الطائر هو أصدق مقياس يسترشد به الانسان فى معرفة أحوال الجو — وفى تنظيم كثير من مجالات النشاط الاقتصادى خاصة الزراعة ، بل لقد استفاد به فى صراعه بينه وبين أخيه الانسان .

فالقبرة عند الألمان اذا صدحت هى والوقواق فذلك يعنى حلول الصيف . ويقول الاسكتلنديون أن طائر « البكاسين » اذا شقشق أثناء طيرانه فذلك دليل على جفاف الجو ونزول الصقيع ليلا . واذا بنى طائر العقعق عشه فى رؤوس الأشجار فمعنى ذلك عند الفرنسيين أن فصل الصيف سيكون لطيفا ، أما اذا بناه أدنى الشجر ، توقعوا هبوب الرياح والزوابع .

وكان المصريون القدماء اذا سمعوا صوت « الكراكى » ألقوا البذور فى الأرض . ومازال الفلاح المصرى يسير حتى الآن على هذه القاعدة . ويقول المثل الشعبى « اذا ذعقت الكراكى ارم الحب وعلى » .

ويحكى العلامة العربى الصولى (١) عن طائر أبو قرن ، أن طائفة

---

(١) الصولى محمد بن يحيى (٩٤٦ هـ) أديب نشأ ببغداد وما تبالبصرة درس.

منه تفد كل عام الى جبل يقال له جبل الطير فى صعيد مصر تتعلق بهذا الجبل ويدخل كل واحد منها رأسه فى كوة الجبل ثم يخرجها ويلقى بعد ذلك بنفسه فى النيل ثم يخرج منه ويعود من حيث أتى ، ولم يزل هذا شأنها حتى يدخل أحد منها رأسه فيقبض عليــه شيء من تلك الكوة ، فيضطرب ويبقى معلقا حتى يتلف ثم يسقط بعد مدة ، فاذا تعلق ذلك الطائر انصرف الباقون فى الحال فلا يرى شيء منها الا فى مثل ذلك الزمان من العام المقبل .

ويقول الصــولى أنه اذا كان العام مخصبا قبضت الكوة على طائرين ، واذا كان متوسطا فعلى طائر واحد ، وان كان مجدبا لم تقبض على شيء .

ويورد القزوينى فى كتاب « عجائب المخلوقات » كثيرا من هذه العلامات ، يؤكدها العلمــاء حديثا بأسانيد علميــة ، كما يعالجهــا « والت ديزنى » فى أشكال فنية رائعة .

وقد شغل العرب الأقدمون بأحوال الطيور وغرائزها وسلوكها . وعبروا عن ذلك الاهتمام فى مؤلفاتهم المصنفة وأشعارهم الوصفية التى يأتى فيها ذكر طبائع الطيور فى الاستشفاف والتوقع قصدا أو عفوا .

يقول لطفى الحلى فى وصف قدوم الكراكى من البطائح ورحيلها الى الجبال فى فصل الربيع :

أهــلا بها مقبــلة رواحــلا تطوى الفلا وتقطع المراحــلا
تخفق فى الجو بصــوت مطرب يشــوق من كان اليه مائلا
لمــا رأت حــر المصيف مقبــلا وطيب برد القر ظلا زائــلا
تخذت من الطــل لها قائــدا والثلج فى أرجلهــا خلاخــلا
وقد أقمنا فى المقامات لهــا معالمــا تحسبهــا مجاهـــلا

الأدب والحديث والقرآن والتاريخ .. وربى ابناء الخلفاء شهر بتاليف كتب النوادر والطرائف .

نرشقها من تحتها ببندق يعرج كالشهب اليها واصلا
فما رقى تحت الطيور صاعدا الا اعتدى بها البلاء نازلا

ويروى كتاب « مجانى الأدب فى حدائق العرب » وصفا لجوانب من غرائز الاستشفاف عند الديك والحمام ، يقول فى الديك « أكثر الطيور عجبا بنفسه ، وهو أبله الطبيعة • وعلامته حمرة العرف ، وغلظ الرقبة ، وضيق العين وسوادها ، وحدة المخالب ورفع الصوت ، وأعظم ما قيل من العجائب معرفة الأوقات الليلية • فيقسط أصواته عليها تقسيطا لا يكاد يغادر منه شيئا سواء طال أم قصر ، ويوالى صياحه قبل الفجر وبعده فسبحان من هداه لذلك » •

قال ابن المعتز يصف ديكا :

بشر بالصبح طائر هتفا هاج من الليل بعد ما انتصفا
مذكرا بالصباح صاح بنا كخاطب فوق منبر وقفا
صفق اما ارتياحا لسنا الفجر واما على الدجى أسفا

وفى وصف الحمام وغرائب طباعه « هو أنواع كثيرة والكلام فى الذى ألف البيوت ، وهو قسمان احدهما « برى » ، وهو الذى يوجد فى القرى ، والآخر « أهلى » وهو أنواع وأشكال ، فمنه الرواعب والمراعيش والشداء والغلاب والمنسوب ، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان فى مسافة بعيدة ، ولأجل ذلك يحمل الأخبار ، ومنه من يقطع عشرة فراسخ فى يوم واحد ، وربما حيد وغاب عن وطنه عشر سنين ، وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة فيطير ويعود الى وطنه ، وسباع الطير تطلبه أشد الطلب ، وخوفه من « الشاهين » أشد من غيره ، وهو أطير منه ، ولكنه اذا أبصره بقربه اعتراه ما يعترى الحمار اذا رأى الأسد ، والشاة اذا رأت الذئب ، والفأر اذا رأى الهر •

ويصف القزوينى هجرة الكركى فيقول « طير محبوب للملوك »،

وله مشتى ومصيف ، فمشتاه بأرض مصر ، ومصيفه بأرض العراق ، وهو من الحيوان الرئيس ، قيل انه اذا نزل بمكان اجتمع حلقه ونام ، وقام عليه واحد يحرسه وهو يصوت تصويتا لطيفا حتى يفهم انه يقظان ، فاذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته ، واذا مشى وطىء الارض باحدى رجليه ، وبالأخرى قليلا خوفا من أن يحس به ، واذا طار طار سطرا يتقدمه واحد كهيئة دليل ، ثم تتبعه البقية •

و ••• مثل هذه الأمثلة والشواهد •• تؤكد معرفة العرب الأوائل بما للطير من خصائص وطبائع وغرائز يستدل منها على المواقيت والفصول كما تكشف عن دهشتهم ازاء استشعار الطير عن بعد بالمكان والضوء والمسافات ، ويدلل « الدميرى » على احساس الطير الغرزى بالخطر المتربص به كما هو حال طائر « القبرة » فاذا وقع على شيء ينظر يمينه وشماله ووراءه ، وفى هذا الصدد يقول الشاعر :

يا لك من قبرة بمعمر خلالك الجو فبيضى واصفرى
قد رفع الفخ فماذا تحذرى ونقرى ما شئت أن تنقرى
قد ذهب الصياد عنك فأبشرى لابد من أخذك يوما فاحذرى

وفى عالم البحار يعتبر طائر « القادوس » أو « النورس » هو دليل وعلامة الملاحين التى لا تخيب على اقترابهم من اليابسة ، وبه عرف « كريستوفر كولمبس » اقترابه من شواطىء أمريكا التى كان يحسبها جزر الهند الغربية •

***

ان هذا الدور الارشادى والاستشفافى فى الطيور يضعها فوق سائر المخلوقات فى حساسيتها ، ولابد أنها وليدة ميزات بيولوجية اختص بها هذا الكائن المعجز •

ولكن هل نستطيع القول بأن هذا التركيب المعجز لا يتيح لها سوى التنبؤ بالجو ؟ وأنها قد عرفت بوجود الحشود الحربية فى مصر قبل اندلاع حرب السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وقد نشرت الصحف المصرية فى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٧٣ على وجه التحديد بنبأ اختفاء أسراب الطيور المهاجرة الى مصر ، وقد تأكدت الصحة العلمية لهذه الظاهرة على صعيد المراكز المتخصصة فى العالم ، وفى الدراسة التى أعدها المحرر العلمى الاستاذ وجدى رياض لمجلة العربى الكويتية ، نشرت فى يناير ١٩٧٧ أستهلها بقوله : « غيرت الطيور المهاجرة الى مصر والقادمه من القطب الشمالى وأوربا طريقها هـذا العام ، ولم تعد الأرض المصرية منطقة جذب للطيور المهاجرة من صقيع أوربا ، ولم يعد مثلث الخصب العظيم ــ الدلتا ــ كافيا لجذب الـ ٢٢ ألف طير التى تأتى كل عام فى ذلك الوقت .

ويفسر الكاتب هجرة طيور الشمال الى مصر ، والتى تبلغ ٥٥ نوعا من الطير بأنها طيور مرهفة الحس والاعصاب ، تحب أن تنعم بربيع دائم فتهجر أوكارها عندما يحل فصل شتاء أوربا القارص ، ولكن بعضا من علماء الطيور يفسر ظاهرة الهجرة ، بأنها رحلة شاقة تتدرب فيها صغار الطيور على مشقه السفر والترحال ، فتحمل الاناث صغارها فى رحلة الـ ٢٠٠٠ ميل ، ويقول فريق ثالث أنها ترحل من أجل البقاء ، بحثا عن الغذاء والتناسل (١) فعندما يحجب الثلج الأرض بما عليها ، تقلق الطيور على صغارها التى لا تجد غذاء ، كما أن الأوكار تصبح غير صالحة للسكنى والمعيشة والحركة ، فطائر السمان والخضير يملك كل منهما جهازا ذا حساسية مرهفة ، ولذلك ما أن

---

(١) دلت الأبحاث العلمية على أنه لو استؤصلت الغدة التناسلية لطير ما فانه لا يرتحل عن موطنه ، لانعدام الحافز الداخلى الذى يدفعه الى الهجرة وهو بقاء النوع ، كما ان عددا غير قليل من غربان أمريكان الشمالية الرحالة لم تنشط للرحيل خلافا لمألوف عادتها الموسمية ، وبالفحص وجدوا أن غددها التناسلية معطلة لمرض اصابها .

يشع الجو بالصقيع حتى يشرع أجنحته نحو البلاد الدافئة ، وثمة فريق آخر من العلماء يقول أن رحلات الهجرة المؤقتة تهدف الى اكتمال نمو أجسام الطيور قبل بلوغها •

والحق أن الاجتهادات الأربعة التى جاءت فى تقارير المشرفين على مراكز بحوث الطيور فى مصر لا تفسر لنا شيئا مما حدث عام ١٩٧٣ من تخلف الطيور عن الهجرة الى مصر فى ذلك العام ففى العام الثانى ١٩٧٤ عادت الطيور كما كانت تفعل من قبل ولم يكن سبب تخلفها اذن خاصا بها أو بسبب تغير ما طرأ على جو مصر ومن ثم فان الشىء غير العادى الذى حدث عام ١٩٧٣ هو الحشود العسكرية الهائلة والتى سبقت الحرب على جبهة القناة وفى سيناء اعتمادا على ما تأكد من غريزة التوقع والاستشفاف عند الطيور وقد يقول قائل انه من غير المعقول أن تشعر الطيور بهذه الحشود أو أنها لا يمكن أن تدخل فى حسابها لأن الطيور تعتمد فى رحلتها الى مصر أصلا على النظر الى الشمس والنجوم وكما يقول الدكتور « فريد استينو » مدرس الانتاج الحيوانى بكلية الزراعة جامعة القاهرة والذى حصل على الدكتوراه فى موضوع « السمان والوراثة » ان السمان طائر تعلم الفلك يرحل تحت الظلام ، ويقف على شاطىء البحر الأبيض بعد رحلة طويلة عبر جبال وغابات أوروبا ، ينتظر جنوح الظلام ، وبمجرد ظهور أول نجم فى السماء ينطلق فوق سطح الماء فى جماعات كبيرة ـ مزودة ببوصلة بحرية ـ تحدد طريقه عبر نجوم الجنوب متجها الى مصر بالدرجة الأولى فى رحلة تستغرق ١٠ ساعات، ويا حبذا لو كان القمر ساطعا ، فهو أسهل دليل لأسراب السمان وخصوصا صغارها •

ويقول الدكتور الباحث وقد أجريت تجربة علمية طريفة لتأكد الفكرة الغرزية عند الطيور حينما تطارد النجوم ، فوضعت الطيور

المهاجرة فى احدى القاعات ، وأعد رجال الفلك صورة كاملة لحركة النجوم فوق البحر الأبيض ، طوال شهر كامل ، وأضاءوا السماء الصناعية فتبين أن رأس الطيور كان دائما فى اتجاه الجنوب أى فى اتجاه الشاطىء الشمالى للبحر المتوسط .

وبالبحث ظهر أن الطائر نفسه غبى ، فهو يطير أثناء النهار فوق أوربا محددا طريقه بالجبال والغابات ، ولكن طريقه فوق البحر تحدده النجوم ، وحينما تتحرك الغيوم والسحب المنخفضة فى اتجاه البحر وتختفى النجوم تضل الطيور طريقها .

واعتمادا على هذا الرأى القائل باسترشاد الطيور بالنجوم أو أن الطيور غبية ، استبعد البعض أن يكون الطـائر قد استشعر على البعد أى تغير فى مصر مثل الحشود العسكرية التى عكرت عليه الجو فى تلك السنة .

ولكن تبين من واقع أبحاث حديثة أبرقت بها وكالات الأنباء العالمية ونشرتها جميع الصحف العالمية والمحلية عام ١٩٧٧ ، تحت عنوان « انقلاب فى عالم الطيور » أن الطيور لا تعتمد فى هجرتها على رؤية النجوم والأشجار فحسب ، أو أنها حساسة وغبية فى نفس الوقت كما انتهى اليه البحث السابق ، ذلك أن القول فى البداية « انها طيور حساسة ، والقول بانها غبية شىء لا يتفق مع المنطق والواقع ، فليس هناك طيور تقطع مثل هذه الرحلة الشاقة ثم توصف بالغباء » .

أما العالم الذى قلب نتائج التجربة السابقة فهو « البروفسير بابى » من جامعة « بيزا » ، والذى أعلن أن الطيور تعتمد على حاسة الشم للتعرف على الأمكنة ، ومن خلال تجربة أجراها هذا العالم على مائة فرد من طائر الحمام تبين له أن الحمامات التى تزور ــ بين حين وآخر ــ مدينة « أرنينو » وتراها وتشمها هى التى تتعرف عليهــا بعد ذلك بسهولة ، أما الحمامات الأخرى التى كانت تنقل الى المدينة

وهى ترتدى قناعا أو كمامة ، فلم تتمكن من التعرف عليها •

وفى تجربة أخرى ، عرض البروفوسير « بابى » ، بعض الحمامات الى هواء صناعى يحمل رائحة الزيتون المزروع فى الجنوب ، وعرض البعض الىهواء آخر يحمل رائحة (التربنتين) الآتى من الشمال الصناعى فتبين له أن الحمامات التى دهن ريشها بالزيتون اتجهت رأسا فى طيرانها الى الجنوب ، أما الحمامات الأخرى المدهونة بالتربنتين ، فقد اتجهت دون تردد صوب الشمال •

ألا يحتمل وفقا لهذا البحث الجديد المتوافق مع طبيعة الاشياء وهو ذكاء الطيور وأن الطيور التى كانت تفد على مصر لم تصلها لتغيرات نوعية وكمية طرأت على الرائحة المعروفة لها عن مصر ، وربما استشعرت الطيور المهاجرة أن حركة الحشود العسكرية وأكداس القنابل وطلقات البارود قد غيرت من الرائحة العذبة لزراعات مصر التى اعتادتها هذه الطيور وهى مقبلة على منطقة الدلتا ؟ ، ألا يدل ذلك على احتمال صحة هذا الرأى ، وأن الطيور قد رصدت وجود الحشود العسكرية قبل أن ترصدها أجهزة الرصد والتجسس من أقمار صناعية وغيرها (١) •

واذا كان هناك من يستنكر ذلك ، فهنالك مثال آخر طيرته وكالات الأنباء حديثا ، ونشرته جريدة « السياسة الكويتية » فى ٢٦ ديسمبر ١٩٧٧ ، تحت عنوان « طيور مهاجرة تكشف عن انفجار نووى فى جبال الاورال » يؤكد فيه الكاتب أن الطيور قد رصدت

---

(١) وكأن الطيور الهاجرة لمصر قد حجبت أجنحتها حتى تخلى الجو للسلاح المصرى ان ينتقم لنوعها .. حيث أن اسرائيل كانت قد اطلقت على عدوانها يوم ٥ حزيران اسم (خطة الحمامة) وكأن دولة العدوان تهزأ بما ترمز اليه الحمامة من فكرة السلام ـ وكان أحرى بها أن تطلق عليها اسم (خطة الصقر) أو خطة (الحمامة الكاسرة) كما قال الكتاب السوفيت .. الذين وصفوا معركة ٦ أكتوبر فى كتاب (.. وانفضح سر الحمامة) •

انفجارات نووية أجراهـا الاتحاد السـوفيتى ، وأن أجهزة الرصد الأمريكية تخلفت عن التنبؤ بها ، وقد دلت الأبحاث التشريحية الأخيرة التى قام بها عالم الأحياء « زورس ملفيديف » الروسى الأصل ، والذى يعمل فى المعهد الوطنى البريطانى للأبحاث الطبية ، على أن طيورا مهاجرة من الاتحاد السوفيتى هاربة من الشتاء القارص تحمل آثار انفجار نووى عظيم حدث فى منطقة جبال الأورال عام ١٩٥٨ أدى كما يعتقد الى مئات الضحايا وألوف المصابين بالاشعاع النووى •

ولكن بعض علماء الغرب يعتقدون العكس فبعد فحصهم للطيور المهاجرة قرروا أن التسمم بالأشـعة النشطة هو أكثر حداثة ، وأنه حدث نتيجة للآثار اشعاعية لانفجار مفاعل نووى ، جاء ذلك فى مقال نشرته المجلة تقول : أنه قد تم بناء مدينة خاصـة لبعض الحيوانات بغرض اختبـار تأثير انفجار قنبلة نووية قوتهـا ٢٠ ميغا طن ، تسقطها طائرة على المدينـة ، ويعتقد بأن نتيجة هـذه التجربة قد تجـاوزت التأثيرات المرتقبة • وأيا ما كانت الخلافـات حول أسـباب تأثر هـذه الطيور بالاشـعاعات النووية ، فالثابت قطعـا أن الطيور ـ كمـا سبق وقررنا ـ تملك من القـدرة على الاستشعار والتنبؤ ما يفرق كل ما أبدعه الانسان وما يعجز عن محاكاته أو اللحـاق به •

***

وقد ارتبطت بعض أحداث التاريخ ، مصادفة بالطيور ولم يكن لذلك دخل أو علاقة بقدرة خاصة على الاستشفاف والتصـدى وقد تكون الصدفة كالقصد الحسن •• اذ تتبعناها فى بناء المدن الأربـع التى اتخـذها العـرب عواصـم لهم عندما قـدموا الى مصر حيث نجدها ـ الطيور ـ مواكبة لبناء هذه العواصم رمزاً أو فعلا فالفسطاط أول عاصمة للمسلمين فى مصر • حددت مكانه يمامة •

وكان عمرو بن العاص قد جاء الى مصر هاديا الى الدين الجديد، وفتحت مصر صلحا بين عمرو والقبط ، وولى الروم الفرار الى الاسكندرية فسار عمرو الى قتالهم ، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت فى أعلاه فأخبروه ، فقال : قد تحرمت فى جوارنا ، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقروه ، وقد أنشدت ماريه ، وصفية أرمانوسه ابنة المقوقس ، وكانت شاعرة ، قصيدة تذكر فيها قصة اليمامة مطلعها :

ـ على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها ....

ـ تركها الأمير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت ....

ـ هى كأسعد امرأة ، ترى وتلمس أحلامها ....

ـ ان سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض ....

وتنتهى القصيدة بمقطع تربط فيه مارية بين « يمامة عمرو » و « هدهد سليمان » .

ـ على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها ....

ـ يمامة سعيدة ، ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان ....

ـ نسب الهدهد الى سليمان..وستنسب اليمامة الى عمرو...

ـ وآهالك يا عمرو !! ما ضر لو عرفت اليمامة الأخرى ....

وتحكى الروايات الشعبية أنه عندما فكر أحمد بن طولون فى بناء مدينته ومسجده اختار طراز البيت الحرام ، فأغاظ ذلك البومة ، وراحت تحلق فوق « القطائع » والمسجد وتدعو عليها بالخراب ، وقد أبيدت القطائع ولم يبق سوى المسجد .

وأراد جوهر الصقلى أن يستطلع النجوم ليسمى مدينة جديدة أقامها لتكون عاصمة لمصر ، وأقام لذلك بعض الأجراس المعلقة بحبال يهزها المنجم حين يرى طالع السعد فى السماء ، فتنطلق الأجراس ويشرع العمال فى وضع حجر الأساس . وهنا وقعت المصادفة حين حطت بعض الطيور على الحبال فدقت الأجراس وظنها العمال أنها الاشارة المتفق عليها فشرعوا فى البناء ، واستطلع جوهر الصقلى منجميه عن النجم الظاهر فى السماء فى تلك اللحظة فأخبروه أنه النجم القاهر ، كما يسميه العرب ، فقال جوهر : على بركة الله فلنسمها القاهرة ، لتصبح قاهرة لأعدائنا .

وتوالت الأيام ... وتولى صلاح الدين الأيوبى حكم مصر ، وأراد أن يبنى له مدينة تخلد ذكره ، ولكنه لم يعثر على موقع مناسب ، فقرر أن يقيم سور مصر الكبير ليحيط به المدن الثلاث : الفسطاط والقطائع والقاهرة ، وأن يفتح به ستة أبواب ، وينشىء فوق المقطم قلعة ويكون بذلك قد احتضن المدن العربية وارتفع بها نحو قلعته فى المقطم . وقد عرف صلاح الدين الأيوبى فى كتب التاريخ باسم « النسر » .

ومن الغريب أن المدن الثلاث تبدو من قمة المقطم كطائر النسر يفرد جناحيه : جسمه مدينة القاهرة والفسطاط وجناحه الأول صحراء هليوبوليس ، والجناح الثانى المعادى وحلوان ، أما منقارة فالأهرام وأبو الهول ، والذنب جبل المقطم .

هكذا لعب الطير مصادفة ، أدوارا فى تحديد موعد بناء المدن العربية وأسمائها ، فى مصر ، ومن قبل أعاد الطائر الحياة الى موقع الكعبة الشريفة ، وهدى الناس اليه .

كان ابراهيم ، عليه السلام ، قد ترك ابنه اسماعيل مع أمه فى

مكة ، ودعا ربه : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » . يقول الدكتور النجار : « ولما نفد ما فى سقاء هاجر انطلقت لاهثة ـ كراهية أن ترى وليدها عطشانا ـ فلما أشرفت على « المروة » سمعت صوتا ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بجناحيه حتى ظهر الماء ، فسقت هاجر وليدها ، فقال لها الملك ألا تخافى الضيعة فان ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعا عن الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، كانت كذلك حتى مرت باسماعيل وأمه هاجر رفقة من جيرانهم مقبلين عن طريق « كداء » فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا ، فقالوا : ان هذا الطائر ليدور على ماء ، عهدنا بهذا الوادى وما به ماء ، فأسرعوا جريا فى اتجاه تحليقه فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروا أهليهم .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم .. وشب الغلام اسماعيل وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أمه ، وزاره بعد ذلك أبوه ابراهيم ، وبنيا البيت معا » .

***

وقد تولى الحمام ، قبل اختراع وسائل المواصلات والاتصالات الحديثة وبعدها ، نقل الرسائل بين المدن فى الحرب والسلم .

وفى الحرب العالمية الثانية استخدم ما يزيد عن مائتى ألف طائر فى نقل الرسائل العسكرية عبر ميادين القتال ، فى الوقت الذى كانت

فيه أوروبا تكتوى فى أتون النيران وتحاط بالاستحكامات التى تعجز الجيوش الجرارة عن اجتيازها •

وقد استخدم الحلفاء الحمام فى تصوير مخابىء الألمان بتثبيت آلات تصوير دقيقة فى أقدامه • وأنعمت الحكومات على أفراد هذا الطير وجماعاته بالأوسمة والميداليات تقديرا لدوره فى خدمة الانسانية •

ومن أحداث التاريخ التى كان فيها للحمام ـ مصادفة ـ دور ملحوظ ، حادثان فى مصر •

كانت قد شاعت هواية الحمام فى مصر ، ويعتقد العارفون بهوايات الحمام • أن منشأ هواية الحمام المعروف باسم « الغزار » ـ وهى كلمة عامية تطلق على حمام الهواية الشرقية وخاصة الحمام المصرى ـ ترجع الى عهود العرب بعد الفتح الاسلامى لمصر ، ذلك أن تشبع العرب بالروح الحربية جعلهم يفضلون نوعا من التسلية يتفق وتلك النزعة • وقد اتقنوا هواية تربية الحمام وتدريبه وساعدهم على ذلك قابلية الحمام « الغزاز » للتدريب واعتدال جو مصر •

كان الحمام بمثابة الجنود ، الأقفاص ثكناته ، وبواسطة راية يلقى صاحبه اليه أوامره ، كان الهاوى يطلق حمامه فى الجو ، مصدرا أوامره برايته ، فتاره يهاجم وأخرى ينسحب ، وهكذا الى آن يسحب أو « يأسر » ـ فى طريق عودته ـ ما يستطيع من حمام غيره •

وقد توارث هذه الهواية فى مصر الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل ويذكر التاريخ أن الملك المظفر « زيد الدين حاجى » ابن الملك « الناصر محمد بن قلاوون » كان من أشد المولعين بهذه الهواية ، وقد بلغ عشقه لها حدا ألهاه عن رعاية شئون الدولة • ويقول المؤرخون أن هذه الهواية كانت السبب فى خلعه وتولى ابنه •

وفى مصر مثل يقول : « اللى معاه قرش محيره يجيب حمـام ويطيره » • بمعنى أن تلك الهواية تصرف صاحبها عن كل شىء سواها وتهلك ما لديه من مال !!

وحادث آخر من تاريخ مصر الحديث ، هو حادث « دنشواى الشهير » الذى وقع عام ١٩٠٦ •

كانت الحرارة قد اشتدت فى أحـد أيام ذلك العـام ، وخرج ضابطان بريطانيان من المعسـكر القريب من قرية دنشواى لصـيد الحمام ، وسقط أحد الضابطين صريعا من مجهود مطاردة الحمام فى ذلك اليوم الحار • وادعت السلطات البريطانية أن أهـالى القرية هم الذين قتلوا الضابط • وجر الحـادث على القرية ، وعلى مصر غضب المستعمرين ، فشنقوا عددا من الأهالى أمام أعين سكانها ، واتخذ مصطفى كامل من الحـادث منطلقا لحملة شديدة ، شنها على المستعمر ، كما أثار الحادث أيضا غضب الكاتب « جورج برنارد شو » وهجومه العنيف على حكومته ، وكتب الشاعر حافظ ابراهيم :

أيهـا القائمـون بالأمر فينـا هـل نسيتم ولاءنـا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد
واذا أعوزتـكم ذات طـوق لم تغادر أطواقنـا الأجيـادا

***

ومن الطيور التى زاحمت الحمام فى خدمة الانسان طائر العقاب ، وقد اختارته بولندا هـذا الطـائر رمزا لطهارتهـا عقب اعتناقهـا المسيحية فى عهد الملك « ميكزسلاد » فى غضون القرن العاشر الميلادى ووراء هـذا الاختيار قصة تقول أ « أنه لمـا كان لابد أن يخـلى الشعب البولندى جانبا من احدى الغابات الهامة استعدادا للاحتفـال

بتتويج الملك المسيحى ، سقط وكر عقاب أبيض كان يعيش فوق احدى الأشجار الباسقة وتسبب ذلك فى هلاك صغاره ، وقد تأثر الملك لمنظر الدم المتدفق من الطائر ومن أفراخه وكان يحتضنها ٠ وقد كان بوسعه أن يفر وحده عندما شعر بقطع الشجرة ، لكنه لم يشأ أن يتركها وحدها تموت ، ولذلك أمر الملك باتخاذ العقاب الأبيض شعارا لبلاده ٠

وفى القرن الخامس عشر اتخذ « ايفان الثالث » عاهل الروسيا طائر العقاب ذا الرأس المزدوج شعارا لبلاده المترامية الأطراف ، وكذلك نابليون ، وان كان المؤرخون قد أطلقوا عليه اسم النسر ، كما أطلقوا النسر الصغير على صغيره ٠

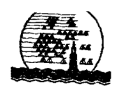
وهكذا كان العقاب على مر العصور ، رمزا للدول القوية فى عصرها ، وقد اتخذه قديما ملوك الشرق وقادته رمزا لقوة ملكهم ٠ وعندما نال الأمريكيون الاستقلال عن الحكم البريطانى اتخذوا النسر رمزا واتخذته مصر أيضا رمزا ، وأطلقته على فريق الطيران ، ولكن العلماء اعترضوا على ذلك ، لأن النسر لا يصطاد لنفسه وانما يأكل من الجيف التى يصطادها غيره ، واستبدل بصقر قريش ٠ ومن المعروف أن الصقور وتدريبها ، ما زالت هواية ملكيـة لبعض أمراء الشرق العربى ، والصقريات من أكثر الطيور التى تسترعى النظر ، وهى مهيأة بروعة لعملية الصيد ٠ اذ أنها طيور قوية قادرة على الانطلاق بسرعة خارقة ، وعلى التحليق بأقل جهد مبذول ، ينضم تحت لواء هـذه الفصيلة حوالى مائتين وأربعة وسبعين نوعا من الأنواع الموجودة حاليا كما يقول الأستاذ شفيق مهدى فى كتابه « الصقريات » ٠

وبصورة عامـة ، تعتبر الصقريات من الطيور كبيرة الحجم ، بل كبيرة الحجم جـدا ٠ رغم الفروق الموجودة بينهـا ٠ النسـور

الأمريكية تضم نوعين من « الكوندور » يصل باع جناحيها عشرة أقدام . ويصل وزن الواحد منها الى عشرة كيلو جرامات . وهذا يجعلها أكبر الطيور الطائرة فى العالم . لكننا نرى فى الصقريات نوعا صغير الحجم ، ولا يزيد وزنه على خمسة وأربعين جراما .

والصقريات تعتبر بحق صديقة الانسان ، اذ أن ٨٦٪ منها تساعده على التخلص من الجثث والرمم المتعفنة والمتسخة التى تبعث الروائح الكريهة . ورغم ذلك فان حظ الانقراض يهددها فى العالم ، اما بسبب صيدها أو بسبب اقتلاع الأشجار التى تسكنها أو بسبب انتشار المبيدات التى تؤدى الى هلاكها .





الطيور والاختراعات

استلهم الانســان الطير على أســاس من العلم وحقق بذلك أعظم انجازاته فى العصر الحديث • اخترع الطائرة والسينما والرادار • وقد انبثقت الأفكار الأولى لهذه الاختراعات مصادفة أحيانا وأحيانا أخرى بالتأمل العامد لحركة وطبائع الطيور •

يرجع اختراع السينما الى عام ١٨٣٠ • سأل الدكتور « فينون » ابنه الذى لم يكن قد جاوز الثامنــة من عمره عما تلقــاه اليوم فى مدرسته ، فأجاب الطفل بأنه تعلم كيف يرسم عصفورا داخل قفص ، فطلب اليه الأب أن يرسم ما تعلم • وبدأ الطفل يعيد الرسم فتنــاول قرصا مستديرا من الكرتون كان غطاء لعلبة وجدها أمامه وبدأ يرسم العصفور أولا ، فملأ به فراغ أحد وجهى القرص ولعدم خبرته لم يترك فراغا لرسم القفص على نفس الوجه فرسمه فارغا على الوجــه الآخر • وعندما أراد الطفل أن يقدم الرسم لأبيه رأى أن أصابعه تخفى جزءا منه فاستحسن أن يمسك القرص من حافتيه بين أصابعه حتى يرى أبوه فى يده الرسم كاملا على وجهى القرص ، دون أن تخفى الأصابع منه شيئا ولم يكد الأب يلتفت ليرى الرسم حتى هبت نسمة هــواء من النافــذة فدار القرص بسرعة على حافتيه وظهر واضحا ، وخيل اليه أن الطفــل رســم العصفور حقيقــة داخــل القفص ولم يفطن الى خدعة تجزئة الرســم الا عندما سكنت حــركة القرص فى يد الطفل • عندئذ أدار الدكتور « فينون » القرص بنفسه وبسرعة على حافتيه ، فخيل اليه أن العصفور داخل القفص فعلا ، واستنتج من

هذه الحادثة البسيطة أن الحركة فى الصورة يمكن خلقها اذا أديرت المـادة المسجلة عليهـا بسرعـة • وكانت هـذه الخطوة الأولى فى اختراع جهاز « زيتوب » الذى يظهر المبادىء الأساسية الأولى لفن الصور المتحركة الذى عرف فيما بعد بالسينما •

***

ومنذ أكثر من ١٥٠ عاما وظاهرة معيشـة الخفافيش وثقتهـا العجيبة بنفسها فى تلمس طريقها تسترعى نظر العلماء فهى تختفى نهارا ولا تلبث أن تظهر قبل غروب الشمس •

وقد أجرى العالم الايطـالى « سبالانزانى » سنة ١٩٧٣ تجربة لكشف كيفية استرشاد الخفافيش لطريقها فى الظلام ، وأثبت أنهـا بعد استئصال عيونها ظلت تطير فى الظلام دون أن تصطدم بالأسلاك التى وضعت فى طريقها • وقد فسر ذلك بأن للخفافيش حاسة سادسة فهى تصرخ أثناء طيرانها ليلا وتصدر صريرا ذا نغمة عالية يرجـع اليه الفضل فى تجنب الخفافيش للعوائق التى تعترض طريقها فى الظـلام •

وفكرة الرادار مستوحاه من ذلك أصلا • فجهاز الرادار يرسل موجات كهرومغناطيسية عن طريق جهاز ارسال يتحرك فى الفضـاء • فاذا صادفت هذه الموجات جسما معدنيا ارتدت فى نفس اتجـاه الارسال ويتم استقبال صورة الجسم المعدنى عن طريق جهاز استقبال له شاشة كشاشة التليفزيون •

***

ومعروف أن الطيور هى التى أوحت باختراع الطائرة وقد بدأ الأمر بمحاولة عباس بن فرناس الطيران عندما صنع لنفسه جناحين من الريش ولكنه عندما وقع على زمكته عرف أهمية ذنب الطائر فى تحقيق التوازن كل هـذا ليس جديدا وانما الجديد ما نشرته جريدة الأهرام

فى ٢٣ مايو سنة ١٩٧٣ فى أن خيال فلاحى وادى النيل القدماء لم يكن عاجزا عندما اخترع المركب ذا الجناحين ـ المجدافين ـ ليكون ظل الطائر على الأرض . وانما اخترعوا الطائرة بالفعل .. ولكنا لم ندرك ذلك لأن اختراع الطائرة لم يكن قد عرف بعد .

فى أواخر القرن الماضى وبالتحديد فى عام ١٨٠٨ عثر عالم الآثار الفرنسى « لوريه » فى الحفريات التى كان يجريها فى منطقة « سقارة » على نموذج صغير لطائرة هى أقدم طائرة عثر عليها فى العالم حتى اليوم اذ يبلغ عمرها أكثر من ٢٢٠٠ سنة . وقد وجد عالم الآثار نموذج الطائرة ضمن عشرات من نماذج الطيور المصنوعة من الخشب ، ونقله معها الى المتحف المصرى ، حيث قيد فى سجلاته الرسمية على أنه « طير » وكان للرجل عذره عندما سجل تحت هذا الاسم لأن الدنيا لم تكن قد اهتزت بعد لنبأ نجاح الانسان فى التحليق فى الجو بالطائرة .

واذا كان أحد لا يعرف بعد هل تطور ذلك النموذج واستعمله الفراعنة قبل الميلاد .. فاننا نتساءل هل كان لمصر دور مباشر فى هذا المجال الحضارى العظيم بعد الميلاد ؟

يقول الأستاذ/ كمال نجيب فى عدد الأهرام المشار اليه من قبل :

« عندما قدمت الحملة الفرنسية الى مصر أحضرت معها « بالون » الاخوين « مونجولفيه » الذى حلق بنجاح فى سماء الأزبكية فى قلب القاهرة وانخلعت معه قلوب ألوف من الذين شاهدوه . ومضت سنوات وحضر الى مصر عالم فرنسى آخر قضى عدة سنوات جالسا فى الموسكى وعلى هضبة المقطم يتابع الطيور فى حركتها ويسجل ما يراه بالرسم ويحاول أن يكشف السر الكبير : لماذا تطير الطيور ؟ وكيف تحافظ على توازنها فى الجو ؟

وبعد سنوات غادر العـالم الفرنسى « لوى مويار » القاهرة عائدا الى وطنه وفى جعبته مجموعة ضخمة من الرسـوم والدراسات عن الطيور وهى تقلع من الأرض وتحلق فى الجـو ، ومدى تأثرها بالرياح والتيارات الهوائية الصاعدة ، ثم وهى تسبح وتدور قبل أن تعود لتهبط على الأرض فى سلام •

وانتهت دراسات « مويار » عن الطيور فى مصر الى محـاولة تطبيقها بالتحليق بطائرة شراعية أى طائرة بلا محرك •

وقد كانت الطائرة الشراعية هى الأسـاس الذى قامت عليـه الطائـرات ذات المحـركات الآلية • واذا كان للأخوين الأمريكيين « ديلبور وأورفيل رايت » فضـل السبق العالمى بالتحليق فى الجو لأول مرة بنجاح فى طائرة ذات محرك يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ • فلاشك أن الرواد الفرنسيين والانجليز والألمـان والأمريكيين وغيرهم قد أسهموا جميعا كل بمقدار فى هـذا النجاح ، وفيما يشهده العـالم اليوم من تقدم مذهل فى الطيران •

ورغم هذا التقدم المذهل الذى حققه هؤلاء العلماء •• الا أن مصممى الطائرات وصانعيها بات حلمهم التوصل الى طائرة جديدة تتمتع ببعض مزايا (طائر الكوليبرى) أو عود الثقاب الذى يتحدى الطائرات والتى تبدأ من حجم بالغ الصغر بحيث لا يزيد طول جسمه عن ١٫٥ سنتيمتر ومنقـاره بذات الطول ، أما زيـله نهو ثلاثـة سنتيمترات •• ويتمتع هذا الطائر بقدرة على الطيران بشكل عمودى مثل طائرة « الهليوكبتر » ويختفى فى الجو بسرعة البرق الى الأمام كمـا الى الخلف •• بل يستطيع الانطـلاق كالصـاروخ الى علو ٥٠ كيلو مترا ، ، ثم الهبوط بنفس السرعة باتجاه الأرض وتقل سرعة صعوده فى بعض الأحيان الى ١٣٠ كيلو مترا فى الساعة ويهبط أيضا بسرعة مماثلة •

وعندما يجد طائر « الكوليبرى » نفسه حرا طليقا •• وغير مهدد بخطر •• يقوم بألعاب بهلوانية فى الجو • كأن يتقدم الى الأمـام بشكل حلزونى ، ويعود فيتراجع بالسرعة نفسها • ويتجه الى أعلى ثم يهوى باتجـاه الأرض ورأسه الى الأمـام أحيانا ، وذيله أحيانا أخرى •• ذلك أنه يملك فرامل لا مثيل لقدرتها فى العالم •• فهو يستطيع بها الوقوف فجـأة فى الفضـاء بينما يكون طيرانه بأقصى السرعـة •• حيث يبسط جناحيـه وريش ذيله بالاتجـاه المعاكس لطيرانه •• ومن ثم فان طائر الكوليبرى لا يخاف كما يقول الخبراء أو يخشى عداوة أى طائر •• الا أبناء نوعه ـ حوالى ٣١٩ ـ نوعا تعيش فى جنوب وأواسط أمريكا •• لأن خفـة حركته فى الطيران تجعله يتغلب على أى مشكلة مع الطيور الأكبر منه •• وهى الكثرة •

وهكذا لعبت الطيور وما زالت دورا عظيما فى حياة الانسـان وتقدمها •• وعندما قلد الانسان الطائر فى علوه على الأرض • اكتشف الأرض التى يعيش عليها وعرف جوهرها وأسرارها وقربت المسافات واتصلت الشعوب وأظهرت الأرض كنوزها وثرواتها •• و •• بدأ عصر جديد •

يقول الطيـار الفرنسى الذى تحول الى روائى شـهير هـو « دى سانت اكزبرى فى روايته أرض البشر (الطـائرة آلة من غير شـك ولكن يا لها من أداة تحليل عظيم • فلقد مكنتنا هـذه الاداة من رفع النقاب عن وجه الأرض فعرفناه على حقيقته ، بعد أن خدعتنا الطرق طيلة قرون ، وكنا كتلك الملكة التى أرادت زيارة رعاياها لترى ان كانوا ينعمون بحكمها فأقام رجال بلاطها الزينات الجميلة فى طريقهـا ليخدعوهـا واستأجروا بعض النـاس ليركعوا أمامها ـ فلم تر شيئا من مملكتها الا هذا الخيط الضئيل ولم تعرف قط أن فى صميم الريف قوما يموتون جوعا ويلعنونها) •

استدراك

يقولون دائما أن من نقائص المذكرات الحميمة والسير الذاتية أن « الأمور البديهية » فيها لا تقال عادة ، وهكذا يفوتها الجوهرى وأنا أيضا وقعت فى هذا وأنا أسطر ذلك الكتاب .. فقد رددت أكثر من مرة أنه منذ بداية الوجود .. لم يشكل الطير وجبات من أطايب الطعام للانسان فقط .. بل أضاف الى عالمه الكثير اذ شارك فى اسعاده وتشكيل أحاسيسه الجمالية .. بل قدم للبشر نموذجا للرحمة والرقة . ونسيت فى خضم اثبات ذلك أن أتناول قمة هذه الرحمة والرقة ألا وهو الحب (١) لا سيما الحب المثالى الخالى من الاغراض والمرامى فقد كان من بين ما أثبت العلماء أنه لو تصاف ببغاوان وائتلفا ثم مات أحدهما فان الآخر لا يلبث أن يموت حزنا عليه ، ولو كانا من نوعين مختلفين .

وها أنذا مضطرة الى أن أنهى الكتاب بما كان يجب على أن أبدأ به لأقوال : لعل من أعجب وأشهر ما اتصفت به الطيور ارسالها النغم العذب الذى يأخذ بمجامع القلوب ، وتلك الموسيقى الرقيقة التى ضرب الناس بها الأمثال ، وأشادوا بها فى نثرهم ونظمهم وأغانيهم « مثل بلبل حيران » « وأدخلت مرة جنينه .. لقيت بلبل » .

واذا كانوا قد قالوا ان الطائر هو من علم الانسان فنون الغرام .. فان هذا القياس يقال على خلافات .. ذلك أن الطيور اكتفت بشهور الربيع غراما .. كما اختلفت فى تزويق الذكر دون

(١) « كيوبيد » الحب عند اليونان ، « ايروس » الحب عند الرومان : تصوره صبيا ذا جناحين يحمل سهما وقوسا يصيب بهما ضحاياه وهو ابن افرديت وآدنس .

الأنثى اذ أن الألوان الجذابة التى وصفها الكتاب والشعراء فأجادوا ورسمتها ريشة المصــورين فأبدعوا هى ما يتمتع به الذكور دون الأنثى .

اذا أقبل الربيع دبت فى الطيور حياة مليئة بالحركة ، تبعث فى جوانح شبابها بالعاطفة والحب ، فتعارض التشبيب والغزل والاندفاع نحو التزاوج وانجاب البنين .. فنراها فى كل مكان طرية جذلة تنشط فى جولات قصــار متسمة بالتطريب .. وما هــذا التطريب العذب الذى تصــدح به الذكور من الطير الا ابتغــاء اجتذاب اناثه التى اختارها اليه ، واقبالها عليه .. ولولاه ما استطاع الذكر أن يقترب من اناثه .. ولا يفوز بتسليم قيادتها اليه .. اذ من أسباب اقبالها عليه .. اعجابها بفنه اذ يتيه أمامها بفاتن هيئته وشجى نغماته ورائع ألوانــه .

على ان غزل الطيور على اضراب وفنون .. فما نشاهده فى دنيا الدواجن ظاهر ، اذ يختــال الذكر أمام اناثه .. وكأنه يدل بقوته ومتانة ساعديه وبزهو ريشه اللامع وحسنه الخلاب ، انه لا ينقطع عن اللف والدوران حولها .. ومد جناحيه نحوها .. وقرع منقاره بمنقارها .. لكى تلين قناتها .. وما يأتيه ذكران الحمام المطوق من الرقص العنيف ومن الوثوب الى رؤوس الأشجار وهبوطه ثانيــة فى سرعة مذهلة وما تفعله ذكران الطاووس من التيه والدل بجمالها ونشرها ريشات ذيلها بشكل فنى رائع .. وما يقوم به الزقزوق من الرقص التوقيعى برجليه تارة وطورا برأســه وهو ينشد الا للفت نظر الأنثى واستدرار عطفها عليه وبذل قلبها له .

اما الأنثى فهى تقف ساكنة فى البداية .. وقد تنقض عليه تضربه بمنقارها .. وتهرب لواذا الى مكان آخر .. فيتبعها ثم يرفع عقيرته بالتصريح والتنغيم فى نبرات موسيقية رقيقة . ولمــا كانت الأنثى

قد طارت مبتعدة عن أعين الرقباء .. فقد خلا لهما الجو .. فيختلى كل ألف بأليفه . وكأن الأنثى قد قادته الى بيت الزوجية .. أو هى حواء التى لا تتغير .

ولعله أدعى الى العجب فى تشابه هـذا المخلوق بنا .. ما ينظمه أنواع من طائر الزقزوق من اقامة الحفلات وتبادل الزيارات فى أيـام الربيع .. حيث يبدأ واحـد من الزوجين الشريكين بزيارة زوجين آخرين فى عشهما .. فيستقبله هذان استقبالا حافلا ، ثم يؤلف ثلاثتهم موكبا يتصـدر الزائرين ويسـيران بخطى متزنة ونيده ، مرددين نغمات عالية كأنها قرع الطبول ، ثم يقفون فجأة ليرفع الزائر جناحيه ويصطف الاثنان وراءه ويلمسان الأرض بمنقاريها كأنهمـا يقدمان فروض التحية والاجلال .. ويظل الجميع على هذه الحال بضـع دقائق ينفض الحفل فى أثره .

والطيور فى غزلها وحياتها الزوجية شديدة الغيرة ، فيثور الزوج لتعرض أى ذكر لصاحبته .. وكثيرا ما يشتبك معه فى عراك دائم ، ان لم يقلع المتطفل عن تطفله وفى هـذه الأثناء تظل الأنثى بمشهد منهما ، تلهب زوجها حماسا وتبعث الفضول فى المعتدى حتى يغلب على أمره .

ويقول العلامة العربى الدميرى ان الرخمة وهو طائر ضخم أبيض ومن أنواعه النسر ، يختار عشا من بيضه أطراف الجبال الشاهقة ، لكى يعز على الغير الوصول لبيضه وأفراخه .. وان للرخمة هـذه أربع خصال ان تحتضن بيضها ، وتحمى فراخهـا ، وتألف ولدها ولا تمكن نفسها الا لزوجها .

وطائر اللقلق .. أيضا شديد الألفة بالغ الغيرة على عرضـه فقد ذكر أحد الجراحين الفرنسيين .. ان الرغبـة استبدت به يوما

لاقتناء لقلق ، فلم يوفق ، وفى ذات يوم عثر على عش لزوجين من ذلك الطائر •• تحت شباك منزله •• فاختلس بيضها فى لحظة طيران الأنثى •• ووضع مكانه بيضتى دجاج ، وبعد أيام فقس البيض وخرج فرخان من أفراخ الدجاج •• وعندما شاهد الذكر ذلك •• غاب عن أنثاه بضعة أيام ثم عاد ومعه طائفة من بنى جنسه حطت كلها واحاطت بمجثم الأنثى ، وجعلت تلقلق •• وتلغو طويلا •• وكأنها تحاكمها •• وهى ساكنة كثيفة حزينة •• وفجأة وثبت عليها ومزقتها وقوضت العش ثم رجعت من حيث أتت •• « هل هذا هو جزاء رد للطيور على تعليمها لنا الرحمة ؟ ! » •

هكذا نجد الطيور تحترم الزواج وتحافظ عليه حياتها كلها ، وليس لهذا الأمر الا تعليل واحد ، هو أن الحب العاطفى قد انتصر على الشهوة الجسدية ، فأقام حلقات لا مادية تقيد شخصين فى أسر اختيارى ، فقلب الزواج الخانق هو الحب المتبادل ، ولم تجد الحياة قوة تصاعدية نحو الروح أقوى من هذه القوة •

لقد أقر علماء الحياة •• أن أجمل ما نراه فيها الآن هو تغريد الطيور ، ونور الازهار •• ترى هل مازالت الطيور تشكل أحاسيسنا الجمالية •• وتعلمنا فنون الغرام قائمة الى الآن وقد غاب عنها المثال والمعلم •• للغط المدينة •• ارتفاع المبانى وقطع الأشجار •• وأصوات المدافع •

« كيوبيد » رب عند اليونان ، و « ايروس » رب الحب عند الرومان . تصوروه صبيا ذا جناحين يحمل سهما وقوسا يصيب بهما ضحاياه وهو ابن أفرديت وآدنس.

كلمـــة ختـــام
دعوة للتأمل والتلاقى

قطع انسان العصر ما بينه وبين الطبيعة • وأصبحنا بدرجــات متفاوتة فى خطر التحول الى أشياء انسانية لكائنات تحيا ولا تمارس ارادتها بحرية كاملة • وهذا هو الجانب المظلم من انجازات الكشف والاختراع •

ان هذه الانجازات وان حققت التقدم المـــادى الا أنها عطلت التجاوب والتجاذب بين الانسان والطبيعة وباعدت بين قطبى الروح والمـــادة •

ومن هنا كان بعض مظاهر الفساد والانحلال التى تميز حضارة القرن العشرين تعود فى معظمها الى ذلك الانفصال الذى حدث بين الانسان والطبيعة •

ان أرضا تفتقر الى خضرة الشجر يكاد لا يسمع فيها صـــوت طير بدعوى التوسع العمرانى هى أرض خراب • وقد حاول الانسان أن يتدارك الكارثة فصـــدرت بعض القوانين لحماية الطير وقد صدر أول قانون فى العالم العربى لحماية الطيور من العدوان عليه فى مصر عام ١٩١٢ يحرم صيد « أبو قردان » و « مالك الحزين » وهما من طيور المـــاء التى تعتمد غذائها على الحشرات والديدان حتى ان كتب الأطفال كانت تسمى « أبو قردان » صديق الفلاح اعترافا بفضله فى مكافحة آفات الأرض والنبات •• ومنذ آلاف السنين اعترف بفضله الفراعنة وقدسوه وتشهد عليه تلك الحفريات التى قام بها الاثرى « ايمرى » فى مصر •

وفى ايطاليا أصدر موسولينى عام ١٩٣٢ قانونا بتحريم صيد الطيور فى كابرى وقد كانت الجزيرة ما تزال محرابا مقدسا ومضيفا كريما للطيور • كان هواة الصيد يطاردون طيور كابرى فلما زارها الكاتب المشهور « اكسل مونته » وكان الطبيب الخاص (لملك السويد) كتب فصلا عن الجزيرة وطيورها وناشد الشعب الايطالى حمايتها حتى تتكامل عناصر الطبيعة الخلابة لهذه الجزيرة •• وما ان قرأ موسولينى ذلك حتى أصدر قانونا يحمى طيورها من أيدى العابثين وتحفظ لها خصائصها التى تبارى فى التعبير عنها أشهر الرسامين • وهناك قوانين عرفية لم تدون أشهرها تحريم لمس الحمام فى بيت الله الحرام والمسجد النبوى ويسمونه « حمام الحمى » لأنه احتمى بالبيت والمسجد ومازال الحجاج يشترون له الحب وينثرونه وهم يرددون : « يا حمام الحمى احضر أهلينا وأحبابنا هنا » • أو « يا حمام احضرنا كل عام هنا » وفى ميدان « سان مارسليو » فى « البدقية » وميدان « الطرف الأغر » فى « لندن » وميادين أخرى فى مدن أوربا يحوم الحمام فى أمان دون أن يمسه أحد •

ولكن رغم القوانين والأعراف مازال الانسان يطارد الطير ويلاحقه ـ عامدا ـ أو غير عامد ـ بالعدوان وفى عام ١٩٧٩ خرج من واشنطن تقرير مولته بعض الشركات الخاصة جاء فيه : « ان حوالى مائة مليون من طيور الزينة النادرة تقع فى الأسر كل عام وان أنواعا كثيرة منها أوشكت على الانقراض » •

وأوضح التقرير الذى أذاعته وكالات الأنباء أن أكثر من ٨٪ من أنواع الطيور النادرة تقضى نحبها قبل عرضها فى الأسواق لأنها لا تحتمل الأسر ولا الطقس الذى لم تنشأ فيه • ولهذا السبب دون غيره ازدهرت تجارة الطيور الى حد أن بعض العصافير تباع بسعر يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف دولار ، بل ان الجمارك

الأمريكية ضبطت مؤخرا بضع مئات من البغاوات البيضاء الكبيرة القابلة للتعلم مهربة من افريقيا قدرت قيمتها التجارية بنصف مليون دولار •

وقد ارتفعت بعض الأصوات مطالبة بأن يرفع الانسان يده عن الطيور ، وقامت جمعيات محبي الطيور تنادي بالعمل بالقوانين التي صدرت بالفعل وبمزيد من اصدار هذه القوانين • وكان الوعد بذلك أحد وسائل الدعاية للمرشحين لانتخابات الرئاسة في بعض دول أوربا •

***

لقد تمثلت في الطيور أعلى مراتب الحرية ، ويذكر الفيلسوف الألماني « باول أرنست » في كتابه « حوار العباقرة » ان أخت الفيلسوف الألماني « نيتشه » قالت وهي تروي عن السنوات الأخيرة من حياته « كان ذات يوم جالسا على عتبة الدار ، فتراءت له عن بعد طاحونة هواء قديمة نزعت أجنحتها فلما أبصرها قال ساخرا بمرارة : ولكنها دون أجنحة ثم ضحك وأصيب بالجنون • ويعلق « ارنست باول » على ذلك قائلا : « اذا كان نيتشه قد قال ذلك حقا ثم ضحك وجن •• فقد كان الرجل الذي عرف بأنه من القلائل في التاريخ الذين قضوا جل حياتهم يبحثون عن الحرية • كان يريد أن يطير أن يحقق الحرية في أعلى مستوياتها » •

لقد انقرضت تماما على يد الانسان أنواع من الطير لم يبق منها الا ما تذكره دوائر المعارف وصفحات التاريخ ، ومازال الانسان يمارس عدوانه على الطيور كل يوم رغم الصيحات التي تطلقها الهيئات الدولية المعنية تحذيرا من الخطر الذي يهدد أنواعا أخرى نادرة •

ويقدر العلماء عدد الطيور التي تحيا اليوم ـ في عالمنـا ـ بنحو ثمانية آلاف وخمسمائة وثمانين نوعا كما يصل العدد الكلى للأنواع التى انقرضت فى ضـوء ما أخبرتنا به المتحجرات الجيولوجيـة الى ما يقرب من ثمانمائة نوع أى ما يقرب من عشرة بالمـائة من الأنواع الموجودة حاليا .

ان أخطر نتائج تلك الحرب هو الخلل الذى بدأ يصيب التوازن الطبيعى بين أنواع الطيور والحيوان والمعروف أن كل نوع مرتبط وجوده بوجود نوع آخر .. واذا كانت السنوات الأخيرة قد شهدت تصاعد الدعوة الى السلام بين البشر فينبغى أيضا أن تبدأ الدعـوة الى السلام بين الانسان والطير . ان يكف يده عنه ويفتح له قلبه .

أن يفتح له قلبه ويفسح له فى حديقته وبيته أن يتعلم الاصغاء اليه والحوار معه فى هذا العصر الذى تحاصر فيه الأجهزة الآليـة المعقدة الانســان وتمزق الخيوط التى تشده الى أهله وأصـدقائه وجيرانه وتسلبه متعة استخدام فكرة والخلو الى نفسه .

ما أحوج الانسان الى الطير صـديقا يتيح له الافلات من أسر عالم الأجهزة والآلات والعودة ثانيـة الى عـالم الطبيعـة الخصيب بأقماره وأفلاكه وآفاقه الفسيحة بغير حدود .

ما أحوج الانسان الى ملاذ يعصمه من القلق والتمزق والضياع من الوحدة والوحشة والاكتئاب .

ولن يسترد الانسان هدوء نفسه وصفاء فكره الا يوم يعود الى بيئته الطبيعية ويغدو كما كان صديقا للطير والشجر والنجم والمطر ويستشعر فى أعمق أعماقه نبض الحياة الحقة . التى تفجر فى حناياه طاقة الابداع الفكرى والفنى .. فيغدو كالطير المغردة تشع موسيقاها

فى الكون ويتخطى نبضها الشعرى المسافات والحواجز ليهمس فى قلب أخيه الانسان بآماله وآلامه . ويناجيه بعذاباته وجراحاته فيتوحد مع نظرائه من الذين يحملون نفس الهموم ويطمحون الى ذات الأهداف ليحطوا القضبان التى يغرسها فى طريقهم أعداء الحرية وأعداء الانسان ذلك ان اليد التى تمتد لقتل الطيور هى نفس الأيدى التى تمتد لاغتيال الشعراء والمنادين بالحرية .

لقد ناجت الشاعرة فدوى طوقان يوما رفيق نضالها الشاعر الفلسطينى كمال ناصر عندما سجنه اليهود .. قائلة :

شدوك يأتينا حبيب الصدى .
محلقا رغم انغلاق الرحاب .
يا طائرى السجين فاصدح لنا .
من خلف جدران الدجى والعذاب
عن قضبان الحديد التى
تسد فى وجهك رحب الفضاء .

وكم شدا كمال ناصر .. يهيب بقومه أن يفيقوا .. ولكنه أغتيل .. ومازالت وفود الشهداء تتبعه .. فهل ترجع بحور الدم التى تغرقنا الى الآن أننا لم تفق الى ما أنذرنا به الشهداء من طيورنا المغردة تحت ناظرينا .

هذا ما حدث .. وسيحدث ان لم ننتبه .



فهـرس

رقم الايداع ٨٥/٧١٧٧

الترقيم الدولى ٦ - ٨٠٠ ٠ - ١ - ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

استدراك لبعض الاخطاء المطبعية

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
بشـــيرا	بصـــيرا	٣٤	٧
الفــرب	الغــراب	٣٤	٨
وعـــال	و قـــال	٤٥	٣
يسره	يشره	٥٤	١
مســـكا	ممســـكا	٥٨	١٨
عبــد	مكروه	٦٢	٥
ابو قيد	ابو فيد	٧٠	١٠
وحــلمى	وحــلى	٧٠	١١
اصعد الى راس	اصعد الى رأس الجبل	٧١	١٩
رأسى ثبير	رأس ثبير	٧١	٢٠
وغيظ	غيض	٧١	٢٣
يضعــه	بضعــه	٧٢	١
ويستلهه	يستلهمــه	٧٢	الأخير
التســـاس	التمــاس	٨٠	١
الهــواء	الســـماء	٨٤	٦
وكــأن	وكـــان	٨٤	٧
ان راته	امرأتــه	٨٥	٩
عالمــا جديدا آخر	عالمــا جديدا آخر بدراســته اللاشعور	٨٧	١٦
ويــروى	ويــرى	٨٨	٥
واذا جــاز	مكررة	٩٣	٨

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
عامه عجر الانسان .	عامه.عجز الانسان عندما خرج	١٠١	١١
فـان	عـن	١١٣	٧
(برومثيوس) كان	(برومثيوس) كان ينزل	١١٨	٧
الدنس يعرف	الدنس لم يعرف	١٣٢	٢٢
هنـاع	هنـاك	١٣٤	١٥
يسـمع	يسـمح	١٣٥	١٦
العسـكريين	المعسـكرين	١٤٠	٤
ولكن حكماء أسرب	ولكن حكماء أسراب (النوارس)	١٤١	٢٢
المشرقـة	المشرفـة	١٤١	٢٥
عـن	عنى	١٤٧	١
قـاش	عـاش	١٤٩	٦
فيمـا	فيهـا	١٥٦	١
فى الانتقال	الانتقـام	١٦٨	١٧
لكم	لكى	١٧٣	٢
وصفيه	وصيفة	١٨٣	٦



عنوان غريب ماالذى أوحى به إلىّ ؟

كـان لنشأتى دخـل أكيد فى الاهتمـام بالعـلاقة بـين الإنسان والطائر ، لدرجة أكاد أقول معها إنه ما من موقف أو حادث مرَّ بى منذ بدأ إحساسى بالحياة وإدراكى للأشيـاء من حولى إلا و يثير فى نفسى ذكرى مشابهة كانت لى مع الطير ، بل يكاد عالم الطير يصبح فى مخيلتى ومشاعرى مقابلا لعالم البشر بكل مـا يموج بـه من أحداث ومـواقف وعـلاقـات ، فهـل حقـا ما لاحظت من خلال دراساتى وقراءاتى فى دروب المعرفة أن للطير ـ كعنصر من عناصر الطبيعة ـ مغزى فى حياتنا فى جميع الحضارات الإنسانية القديمة والحديثة ؟ وهل اختلف مغـزى ذلك حسب كل موضوع تعرض له ؟ . .

٢٤٠ قرشــًا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب